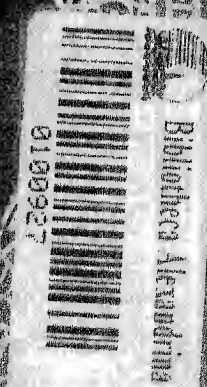


الزَّحَاوِ وَالْعَبَقِيَّةُ
مُعْجَمُ شَمْسَانِي جَامِع

عبد الرحمن البربروني

الجزء الثاني

مكتبة الثقافة العربية
بمبنى المكتبة العامة
بمبنى المكتبة العامة



عبد الرحمن البرقوقي

الذخائر والعبريات مُعْجَمٌ مُتَقَنٌ فِي مُجَامِعٍ

الجزء الثاني

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن سبحانه نستمد العون والتوفيق

فهو المسدّد إلى سواء الطريق

«وبعد» فإنّا نَفْتَحُ هذا الجزء الثاني من «الذخائر والعقريات» بصَدِّ
من عبقرياتهم في أكثر المعاني التي أوردنا ما أوردنا من عبقرياتهم فيها ، في
أبواب الجزء الأول ، وكان المُتَوَقَّعُ أن نَفْتَحَ هذا الجزء بسائر عبقرياتهم
في التعازي ، وفي المرض ، بيدَ أنّا قد استحسنّا أن نُصَدِّرَ هذا الجزء الثاني
بطائفة من عبقرياتهم في معاني شتى تَنَدَرِجُ في الأبواب السابقة ، وذلك
لأمرين : أما أولهما فلأن في هذا الصنيع مُبَادَرَةً بِاسْتِذْراكٍ ما قد كان يصح
إيراده هناك ، وأما الآخر : فذلك لأنّا لم نَسْتَحْسِنَ أن نَفْجَأَ المتصفح لهذا
الجزء بما عسى أن يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، على أن هذه
العقريات وإن جاءت في البَيِّنِ وَفَصَلَّتْ بين عبقریات الباب الثالث غير
أنها جاءت كالذُرَّةِ الفريدة تَفْصِلُ بين ذَهَبِ القِلَادَةِ ؛ إلى ما في ذلك من
استراحة للقارئ وتنقّل به من معاني قد تكثّرنا منها إلى معاني أخرى قد
يستريح إلى جِدَّتِها ؛ وبعد أن نَفْرُغَ من هذه العقريات نُعْطِفَ على عبقرياتهم
في التعازي ، وفي المرض ، وقانا الله جميعاً بِحُسنِهِ ، وَخَفَّفَ - إذا هو قُدِّرَ
علينا - وطأته .

غـبـقـريـات شـتـى

تندرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حدّث به العُتْبِيُّ ^(١) في إسناد ذكره قال: دعا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ أبا بكر وعمر وعثمانَ رَحْمَةُ اللَّهِ عليهم، فأبطأ الغلامُ - الخادم - عنه بشيءٍ أراده، فقال طَلْحَةُ: يا غلام، فقال الغلام: كَبَيْك، فقال طَلْحَةُ: لا لَبَّيْكَ؛ فقال أبو بكر: ما يُسرني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي نصف الدنيا، وقال عثمان: ما يسرني أني قُلْتُها وأن لي حُمْر النّعم ^(٢)؛ قال العُتْبِيُّ: وصمّت عليها أبو محمد - هو طَلْحَةُ - فلما خَرَجُوا من عنده باع ضَيْعَةً بِخَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِشَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعتَ بمثل هذا الأدب العُلُوّى الرِّبَانِيّ؟ وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أي أقطاره رأيت أدباً بِاسِقاً وحُلُقاً سامياً! فهذا الصّدِّيقُ رضى الله عنه يُنكر في كِيَاسَة وأدب قولة

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تنابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرائم بمرات كثيرة منها قوله:

كَلَّ لِسَانِي عَنْ وَصْفِ مَا أَجَدَ وَذَقْتُ تُكْلًا مَا ذَاقَهُ أَحَدٌ
مَا عَالَجَ الْحُزْنَ وَالْحَرَارَةَ فِي الْأَحْشَاءِ مَنْ لَمْ يَمِتْ لَهُ وَلَدٌ
وله من الأبيات السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤه الكبير
(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حمراً وصهباً؛ لأن الحمراء أصبر على الهواجر، والصهباء أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لغلامه : لا لبيك ، ثم يحيى بعده عمر فينكر هو الآخر إنكاراً لا يحظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أخذ العشرة المبشرين بالجنة^(١) وأخذ الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأخذ الخمسة الذين أسلوا على يد أبي بكر : وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرق في يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة فحملها إليه ، فبات ورؤسله تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم ! ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بثمانمائة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً من بني تميم عائلاً إلا كفاه ، مؤنته ومؤنة عياله وزوج أياهم^(٤) وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم ! وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب ؛ أي أتى بما أوجب له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأياح جمع أيم والأيم من النساء : التي لا زوج لها بكرة كانت أو ثيباً ومن الرجال : الذي لا امرأة له .

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يوم
الجل (١) خرج علي بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قنبر (٢) ، وفي
يده مشعلة من نار يتصفح القتلى ، حتى وقف على طاحنة فقال : أعزُّ علي
أبا محمد أن أراك معفراً (٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شفيت
نفسى وقتلت معشري ! إلى الله أشكو عَجْرِي وُبَجْرِي (٤) ثم تمثل (٥)
قَتَّى كَانَ يَدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
قَتَّى لَا يَعُدُّ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبَرُ
قَتَّى كَانَ يُعْطَى السِّيفُ فِي الرُّوْعِ حَقَّهُ

إذا ثوب الداعي وتشقَّى به الجزر (٦)
وهون وجدي أننى سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفَسَ العُمرُ
وقوله قَتَّى كَانَ يَدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ ... البيت : هو معنى جميل مطروق
وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة
تمتطي جلا فسمى ذلك اليوم يوم الجمل
(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أى ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر ، والعفر
(٤) أى ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر
والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الأصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب
يقال : لقي فلان فلانا فأبته عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلمة بن يزيد بن مشجعة الجهمي أحد الصحابة يرثى أخاه لأمه
(٦) ثوب الداعي ، قالثوب : التلويح بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو
ابن العلاء : الثوب : الترجيع من ثاب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاه
بعد دعاه ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقَّى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا نَعَتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنْ أَثَرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا اقْتَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَّرْتَ خَيَّمْتَ عِنْدَنَا لَوَامًا وَإِنْ أَعْسَّرْتَ زُرْتَ لِمَا مَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في هذا المعنى؛ وما أبرع
أبياتاً لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ انْهِدَامَهُ بَنَاهُ إِلَهُ غَالِبُ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْلَاقُهُ وَمَا تَرَاهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لَافْتِقَارِهِمْ

ولا تهتدي يوماً إليهم مفاقرُهُ^(١)
وكانوا كزرايم كوكباً يبصافيه فَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَبُله ومواطرُهُ^(٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تحدث رجلٌ من الأعراب قال : نزلتُ برَجُلٍ من طَيْبٍ ، فَتَحَرَ لِي نَاقَةٌ

(١) المفقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كالملاح والمشا به

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
الجمال والجول : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رماني بما عاب عليه ،

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي عَنِّي
وَيَكْفِي ، فَقَالَ : إِنْ وَاللَّهِ لَا أُطْعِمُ ضَيْفِي إِلَّا لَحْمًا عَبِيْطًا ، قَالَ : وَفَعَلَ
ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ آكَلْتُ شَيْئًا وَيَأْكُلُ الطَّائِيُّ أَكْلَ جَمَاعَةٍ ،
ثُمَّ أُوتِيَ بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةُ الْوَطْبِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ ارْتَقَبْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَسَلْنَا نَوْمًا اسْتَقْبَلَتْ قَطِيعًا مِنْ إِبِلِهِ ،
فَأَقْبَلَتْهُ الْفَجَّ ، فَأَنْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَى الطَّرِيقِ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيقٍ مِنْهُ ،
فَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لَتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي
آيَةً ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الضَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعُ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ،
فَأَنْدَرُ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى أَعْلَى قَفَّارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْتَبَ
سَهْمِهِ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّالِثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ، فَقُلْتُ : شَأْنُكَ
إِيَّاكَ ، فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسُوْقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا
قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ رِزَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي
حَمَلَكَ عَلَى اخْتِذِ إِيَّايَ إِلَّا الْحَاجَةُ ، قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِزُّ
إِلَى عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهِا فَخُذْهَا ، فَقُلْتُ : إِذَنْ وَاللَّهُ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَسْمَعَ
مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيَافَةً وَلَا أَهْدَى لِسَانًا وَلَا أَرْحَى
كَفًا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبُ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ، قَالَ :
فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصَرِفْ بِالْقَطِيعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...
« قَوْلُهُ : عَبِيْطًا : يُقَالُ : عَبِطَ فُلَانٌ نَاقَتَهُ : إِذَا نَحَرَهَا مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسْرِ
وَهِيَ شَابَةٌ سَمِيَّةٌ ، وَالْعَبِيْطُ أَيْضًا : اللَّحْمُ الطَّرِيقِيُّ غَيْرِ النَّضِيجِ ، وَالْوَطْبُ :
سِقَاءُ اللَّبَنِ خَاصَّةً مِنْ جِلْدِ ، وَالْفَجَّ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْجَمْعُ :
جُحَاجُ ، وَاخْتَصَرَ الطَّرِيقُ : سَلَكَ أَقْرَبَهُ ، وَفَوْقُ السَّهْمِ : مَشَقُّ رَأْسِهِ حَيْثُ

يقع الوتر ، وآوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسَقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشَّيْءُ يَنْدُرُ نَدُورًا : سَقَطَ أو سَقَطَ من جَوْفِ شَيْءٍ أو من بين أَشْيَاءٍ فظُهِرَ ، ومنه نوادرُ الكلامِ وهى مَاشَدَاتٌ وَخَرَجَاتٌ عن جَهِوْرِهِ فظُهِرَتْ . وقوله : ولا أَرْغَبُ جَوْفًا : من الرُّغْبِ وهو : سَعَةُ البَطْنِ وكثرة الأكلِ ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبَرِّدُ : أَنَّ رجلاً من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً رَاكِبًا على بُغْلةٍ لم أرَ أَحْسَنَ وَجْهًا ولا سَمْتًا ولا ثوبًا ولا دَابَّةً ، منه ! فقالَ قَلْبِي إِلَيْهِ ، فسألتُ عنه فَقِيلَ لِي : هذا الحسنُ بنُ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طالبٍ ، فامتلأَ قَلْبِي لَهُ بُغْضًا ^(١) وَحَسَدْتُ عَالِيًا أَنْ يَكُونَ لَهُ ابْنٌ مِثْلُهُ ! فَوَصَّرْتُ إِلَيْهِ ^(٢) ، فقلتُ لَهُ : أَنْتَ ابنُ أَبِي طالبٍ ؟ فقال : أنا ابنُ ابْنِهِ ، فقلتُ : فَبِكَ وبَأبيكَ أُسَبِّهُمَا ، فلما انْقَضَى كلامي قال لِي : أَحَسَّيْبُكَ غَرِيْبًا اقلتُ : أَجَلُ قال : فإِنَّ بِنَا فَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى مَنْزِلِ أَنْزَلْنَاكَ ، أو إِلَى مَالِ آسِينَاكَ ، أو إِلَى حَاجَةِ عَاوَنَاكَ ، قال : فَانصَرَفْتُ عَنْهُ وَوَاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ... وقال رجلٌ لرجلٍ من قُرَيْشٍ : إِنِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَشْتَبِعُونَكَ شَتَا رَحِمَتُكَ مِنْهُ ! قال القرشي : أَفَسَمِعْتَنِي أَقُولُ إِلَّا خَيْرًا ؟ قال : لا ، قال : إِيَّاهُمْ فَارْحَمَ ... وقال ابنُ مسعودٍ : إِنْ الرَّجُلَ كَيْتَظَلِمُنِي فَأَرْحَمُهُ ! وقال رجلٌ لِلشَّعْبِيِّ كَلَامًا أَقْدَعَ لَهُ فِيهِ ، فقال لَهُ الشَّعْبِيُّ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَعَفِرَ اللَّهُ لِي ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَعَفِرَ اللَّهُ لَكَ ... وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَتَى مَسْجِدًا ، فَصَادَفَ فِيهِ قَوْمًا يَغْتَابُونَهُ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي اللَّبَابَ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّةَ :

(١) لأن الرجل من أشياع معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِصْيِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدَى إِلَى يَدَا لِمَا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْيِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَنَحْمَدَةِ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحُمُهُ حَتَّى بَكَيتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد يحثه - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فادبٌ يتجلى به ،
قال : فإن عديمه ؟ قال : فمالٌ يستتره ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فصاعقةٌ تريحُ
منه العبادَ والبلاد ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيتها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وَأَقْلَدَتِ السُّيُوفَ ، ولم تعدَّ الحِلْمُ ذُلاً ، ولا التَّوَاهُبُ فيما بينها صَعَةً ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيتها ، وقوله : وتقلدت
السُّيُوفَ ، يريد : الامتناع من الضيم ، وقوله : ولم تعدَّ الحِلْمُ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحلم ، وذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأثور لم يُقَلَّ : حَلَمَ ، وإنما يقال : حَلَمَ ، إذا تَرَكَ أَنْ يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبة يَكْرَهُها . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أَنْ تَرَكَهُ الحِلْمُ ذُلٌّ فهو خطأ وسَفَهٌ ؛ وقوله : ولم تَرَ التَّوَاهُبَ بينها ضَعْفٌ ، نحو من هذا ، وهو : أَنْ يَهَبَ الرجل من حَقَّة مالا يُسْتَكْرَهُ عليه ... وكان يقال : أَحْيُوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا مَنَّ بِمَعْرُوفِهِ كَدَّرَهُ ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصَّنِيعَةَ ، وقد قال قيس بن عاصم المِنْقَرِي : يَا بَنِي تَمِيمَ ، اصْحَبُوا مَنْ يَذْكُرُ إِحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَيَنْسَى أَيْدِيَهُ إِلَيْكُمْ ...

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعنى العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذى تقدمت به السن - فوالله لأوتى بوضع سَبِّ شريفا ، أو شابٍ وَتَبَّ بشيخ ، أو جاهلٍ اهْتَنَّ عالما ، إلا عاقبتُ وبالفَتْ ... وقال عُمَارَةُ بن عَقِيل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يَا أَيُّهَا السَّائِلِي عَمَدًا لِأَخْبَرِهِ بَذَاتِ نَفْسِي وَأَيْدِي اللَّهِ فَوْقَ يَدِي
إِنْ تَسْتَقِيمُ أَسَدُ تَرْتَشِدُوا إِنْ شَغَبَتْ فَلَا يَسْلُمُ لَانْمُ إِلَّا بَنِي أَسَدٍ
إِنِّي رَأَيْتُكُمْ يُعْصَى كَبِيرُكُمْ وَتَكْنَعُونَ إِلَى ذِي الْفَجْرَةِ النَّكِيدِ^(١)

(١) تَكْنَعُونَ : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فيهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيح ، من فجر الرجل يفجر فجرا وفجورا : انبعث في المعاصي ، والنكيد : اللئيم ، من النكد - بالتجربك - وهو الشؤم واللؤم

فَبَاعِدَ اللَّهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فرأى عصيانهم الكبير من أفتح العيب وأدله على ضغن بعضهم لبعض
 وحسد بعضهم بعضا ، والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مُقاولته نفرا ،
 والاجترأ عليه رجحا ، كما أن مقاولَة الشريف للثيم ذل وضعة قال الشاعر :
 إذا أنت قاوَلتَ للثيمَ فإنما يكونُ عليك العتَبُ حين تُقاوَلُهُ
 ولستَ كمن يَرْضَى بما غيرُهُ الرضا ويمسحُ رأسَ الذئبِ والذئبُ آكله
 قال المبرد : وفي هذا الشعر بيتان يقدمان في باب الفتك - وفي باب الغرم
 والشجاعة والإقدام - وهما :

فَلَا تَقْرِنُ أَمْرَ الصَّرِيْمَةِ بِأَمْرِئٍ إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقَتْهُ عَوَازِلُهُ^(١)
 وَقُلْ لِلْفَوَادِ إِنَّ نَزَابَكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرَّوْعِ أَفْرِخُ أَكْثَرَ الرَّوْعِ بَاطِلُهُ^(٢)

قال المبرد : وقد امتنع قوم من الجواب - أى من مقاولَة اللثيم - تبلا
 - يريد ترفعا - وواضعهم تُنْبِئُ عن ذلك - أى أن مراكرهم تدل على
 أن امتناعهم ترفع - وامتنع قوم عينا بلا اعتلال - يريد دون أن يبدو اعلة لهذا
 الإعراض عن اللثام - وامتنع قوم عجزوا واعتلوا بكراهة السفه ، وبعضهم
 معتل برفعة نفسه عن خصمه ، وبعضهم كان يُسبُّ الرجل الركيك من
 العشيرة ، فيعرض ويُسبُّ سيده قومه ، وكانت الجاهلية ربما فعلته في الذحول

(١) فلا تقرن : من قرنت الشيء بالشيء : شده إليه ، وكذلك قرنته إليه ،
 والصريمة : العزيمة

(٢) إن نزابك نزوة : فالنزوة : المرة من النزو وهو الوثوب إلى فوق ، يريد :
 إن تسلط عليه الغرور والعرباض طرب ، وأفرخ يريد : أفرخ روعك ، ومعناه : ليجرح
 عنك رعبك ويذهب فزعك كما تفرخ البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج منها وقوله :
 أكثر الروع باطله ، يريد : ليس الأمر على ما تحاذر

- جمع ذُحُل وهو: الثَّأْر - قال الراجز:

لَمَّا بَجِلا كُلُّمَا هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَغْطِشِ أَوْ أَبَانِ
أَوْ طَلَحَةِ الْخَيْرِ فَتَى الْفَتِيَانِ أُولَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِ
مَا نَلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحدُ المحدثين:

إِنِّي إِذَا هَرَّ كُلُّبُ الْحَيِّ قُلْتُ لَهُ إِسْلَمْ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ^(١)
وفي مثل اختيار النِّبِيلِ لَتَتَكَافَأُ الْأَعْرَاضُ قَوْلُ الْإِخْطَلِ:

شَقِيَ النَّفْسَ قَتَلِي مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتَلِي غَنَى وَلَا جَسِيرٍ
وَلَا جُشْمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لَهَا كَبِيضُ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا خُمِرٍ
وَلَوْ يَبْنَى ذُنْيَانَهُ بُلْتُ رِمَاحُنَا لَقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرَى
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بنُ أبان اللّاحِقِ:

أَلَيْسَ مِنَ السَّكْبَائِرِ أَنْ وَغْدًا لَالٍ مَعْدَلٍ يَهْجُو سَدُوسًا
هَجَا عَرَضًا لَمْ غَضَضًا جَدِيدًا وَأَهْدَفَ عَرَضَ وَالِدِهِ اللَّبِيسِ^(٢)
وقال آخر:

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبَرٍ وَمَا وَلَدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَوْنُوا مِنْ أَوْمٍ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لَوَبَرٍ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحدُ المحدثين هو - دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِي -:

(١) الجَرَر: جمع جَرَّة وهي: الجذب كالجز والاجترار

(٢) يريد: جعله هدفا يرمى، واللّبيس: مستعار من قولهم ثوب لبّيس إذا كثرت
لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فدَقَّ عِرْضُكَ دونه والمدحُ غنك كما عَلِمْتَ جليلُ
فأَذْهَبَ فَأَنْتَ عَتِيقُ عِرْضِكَ إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وَأَنْتَ ذَلِيلُ
وقال آخر :

نُبِّئْتُ كَلْبًا هَابَ رَمِيْ له يَلْبِخُنِي مِنْ مَوْضِعِ نَائِي ^(١)
لو كُنْتُ مِنْ شَيْءٍ هَيَّوْنَاكَ أَوْ لَوْ بَدْتُ لِلسَّامِعِ وَالرَّائِي ^(٢)
فَعَدَّ عَنْ شَتْمِي فَإِنِّي أَمْرُو حَلَمْنِي قِلَّةُ أَكْفَانِي
وقال دعبل أيضاً :

فلو أَنِي بُلِيتُ بِهَاشِمِيٍّ خُوِّلْتُهٖ بَنُو عَبْدِ الْمَدَّانِ
صَبَرْتُ عَلَى عَدَاوَتِهِ وَلَسَكُنَ تَعَالَى فَأَنْظُرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي
وَوَقَفَ رَجُلٌ عَلَيْهِ مُقَطَّعَاتٌ عَلَى الْإِخْنَفِ بْنِ قَيْسٍ يُسَبُّهُ ، وَكَانَ عَمْرُو
ابْنُ الْأَثَمِ جَعَلَ لَهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يُسَفِّهَ الْإِخْنَفَ ، فِجْعَلُ لَا يَأْلُو أَنْ
يُسَبِّهَ سَبًّا يُغْضِبُ ، وَالْإِخْنَفُ مُطَرِّقٌ صَامِتٌ ، فَلَمَّا رَأَاهُ لَا يُكَلِّمُهُ أَقْبَلَ
الرَّجُلُ يَعْضُ لِنَهَائِيهِ وَيَقُولُ : يَا سَوْآتَاهُ ، وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي
عَلَيْهِ ... وَفَعَلَ ذَلِكَ آخِرُ فَأَمْسَكَ عَنْهُ الْإِخْنَفُ ، فَأَكْبَرَ الرَّجُلُ ، إِلَى أَنْ
أَرَادَ الْإِخْنَفُ الْقِيَامَ لِلْغَدَاءِ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ : يَا هَذَا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قَدْ
حَضَرَ فَانْهَضْ بِنَا إِلَيْهِ إِنَّ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُدَّ الْيَوْمَ تَحْدُو بِجَمَلٍ تُقَالُ ^(٣).

عبرة

قال المنصورُ لعمرُو بنِ عُبيدٍ : عِظْنِي قَالَ : بِمَا رَأَيْتُ أَوْ بِمَا سَمِعْتُ ؟

- (١) يلبخني : يريد تلحقني شتائمك على سبيل المجاز
- (٢) يريد : لو أحسن بك الاعمى والبصير
- (٣) الثفال من الإبل : البطيء الثقيل الذي لا يكاد يهتج ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمرُ بنُ عبد العزيز وخَلَّفَ أحدَ عشرَ ابناً وبلغت تَرَكَتُهُ سبعةَ عشرَ ديناراً ، كُفِّنَ منها بخمسة ، واشترى موضعاً لقبره بدينارين ، وأصاب كلُّ واحدٍ من أولاده ثمانية عشر قيراطاً من دينار... ومات هشام بن عبد الملك فخلف أحد عشر ابناً أصاب كل واحد من أولاده ألف ألف دينار ، قرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حَمَلَ في يوم واحد على مائة فرَسٍ في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام على قارعة الطريق يسأل الصدقة ...

لا تشكُّ إلى غير الله

حدَّث بعضهم قال : سمعني شريحُ القاضي وأنا أشكو بعضَ حالي إلى صديق لي ، فأخذ يدي وقال : يا ابن أخي ، إياك والشكوى إلى غير الله عز وجل ، الصديقُ يُخزَنه ، والعدوُّ يُشتمُّه ؛ انظر إلى عيني هذه - وأشار إلى إحدى عينيهِ - وقال : والله ، ما أبصرتُ بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمس عشرة سنة ، وما أخبرت بها أحداً إلى هذه الغاية سواك ...

نبالة ومروءة

حدَّث العسجديُّ قال : جاء رجل إلى أبي إسحاق الكسائي ليلاً فقال : ما جاء بك ؟ قال : رَكِبْتُ دَيْنٌ ، فقال : كم هو ؟ قال : أربعمائة درهم ، فأخرج كيساً فأعطاه ، فلما رَجَعَ عنه بكى ، فقال له أهله : ما يُكيك ؟ فقال : بُكَائِي أني لم أبحث عن حاله وأُجَلَّاتِهِ إلى الذل ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وإني لأغضيُّ مُقَلَّتِي على القذى والبسُ ثوبَ الصبر أبيض أبجبا
وإني لأدعو الله والامر ضيقٌ علىّ فما ينفكُّ إن يتفرجا
وكم من قتي ضاقت عليه وجوهه أصاب لها في دعوة الله نخرجا

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : قوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها... قال : وسمعت آخر يقول : عز النزاهة أشرف من سرور العائدة قال : وسمعت آخر يقول : حُلُ المِن أنقل من الصبر على العدم ... وفي الحديث الشريف : والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يمدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه .

كانوا يرون أن الملوك لا يستحي من مسألتهم

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم شريفا في الجاهلية والاسلام ، وكان نذر أن لا تهب الصبا ^(١) إلا نحر وأطعم حتى تنقضي ، فهبت بالاسلام وهو بالكوفة ^(٢) فقير مملق ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيَهَا لِعِثْمَانَ بْنِ عَمَّانَ - وَكَانَ
أَخَاهُ لَأَمَّهُ - فُظِطَ النَّاسُ وَقَالَ : لَأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَى
نَفْسِهِ ، فَأَعِينُوا أَخَاكُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ يَشْهَدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)
أَشْمُ الْإِنْفِ أَصِيدُ عَامِرِي طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)
وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِي بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعِلَّاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)
بِشَحْرِ السُّكُومِ إِذْ سُحِبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولُ صَبَا تَجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْإِمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْإِمِيرُ أَنِّي لَا أَفِرُ
شِعْرًا ^(٥) وَلَكِنْ أَخْرَجِي يَا بِلَيْتِي ، فَخَرَجَتْ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِبِي
الْإِمِيرَ ، فَأَقْبَلَتْ وَأَذْبَرَتْ ، وَبَعَثَ النَّاسُ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ تَقُولُ
أَبْنَةُ لَبِيدَ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضَ عَبْشِيْمِيَا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَبِيدَا ^(٧)

-
- (١) الشفرة : السكين ، والشخذ : التجديد بالمشخذ «بكسر الميم» وهو المسنن
(٢) الأصيد : الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا
(٣) على العلات : على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون
(٤) السكوم : العظام الأسنة واحدها كوما
(٥) لأنه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم
(٦) خماسية : طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة
أشبار أو سبعة : سداسي ولا سباعي
(٧) أبيض : إذا قالت العرب : فلان أبيض فالمعنى : نقاء العرض من الدنس والعيوب
لا يريدون بياض اللون وهذا كثير في شعرهم . وعبشمي : من بني عبد شمس بن عبد مناف
(٢ ج ٢)

بأمثال الهضاب ، كأن ركباً عليها من بنى حام فُعدوا^(١)
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الثريد
فعدن إن الكريم له معاد وظنى ببن أروى أن يعودا
فقال لها لبيد : أحسنت يا بليتى لولا أنك سألت ا فقالت : إن الملوك
لا يستحي من مسألتهم ا ولو كان سوقة لم أفعل ... فقال لها : وأنت في
هذا أشعر ا

ممثل في الرياء

عن وهب بن منبه قال : نصّب رجل من بنى إسرائيل نفثاً ، فجاءت
عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتى
انحنيت ا قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت
عظامى ا قالت فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا ليست
الصوف ا قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكلأ عليها وأقضى حوائجى ،
قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربان إن مررتى بمسكين ناوئته
إياه ، قالت : فإنى مسكينة ا قال : فخذها ، فدأنت فقبضت على الحبة ،
فإذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى ا تفسيره : لا غرنى ناسكك مرأى
بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة يسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة
واحدة ا أوهى كل صخرة ضخمة ، نصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركباً الخ تصف
استمتم السود ، وحام : أحد أولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبوالسودان

الهم نصف الهرم

من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب : والهم نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهم يُشيب القلب ، ويُعَمِّم العقل ، فلا يتولد معه رأي ، ولا تصدق معه
رواية ، وقال أبو تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوب في كل بُؤس ونعيم طلائع الأجساد
وقال أبو نواس :

وما إن شئت من كبر ولكن لقيت من الحوادث ما أشابا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهم يخترم الجسم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كلبلة ودمته : وجدت مثل الدنيا والمغرور بها ، مع امثلة :
بالآفات ، مثل رجل الجاه خرف ، فيسيل هائج إلى بئر ، فتدلى فيها وتعلق
بعضنين نابتين على شفير البئر ، فوقعت رجلاه على شيء في حلق البئر ، فنظر
فاذا بحيات أربع قد أطلعن رؤسهن من جحورهن ، ونظر إلى أسفل
البئر فاذا بتنين^(١) فاغرياه نحوه ، ملتظير له ليقع فيأخذه ، فرفع بصره

(١) التين : ضرب من الحيات

إِلَى الْعُصْنَيْنِ فَإِذَا فِي أَصْلِهِمَا جُرْدَانٌ أَسْوَدٌ وَأَبْيَضٌ ، وَهُمَا يَقْرِيضَانِ الْعُصْنَيْنِ
دَائِبَيْنِ لَا يَفُتْرَانِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ وَالْإِهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَبْصَرَ
قَرِيبًا مِنْهُ كِرْوَارَةً فِيهَا عَسَلٌ نُحْلٍ ^(١) ؛ فَذَاقَ الْعَسَلَ ؛ فَشَغَاثَتُهُ حَلَاوَتُهُ وَالْهَتَّةُ
لَذَّتُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَنْ يَلْتَمِسَ الْخِلَاصَ لِنَفْسِهِ ؛ وَلَمْ
يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَذْهَبُ مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ يَذْكُرْ
أَنَّ الْجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ فِي قِطْعِ الْعُصْنَيْنِ ؛ وَمَتَى انْقَطَعَ ارْقَعَ عَلَى التَّنَيْنِ . فَلَمْ يَزَلْ لَاهِيًا
غَافِلًا مُشْغُولًا بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي قَمِّ التَّنَيْنِ فَهَلَكَ . فَشَبَّهَتْ
بِالْبُتْرِ الدُّثْيَا الْمَمْلُوءَةَ آفَاتٍ وَشُرُورًا ، وَتَخَافَاتٍ وَعَامَاتٍ ، وَشَبَّهَتْ بِالْحَيَاتِ
الْأَرْبَعِ الْإِخْلَاطِ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ ؛ فَإِنَّمَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ أَحْدَاهَا كَانَتْ
كُحْمَةً ^(٢) الْإِفَاعَى وَالشَّمُّ الْمُمِيتُ ، وَشَبَّهَتْ بِالْعُصْنَيْنِ الْإِجْلَ الَّذِي لَا بُدَّ
مَنْ انْقِطَاعِهِ ؛ وَشَبَّهَتْ بِالْجُرْدَيْنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ هُمَا
دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الْإِجْلِ ؛ وَشَبَّهَتْ بِالتَّنَيْنِ الْمَصِيرَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ؛ وَشَبَّهَتْ
بِالْعَسَلِ هَذِهِ الْحَلَاوَةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ فَيَقْطَعُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
وَيَلْمَسُ ، وَيَتَشَبَّغُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيُصَدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتضر ،
فدخل عليه ابنه عبد الله فقال له : يا عبد الله ، خذ ذلك الصندوق ، فقال :
لا حاجة لي فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لا حاجة لي به ، فقال عمرو :

(١) الكِرْوَارَةُ : خَلِيَّةُ النَحْلِ

(٢) الكُحْمَةُ : أَمْرَةٌ النَحْلَةِ وَنَحْوُهَا

كَيْتَهُ مَلُوءٌ بَعْرًا ۱ قال ابن عباس : فقلت : يا أبا عبد الله ، إنك كنت تقول :
أَشْتَمِي أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُكَ ؟
قال : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَرَانِي كَأَنَّمَا أُتَنَفَّسُ
مِنْ خَرْتِ لِبْرَةٍ ۱ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
اللَّهُمَّ ، أَمَرْتَ فَعَصَيْنَا ، وَنَهَيْتَ فَرَكَينَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَنْصِرُ
وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ فَاطَ ۰۰۰ ۰ قوله : مِنْ خَرْتِ لِبْرَةٍ يَعْنِي :
مِنْ ثَقْبِ لِبْرَةٍ ، وَقَوْلُهُ : فَاطَ : أَيْ مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب ^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خُطِبَ النَّاسَ
لِحَمْدِ اللَّهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِرْرْنَا بِهِ وَاكْتَأَبْنَا
لَهُ ، فَأَمَّا السُّرُورُ : فَلِمَا قُدِّرَ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزِهِ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكَأَبُ
فَلَوْعَةُ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَائُوتَ حَبِجًا كَيْتَةَ آلِ
أَبِي الْعَاصِي ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاكِ وَقَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ، فَإِنْ
يَهْلِكُ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا ۰۰۰ ۰ الْحَبِجُ : أَنْ يَأْكَلَ الْبَعِيرُ
لِحَاءَ الْقَرْفَجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يُخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
فَيَهْلِكُ ، بُعْرَضُ بَنِي مُرَوَّانَ وَبَنَى عَلَيْهِمْ كَثْرَةُ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافُهُمْ فِي مَلَاذِ
الشَّمَاهَاتِ وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ بِالثُّخْمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرْقَةُ ، وَالْقَعْصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
وَقَدْ قَعْصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَاتَهُ ، وَأَقْعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقْعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً

وبما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً وإن هونت ما قد عزّ هانا
فلا تهلك لشيء فات يأساً فكم أمر تصعب ثم لا نا
سأصبر عن رفيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزع في خلأه وإن حضر الجماعة أن يهانا
« يأساً مردود إلى قوله تهلك يقول : لاتهلك يأساً . وقوله : فإن المرء ...
ألبت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبثله ... رَوَى
الشَّعْبِيُّ : أَنَّ رجلاً من بني إسرائيل صَادَ قُبْرَةً ، فَقَالَتْ : مَا تُرِيدُ أَنْ تُصْنَعَ
بِي ؟ قَالَ : أَذْبَحُكَ فَأَكُلُكَ ! قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ وَلَا أُغْنِي مِنْ
مِنْ جَوْعٍ ، أَعْلَمُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ هِيَ خَيْرُكَ مِنْ أَكْلِي : أَمَا الْوَاحِدَةُ فَأَعْلَمُكَهَا
وَأَنَا فِي يَدِكَ ، وَالثَّانِيَةُ إِذَا صُرْتُ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَالثَّالِثَةُ إِذَا صُرْتُ عَلَى الْجَبَلِ ،
فَقَالَ : هَاتِي ! قَالَتْ : لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ، نَحْلِي عَنْهَا ، فَلَمَّا صَارَتْ فَوْقَ الشَّجَرَةِ
قَالَ : هَاتِي ! قَالَتْ : لَا تُصَدِّقْ بِمَا لَا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ ، ثُمَّ طَارَتْ فَصَارَتْ
عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالَتْ : يَا شَقِيءُ ! لَوْ ذَبَحْتَنِي لَأَخْرَجْتَ مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّةً فِيهَا زَنْهُ
عَشْرِينَ مِثْقَالاً ! قَالَ : فَخَضَّ عَلَى نَشْفَتَيْهِ وَتَلَهَّفَ ؛ ثُمَّ قَالَ : هَاتِي ! قَالَتْ :
قَالَتْ لَهُ : أَنْتَ قَدْ نَسِيتَ الْآثَتَيْنِ ، فَكَيْفَ أَعْلَمُكَ الثَّالِثَةَ ! أَلَمْ أَقُلْ لَكَ
لَا تَلْهَفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ؟ فَقَدْ تَلَهَّفْتَ عَلَى إِذْ فُتِكَ ، وَقُلْتُ لَكَ لَا تُصَدِّقَنَّ بِمَا

لا يكون أنه يكون ! فصدقت ! أنا وعظمي وريشي لأزِنُ عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصّاتي ما يزنها !

ومن قولهم في الحث على التعزى

وبما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس ^(١)
إن يكن ما أصبْتُ به جليلا فذهابُ العزاء فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لاشكَّ آتٍ وذو الجَهِّ لِمُعْنَى والغَمِّ والحزنُ فضلُ ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عُيَيْنَةَ بن المهلب بن أبي صُفْرة لظاهر
ابن الحسين : ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلًا أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
يَسْتَعِي الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعْيِهِ حَظًّا وَيَحْتَظِي عَاجِزٌ وَمَهْمَيْنِ
وَكَانَ ابْنُ شَبْرَمَةَ ^(٥) إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ يَقُولُ : سَجَابَةٌ ثُمَّ تَنْقَشِعُ ^(٦) وَكَانَ

(١) كان متهما بالزندقة ومن ثم قتلته المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقطعه نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لا يلقى بالعاقل ، إذ لا جدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فارفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ،
والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بني سعد بن ضبة بن آذ ، ولى
القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسري لما أقام بواسط

(٦) تنقشع : تنجلي

يقال : أربع من كنوز الجنة : كتمان المصيبة ، و كتمان الصدقة ، و كتمان
الفاقة ، و كتمان الوجع ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حَجَر :

ولستُ بخائٍ أبداً طعاماً حذارَ غِدٍ لكلِّ غدٍ طعامٌ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارق الجيران مئى ذبابٌ لا يُنم ولا يتام^(١)
ولستُ بأطلس الثوبين يُصبى حليلته إذا هَذَا التَّامُ^(٢)

ومن كلام سيدنا على : يا ابن آدم ، لا تحمل همَّ يومك الذى لم يأتِ على
يومك الذى أنت فيه ، فإنه إن يُعلم أنه من أجلك يأت فيه رزقك ، واعلم
أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت خازناً لغيرك فيه ...
والأصل المتقدم فى هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمناً فى
سربه^(٣) ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، كان كمن حيزت له الدنيا
بمخافيرها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والاذى

(٢) حليلته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التى تحال له فى حلته ، وكنى بأطلس
الثوبين عن رمية بالقيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والعطاسة : الغبرة
تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهنه : ما للرجل من أهل وولد ومال

اللثام مَوْلَعُونَ

بأيذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشعار قول
الشاعر الطيرمّاح بن حكيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
لو تقدمت أيامه قليلاً لفُضِّل على الفرزدق وجري - انظر ترجمته في
الأغاني - قال :

لقد زادني حُباً لنفسي أني	بغِيضٍ إلى كلِّ امرئٍ غير طائل
وأني شقيّ باللثام ولا ترى	شقياً بهم إلا كريمَ السَّمائل
إذا ما آني قَطَعَ الطَّرْفَ بينه	وبيني فَعَلَ العَارِفُ المتجاهِل
ملأتُ عليه الأرض حتى كأنها	من الضيق في عَيْنِهِ كِفَّةُ حَائِل
أكلُّ امرئٍ ألقى أباه مُقَصِّراً	مُعَادٍ لأهلِ المَكْرَمَاتِ الأوائل
إذا ذُكِرَتْ مَسْعاةُ والده اضْطأني	ولا يضْطأني من شَمِّ أهلِ الفضائل

« قوله : لقد زادني ... ألبيت يقول : لقد زادني أني بغِيضٍ إلى كل
رجل لا فَضْلَ فيه ولا خير عنده حُباً لنفسي ، لأن التمايز بيني وبينه هو
الذي أدّاهُ إلى بُغِيضِي ، ولو كان بيننا تشاكُلٌ لما كان كذلك ، فازدّتُ
بذلك حُباً لنفسي ، لأنني لو كنت مثله لأحَبَّني ؛ وغير طائل قال الخليل بن
أحمد : يقال للشئء الدون : هذا غير طائل ... وقوله : وأني شقي باللثام ...
ألبيت يقول : وزادني حُباً لنفسي أيضاً شِقْوَتِي باللثام حتى تنقُصوني وأضعوني
إنائي واغتَابوني ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يُشَقِّي بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق
وقوله : إذا ما آني ... ألبيت يقول : إذا أبصرني آرتد طرفه عني وقطع

نظره ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكلف جهله ؛ ويقال : ملأت عليه الأرض إذا ضيقته عليه ، أما إذا قلت : ملأت منه الأرض فعناهُ ؛ أنك قتت وقعدت بذكره ؛ والحابل : ناصب الحباله وهى التى يُصادُ بها ، وكفّة الحابل : حبالته التى بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كفّة : يقول فى هذا البيت : قد ضاقت به الأرض من عداوتى فكأننى ملأتها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافنى فى كل مسلك يسلكه ... وفى معنى هذا البيت قول القائل :

كَأَنَّ فِتْجَاجَ الْأَرْضِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائف المطلوبِ كِفَّةٌ حَابِلٌ

وقوله : إذا ذُكِرْتَ ... ألبيت فالمسعاة : السعى ، وهو العمل ، واضطنى : افتعل من الضنى ، يقال : ضنى يضنى : إذا دق وصغر جسمه ، ومن ثم سُميَ المرض ضنى ، لما يورث من الهزال ، يقول : إنه يضنى إذا ذكر صنيع والده ، لقيحه ، ومع هذا يشتم أهل الفضائل ولا يضنى من ذلك ، بصفه بالقيحة .

أبيات فى الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارہ الكلبي - وقد كان فى الجيش الذى بعثه معاوية بن أبى سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فاوغلوا فيها حتى باغوا القسطنطينية ، فاقتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الايات ، ثم حَمَلَ على من بليه تقتل خلفاً كثيراً وانغمس بينهم فشدَّجَهُ الروم برءاهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قَدْ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَلْوَانًا عَلَى طُرُقٍ شَتَّى وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْفَظْمَا

كَلَّا بَلَوْتُ فَلَا النَّهَاءُ يُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعْتُ مِنْ لَأَوَائِهَا جَزَعًا
لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
«على طرق يروى : على خاق ، والفظع : مصدر فُظِع الأمر فظاعة : اشتد
وَشْنُوعٌ وجاوز المقدار ، ونبطرنى : تَحَمَّلْنِي على البطار ، وهو : الطغيان فى
النعمة ، واللأواء : الشدة والمشفقة وضيق العيش ، وقوله : لا يملأ الهول ...
ألبيت : من أحسن ما قيل فى الشجاعة » وقال الخطيئة من أبيات يمدح بها بعض
الأجواد :

فَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزْوَعٍ
وَذَاكَ فَتَى إِنْ تَأْتِيهِ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعٍ
«الصنعة : اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف ،
وأشدوا : (١)»

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِهَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنْتِ الْمَسْكَرُهُ وَاطْمَأْنَنْتِ وَأَرَسَتْ فِي مَكَامِنِهَا الْخَطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلِهِ الْآرِيبُ
أَنَّاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوُثٌ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَفَقُرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمى : الاضبط بن قريع بن
عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبيرقان بن بدر ، وهو الذى أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الأصمى .

مُجَاوَرَتِهِ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « أينما أُوْجِهَ أُنْقِ
نَسْعَدَا » ^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتُ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْهَمِّ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لَفَلَاحٌ مَعَهُ
مَا بَالُ مَنْ غِيَّهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
أُذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيَذْفَعُنِي يَأْقُومُ مَنْ عَاذِرِي مِنَ الْخُدَعَةِ
حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَتْ عَمَائِيَّةُ أَقْبَلَ يُلْحَى وَغِيَّهُ فَجَعَهُ
قَدْ يَرْفَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ رَفَعَهُ
فَأَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
وَصَلَ جِبَالُ الْبَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الْحَدَّ بَلْ وَأَفْصَى الْقَرِيبِ إِنْ قَطَعَهُ
وَلَا تُهَيِّنِ الْفَقِيرَ عِلْمَكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْمًا وَالْدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« الْمَسَى : اسْمٌ مِنَ الْإِمْسَاءِ ، وَالصَّبِيحُ : اسْمٌ مِنَ الْإِصْبَاحِ ، وَالْفَلَاحُ هُنَا :
الْبَقَاءُ وَالْعَيْشُ قَالَ عَمِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ :

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُدْ زَكُ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْأَرِيْبُ
يَقُولُ : لَا بَقَاءَ مَعَ كَرِّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وَالْفَلَاحُ أَيْضًا : الْفَوْزُ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي
الْأَذَانِ : حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ ، وَالغَى : الْخِيَّةُ وَالْحَرَمَانُ قَالَ الْمَرْقَشُ الْأَكْبَرُ :
فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَلَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَى لَا تَمَا
وَجَمَلَةٌ : لَوْ يَمْلِكُ ؛ حَالِيَّةٌ ، وَوَزَعُهُ : مَنَعُهُ وَكَفَّهُ ، يَقُولُ : مَا بَالُ مَنْ تَتَأَلَمُ
لِحَيْبَتِهِ وَسُوءَ حَالِهِ فَإِذَا وَجَدَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ كَفَّهُ عَنْكَ ، وَيُرْوَى هَذَا الْبَيْتُ
عَلَى وَجْهِ آخَرَ ، وَقَوْلُهُ أُذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ : هُوَ مِثْلُ الْحِمَايَةِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ عَنْهُ ،
وَالْخُدَعَةُ : قَوْمٌ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ

(١) يَرِيدُ : أَفْرَ مِنَ الْأَذَى إِلَى مِثْلِهِ

والعماية : الشدة التي تلبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجُغمه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... البيت يعنى : تقرب إلى البعيد النسب إذا طلب قربك واهجر القريب النسب إذا هجر ، أخذه الأعشى فقال :

ولا تُدْنِ وَصْلاً مِنْ أَخٍ مُتَبَاعِدٍ وَلَا تُنْأَى عَنْ ذِي بُغْضَةٍ أَنْ تَقْرَبَا
فإن القريب من يُقَرِّبُ نَفْسَهُ كَعُمُرِ أَبِيكَ الْخَيْرِ لَا مَنْ تَنْسِبَا
وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع في الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعَلَّ : لغة في لعل وهي هنا بمعنى عَسَى ، والركوع : أراد به الانحطاط في المرتبة والسقوط في المنزلة ، ومثل هذا البيت في المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ فِي الْيَوْمِ سُؤلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدُ
وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنُ بالنون الخفيفة ، ويروى : ولا تعاد ، ويروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفي معنى هذا البيت أيضا يقول عبّاد بن عَبّاد بن حبيب بن المهلب :

إِذَا خَلَّةٌ نَابَتْ صَدِيقَكَ فَاعْتَنِمْ مَرَمَتَهَا فَالْدَهْرُ بِالنَّاسِ قُلُوبُ
وَبَادِرْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارٍ أَوْ غَنَى عَنْكَ يُعْقِبُ
« الخلة : الحاجة والفقرو في المثل « الخلة تدعو إلى السَّئَةِ ، والسَّئَةُ : السرقة وممرتها : إصلاح ما فسد منها ، وقاب : كثير التقلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتي الزوال عقب الاقتدار والغنى » ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفُ وَأَنْلِفُ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكُلُّهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكَلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يُلْغِ الْحَيَّ نَائِلُهُ
«فَأَخْلَفُ: يريد استغنى خَلَفَ مَا أَتَلَفْتُ، وقد أَخْلَفَ فُلَانٌ لِنَفْسِهِ: إذا ذَهَبَ
لَهُ شَيْءٌ لِمَجْلِعِ مَكَانِهِ آخِرَ، وعَارَةٌ: معار، والعَارَةُ والعَارِيَّةُ: ما يتداول بين
النَّاسِ، ويقول جرير:

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى مَنْ الْحَقَّ الَّذِي لَا يَرَى لِيَا
«يقول جرير: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَى فَضْلٍ وَلَا يَكُونَ لِي عَلَيْهِ فَضْلٌ
وَمَعْنَى إِلَيْهِ مَكَاافَةٌ، فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى حَقٍّ لِمَا فَعَلَ إِلَيَّ وَلَا أَفْعَلُ إِلَيْهِ مَا يَكُونُ
لِي بِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ، قَالَ الْمُبَرِّدُ: وَهَذَا مِنْ مَذَاهِبِ الْكِرَامِ وَمِمَّا تَأْخُذُ بِهِ أَنْفُسُهَا»

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْوِهَا فَلَا مَرْوَةَ لَهُ. وهى لشاعر
يسمى أَيْمَنُ بْنُ حُرَيْمٍ بْنِ فَاتِكِ الْأَسَدِيِّ، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له صحبة، وهو بمن اعتزل الجبل وصفيين وما بعدهما من
الأحداث، وقيل: إِنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ لِلْأَقْيَشِرِّ، وهو شاعر إسلامي، قال:

وَصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا	خَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدَرُ
وَلَمْ يَحْضُرِ الْقَسْ الْمُهَيِّمُ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِئِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ رَمَتْ نَوْمَةً	وَقَدْ غَابَتِ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ: أَغْتَبِقُهَا أَوْ لَغَيْرِي فَاثْبِقُهَا	فَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَرَيْبِكَ وَالْخُرُ
تَعَقَّقْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَتْ	فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَّا الْعُمُرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِرُّ

فَدَعَهُ وَلَا تَنْفَسْ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ سَجَرَ أسباب الحياة له الدَّهْرُ
 الصهباء : الخمر، سميت بذلك للونها - والصهباء من الألوان : الشقرة - قيل :
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ مِنْ عِنَبٍ أبيض ، وقيل : هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضُرِبَتْ إِلَى البياض ، وقال أبو حنيفة الدينوري : الصهباء
 اسم للخمر كالعلم . وجرجانية : نسبة إلى جرجان ، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيف : المسلم ، ونفرت القدر : غلت ، والمهيم : الذي يقرأ بصوت خفي غير
 بين لا يفهم ، والطروق : الحضور ليلا ، والخبر واحد الأحبار : رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي ، ورئيس السكينة عند اليهود ، وقوله : وقد غابت الشعري ...
 قال البكري شارح الأملالي : هذه الرواية الصحيحة ، أمارواية : وقد غابت الشعري
 وقد جَنَحَ النسر ، فهي خطأ ، قال : لأن الشعري العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالعا من أفق المشرق على نحو سبع درجات ، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُع ، وإذا كانت الشعري الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير مُكَبَّد - كَبَدَ النجم السماء : توسطها - فكيف أن يكون جانحا ؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالعا على نحو سبع درجات أيضا
 قال الشاعر :

وإني وعبد الله بعد اجتماعنا لكالنسر والشعري بشرق ومغرب
 يلوح - إذا غابت من الشرق - شخصه وإن تُلَحَّح الشعري له يتغيَّب
 وقال أبو نواس :

وتَحَمَّارَةٌ تَبْهَتُهُا بعد هَجْعَةٍ وقد لاحت الجوزاء والنمَّس النسرُ
 فقالت : مَنْ الطَّرَاق ؟ قلت : عصاة خِفافُ الأداوى يُبْتَغَى لهم الخمرُ
 والشعري سابقة في الطلوع للجوزاء ولذلك سميت كلب الجبار ، والجبار

اسم للجوزاء... والاعتباق : شرب العشي ، وويك : ويليك ، وكلا : انتهى
إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكل العمر : أى آخره ، ولا تنفس :
لا تحسد ، وارتأى : افعل من رأى . وفي هذا المعنى يقول الأعور الشننى :
إذا ما المرء - قصر ثم مرّت عليه الأربعون - من الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدعه فليس بلاحق أخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه
بموعظة مأسررت بموعظة سرورى بها ! أما بعد ، فإن المرء يسره درك
مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت مالم يكن ليديره ، فما نالك من دنياك
فلا تسكر بزبه فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه أسفا ، فليكن سرورك
بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وممك فيما بعد الموت ... » يقول
علي : إن كل شيء يصيب الإنسان في الدنيا من نفع وضرر فيقضاء من الله
تعالى وقدره ، غير أن الناس لا ينظرون حق النظر في ذلك ، فيسّر الواحد
منهم بما يصيبه من النفع ، ويساء بفوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك
النفع الذى أصابه كان لا بد أن يصيبه ، وأن ما فاتته منه كان لا بد أن
يفوته ، ولو عرّف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق
بالعقل أن يأسف على ما فاتته ويسّر بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح
الذى يجدى عليه في العالم الباقي - الآخرة «

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيض بضاً يمتلئ في الباطل
ملئاً ، ينفض مذرّويه ، ويضرب أصدريه ، يقول : ها أنا ذا فاعرفونى !
قد عرفتلك فمقتك الله ومقتك الصالحون ... » قوله : أبيض بضاً

فالبُص : الرقيق اللون الصافي الذي يُؤثر فيه كل شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قدّم على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أبص الناس - أرقتهم لونا وأحسنهم بشرّة - فضرب عمر يده على عضده ، وقال : هذا ، والله ، لتشأ غيلك بالحمامات وذوو الحاجات تُقَطّع أنفسهم تحسرات على بابك... وقوله : يملخ في الباطل ماخا : أى يكسر تردده في الباطل ، أو يُر فيه مرآ سهلا ، وقوله : ينفض مذكويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذكواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآليتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنكبين ، ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عرقان يضربان تحت الصدغين ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذكويه يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا تهدد كما قال عنزة :

أَحُولِي تَنْفُضُ اسْتُكَ مَذْرَوِيهَا لَتَقْتَلَنِي فَهِيَ أَنَا ذَا عُمَارَا

« عمارا يريد : يا عمارة »

وقال بعضهم : شهدت الحسن البصري في جنازة أوجاء العطاردي وهو على بَغْلَةٍ والفرزدق يسأيره على نجيب ، وكنت على حمار لي ، فدَنَوْتُ منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : يا أبا سعيد ، أتدري ما يقول أهل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خيرُ شيخ بالبصرة ، وهذا شرُ شيخ بالبصرة ، قال : إذن يسكذبوا يا أبا فراس أرب شيخ بالبصرة مُشْرِك بالله ، فذلك شرٌّ من أبي فراس ، ورب شيخ بالبصرة ذى طمرين لا يؤبه

له لوَأَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ ^(١) ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تنمة ولكننا نتجزأ بهذا الشطر منه لتسكون المعاني متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لا تزال جديدة لأنها بعيدة
الغور موفية على الغاية في الصدق والسداد ، وهي أبيات اختارها أبو تمام
في حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابي الشاعر ، وقال أبو رياش : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب معود الحكماء ^(٢) وهذه هي الأبيات كما
رواها أبو علي القالي في الأملالي :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَاهِ أَسَدٌ هَـصُورٌ ^(٣)
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فَيُخْلِفُ ظَنُوكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ ^(٤)
بُغَاثُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَابًا وَلَمْ أَطُلْ الْبُزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالي . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذي طمرين
لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذي خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سمي معود الحكماء بقوله :

سَأَعْقِلُهَا وَتَحْمِلُهَا غَنِيٌّ وَأُورِثُ تَجَدُّهَا أَبَدًا كِلَابًا
أَعُودُ مِثْلَهَا الْحُكَمَاءُ بَعْدِي إِذَا مَا عُصِلُ الْحَدَثَانِ نَابَا

(٣) هـصور يروي : مزبر ، والهصور : الأسد الشديد الذي يفترس ويكسر
والمزبر : الشديد القلب القوى النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغاث بفتح الباء وضمتها : كل طير ليس من جوارح الطير ، أي لا يصيد ، ويضرب
بها المثل في اللؤم والشر ، وفي الضعف ، قالوا : إن البغاث بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلا للئيم يرتفع أمره

خَشَّاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتُ نَزْوَرُ^(١)
 ضِعَافُ الْأُسْدِ أَكْثَرُهَا زَيْبًا وَأَصْرُمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بَغِيرُ كُتِّ فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا تَكْثِيرُ^(٢)
 يُقَوِّدُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَنْخَرُهُ عَلَى الشُّرْبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظُمَ الرِّجَالِ لَهُمْ بَزِينٌ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ^(٣)

في الموت

قال المتنبي في الموت :

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلَا كَيْفٍ وَيَسْعَى بِلَا رَجُلٍ
 وَمِنْ غَرِيبٍ مَا قِيلَ فِي مَدْحِ الْمَوْتِ قَوْلُ ابْنِ الرَّومِيِّ :

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا الْمَوْتَ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا يَعْرِفُ
 فِيهَا أَمَانٌ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يَنْصُبُ

أقول : لعل ابن الرومي يريد أن يقول : إن للموت مزايا لا تحصى ،
 وقل من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظفر بقاء
 المرئي - ونأهيك بفضائله - وبفراق غيره من المعاشرين القليل الإصاف لكان
 في ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبي :

- (١) خَشَّاشُ الطَّيْرِ : شرارها وما لا يصيد منها ، كالبغات ، والمقلات : التي تلد
 واحداً ثم لا تلد بعد ذلك وقيل : التي لا يعيش لها ولد ، والققلت : الهلاك تقول .
 أقلت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد
 (٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك
 (٣) الخير : الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارقَ الناسَ الاحبةَ قبلنا وأعياءَ دواءِ الموتِ كلَّ طبيب
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئةٍ وذُهب
تملكها الآتى تملك سائب وفارقها الماضى فراق سليب
ولا فضلَ فيها للشجاعةِ والتدبى وصبرِ الفقى لولا لقاءِ شعوب
« يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعانى فضل ، وذلك
أن الناس لو أمِنوا الموت لما كان للشجاع فضل على الجبان ، لأنه قد أيقن
بالخلود ، وكذلك لو أمِنوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ،
وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلفَ هذا الهواءِ أوقعَ فى الأنفِ سِ أنَ الحِمامِ مُرَّ المذاقِ
والآسى قبلَ فرقةِ الروحِ يحزُّ والآسى لا يكونُ بعدَ الفراقِ
قال أبو العلاء المعرِّى : إن هذين البيتين يفضلان كتب الفلاسفة لأنهما
متناهيان فى الصدق وحسن النظام ، ولولم يقل شاعرهما رسواهما لكان له
شرفٌ منهما وبجمال ...

يقول المتنبى : إن خوفَ الموتِ من أكاذيبِ النفس ، ومن إلفنا هذا
الهواء ، وإلا فقد علم أن الحزنَ على فراقِ الروحِ قبلَ فراقه عجزٌ ، وعلم
أيضاً أن الحزنَ على المفارقة لا يكونُ بعدَ الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم فى التعازى

ولنطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم فى الصبر والدنيا والموت والمرضى » فلنسر فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم فى التعازى ثم نختم الباب بعبقرياتهم فى المرضى وما يتصل به .

التسليية بعد وقوع المحذور

قالوا : كل شئ يبدو صغيراً ثم يعظم ، إلا المصيبة ، فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر واشتكى ابن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فجزع عليه ، ثم مات ، فرؤى مُتَسَلِّياً ، ف قيل له فى ذلك ؟ فقال : إنما كان جزعى رقة له ورحمة ، فلما وقع المصائب زال المحذور ... ومريض ابن لبعض السلف فجزع ، ثم مات فلم يجزع ، ف قيل له أ فقال : أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم ... وقال البحرى :

صُعُوبَةُ الرِّزْقِ تُتَلَقَّى فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَانْقِضَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَقَعَا وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَبْرٍ :

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبى نواس يرضى المأمون :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَّهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ

وقال بعضهم : نزلتُ بامرأة ذاتِ أولاد وثروة ، فلما أردتُ الارتحال قالت : لا تخلفي إذا وردت هذا الصُّفْعُ ، ثم أتيتها بعد أعوام ، فوجدتها قد آتقرت وثكأت أولادها ، وهى ضاحكة مسرورة ، فسألتها ؟ فقالت : لاني كنتُ ذاتَ شدة وجاه ، وكانت لى أحزان ، فعلمتُ أن ذلك لِقلة الشكر ،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ما أعطاني من الصبر ...
وقيل: إذا استأثر الله بشيء قاله عنه « الله عنه : اتركه وتسل »

من دواعي التسلي قرب اللحق بالميت

كتب بعضهم: فيم الجزع ونحن على مدرجة الموتى! « المدرجة: الطريق
والمسلك، دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخ فاشتد جزعه عليه،
فقال: اذكر مصيبتك في نفسك تلتسك فقد غيرك، واذكر قول الله تعالى:
إنك ميت ولهم ميتون، وخذ بقول الشاعر:

وهون ما لقي من الموت أن ما أصابك منه يا بني مصيبي
وقال إبراهيم بن المهدي:

وإني وإن قد هت قبل عالمي باني وإن أبطأت عنك قريب
وقال آخر:

وهون وجدى أني سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

من تعازي الملوك

وتسليهم بأن الناس جميعا مصابون

لما حضرت الإسكندر المقدوني وفاة كتب إلى أمه: أن اصنعي
طعاما يحضره الناس، ثم تقدمي إليهم: أن لا يأكل منه محزون، ففعلت،
فلم يبسط أحد إليه يده، فقالت: مالكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدمت
إلينا أن لا يأكل منه محزون، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب
فقالت: مات - والله - أبني! وما أوصى إلي بهذا إلا ليُعزِّيَني به ...

التسلي بأنه معزى

لا معزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبيات يعزى بها سيف الدولة بأخته :
 هيهات ما في الناس من خالِد لا بُدَّ من فَقْدٍ ومن فائِد
 كُنِ المَعزَى لا المعزَى به إذ كان لا بُدَّ من الواحدِ
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مَهْمَا يُعزَّى الفتى الأميرَ به . فلا يَأْفِدَامِهِ ولا الجورِد^(١)
 وَمِنْ مُنَانَا بِقَاوِهِ أَبَدَا حتَّى يُعزَّى بِكُلِّ مولودِ^(٢)

التسلي عن مضي بمن بقي

قيلَ لرجل مانت امرأته نُفْسَاء^(٣) : عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ فيما أباد وبارَكَ
 فيما أفاد... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسلّيه بالكبرى :

قاسمتك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيك عدلاً^(٤)

(١) يقول : إذا عزا معز بهذا الميت فلا عزا بجوده ولا شجاعته ، أى لا عدهما
 (٢) يقول : أمنيئنا التي تمنناها هي بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه
 ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمك الموت شخصين فذهب بإحدهما وترك الآخرى ، فكانت
 هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حقه أن يتركهما ولكن هذا الجور عدل فيك
 حيث تركك حياً وكانت المقاسمة في الاختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقي فالجور
 عدل ؛ هذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون
 المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلاً في الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبقي الكبرى

فإذا قُستَ مَا أَخَذْتَ بِمَا أَغَى دَرَنْ سَرَى عَنْ الْفَوَادِ وَسَلَى^(١)
ولما ماتت الأخت الكبرى بعد ذلك رثاها فقال :
قد كان قاسمك الشخصين دهرهما وعاش دُرُّهُمَا الْمُفْدَى بِالذَّهَبِ^(٢)
وعاد في طلب المتروك تاركه إِنَّا لَنَغْفُلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ
ما كان أقصر وقتا كان بينهما كأنه الوقتُ بين الورد والقرب^(٣)
وفي هذه المراثية الثانية هذان البيتان البديعان :
طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فِرْعَتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملًا شِرْقَتْ بِالدمع حتى كاد يشرق بي

من تسلى بماله من الثواب

وبعض تعازيهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك - وكان قد أصابه الطاعون -
فقال : دَعْنِي أَمْسَ قَرَحَتْكَ ، - وكان يقال : إذا كان القرحُ لينا يُرجى ،
وإن كان خشنا لا يُرجى - فامتنع عبد الملك من أن يمسّها ، فعلم عمر لم
منعه ! فقال : دَعْنِي أَمْسُهَا ، فوالله لأن أقدمك فتكون في ميزاني أحب إلى
من أن أكون في ميزانك ! فقال : والله ، لأن يكون ما تريد أحب إلى

(١) أغدرن : مثل غادرن أي تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا
البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أخيه الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدّر لنفاسته
وجعل الصغرى ذهباً ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عادة القوم أنهم يرفعون الإبل وهم في ذلك يسرون نحو الماء فإذا بقي بينهم وبين
الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينها من الزمان فكانه
ما بين القرب إلى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون مأريداً فلمسها ، فقال : يا عبد الملك ، الحق ، من ربك فلا
تكون من الممتارين ... فقال : ستجدني إن شاء الله من الصابرين ...
ولما مات عبد الملك عزى أباه الحسن البصري بهذا البيت :
وعوضت أجرا من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مغيبه عنى أكثر من حضوره
قال : فاتركه غائبا ، فإنه لم يغيب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم مثل هذه
الغيبة ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدفعهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يفقد واحدا ، فليم على ذلك ، فقال :
ليسوا في الموت بيدع ، ولا أنا في المصيبة بأوحد ، ولا جدوى للجزع ،
فعلام تلوموني !

من مات له كثير من أهله

فصبر

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة وماذا
إلا من قلة الحزن ! فقالت : ما حزن كحزني ! ذبح زوجي شاة ، ولم صبيان
يلعبان ، فقال أحدهما للآخر : تعال أريك كيف ذبح أبي الشاة ، فذبحه ،
ثم خاف فهرب إلى الجبل ، فراهقه ذئب ، فافترسه ، وخرج زوجي في
طأيه ، فاشتد عليه الحر فمات عطشا ! فقيل لها : كيف صبرت ؟ قالت :
لو وجدت في الحزن دركا ما اخترت عليه ... « رَهقه : غشيته ، ودركا :
تريد مداركة لما فات »

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم في الدعاء لذوى المصيبة : رَهَبَ اللهُ لكَ عَمراً طويلاً وأجراً
جزيلاً وصبراً جميلاً ؛ لَقَّاكَ اللهُ الصبرَ وَوَقَّاكَ ما يُحْبِطُ الأجرَ . وقال رجلٌ
لابنِ عمر : عَظَّمَ اللهُ أجرك ، فقال : بل جعل اللهُ لِي العافية ... « وذلك
أن تعظيمَ الأجر في تعظيم ما يُوَجَّرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد
ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاثٍ استِخفافٌ بالمُرَّةِ ... »

« وبعد ، فأما عقرياتهم في المرائي فإنَّ لها موضعاً آخر في هذا الكتاب كما
أنَّ عقرياتهم في المدح والثناء تراها في باب قد أفردناه لها .

عقرياتهم في الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حاذِقٍ بعمله : طبيبٌ عند العرب ، ورجلٌ طَبَّ بكذا : أى عالمٌ به
ثم صار الطبيبُ اسماً للعالمِ بمداواةِ أبدانِ الناس ، وقالوا : حَذَّ الطب : معرفة
الداءِ وتَقْيِهِ بالدواء ، أو هو : استِدْامَةُ الصَّحَّةِ ومَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طبيب حاذق

قال السَّريُّ الرَّفَّاءُ في طبيب حاذق :

أَوْضَحَ نَتِجَ الطَّبِّ فِي مَعْتَبِرٍ مَازَالَ فِيهِمْ دَارِسَ الرَّسْمِ^(١)
كَأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْكَارِهِ يَحْـوُلُ بَيْنَ الدَّمِّ وَاللَّحْمِ

(١) ارسم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَفِيُّ كَمَا بَدَأَ لِلدَّيْنِ رَضْرَاضُ الْغَدِيرِ الصَّافِي ^(١)

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبيباً جاهلاً فقال : هذا مُسْتَحِثُّ الموت ... وقال الشاعر
المعروف بالخُبَزَارُزِي ^(٢) في طبيب اسمه نُعْمَانُ :

أَقُولُ لِنُعْمَانَ وَقَدْ سَاقَ طِبُّهُ نَفُوساً نَفِيسَاتٍ عَلَى سَاكِنِي الْأَرْضِ
« أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا حَنَايَاكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أَقُولُ : إِنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي لَطَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ » صَمَمَتْهُ الْخُبَزَارُزِي شِعْرُهُ
وقال آخر في طبيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْبَعَا عَلِيلاً إِلَّا دَفَنَاهُ فِي الْخَنَيسِ

وكان رجل يحترف التصوير ثم تركه وَتَطَلَّبَ ، فُقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ؟ فقال :
الْخَطَأُ فِي النِّصُورِ تُذَكِّرُكَ الْعَيُونُ ، وَخَطَأُ الطَّبِيبِ تُوَارِيهِ الْقُبُورُ ...

مدح الحمية وذمها

قال قائلٌ لِلْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ - وكان طبيبَ العرب - : مَا اللَّطْبُ فَقَالَ :
هُوَ الْأَزْمُ ... وَمَرَّادُهُ بِالْأَزْمِ : الْحِمِيَّةُ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ
الطَّعَامِ ... وَقِيلَ لَجَالِيلِ بْنِ سَوْسٍ أَوْ لِأَبِي قُرَاطٍ : إِنَّكَ تُقِلُّ مِنَ الطَّعَامِ ! قَالَ :
غَرَضِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ أَكُلَ لِأَحْيَا ، وَغَرَضُ غَيْرِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : مَادِقٌ مِنَ الْحَصَى

(٢) اسمه نصر وكان شاعراً أُمِّيًّا وكان يخبز خبز الأرض ، ترجم له ابن خلكاز وياقوت

ليأكل ... وقالوا: لا تأكل ما تشتهي فيصيرك إلى ما لا تشتهي ... وفي الحديث: لا تُكْرِهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ ... وقالوا: الحُمى للصحيح ضارة ، كما أنها للعليل نافعة ... وقال الرشيد للفضل: ما أظيبُ ما في هذه الدنيا ؟ فقال: رَفُضَ الحِشْمَةِ وتركَ عِلْمَ الطَّبِّ ، فلا عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ ولا لَذَّةَ لِمُحْسَمٍ ... وقالوا: مَنْ عَرَفَ مَا يُضُرُّهُ مما يَنْفَعُهُ فهو مريض ... وقال أفلاطون: الموت موتان: طَبِيعِيٌّ وإِرَادِيٌّ ؛ فالطَبِيعِيُّ مفارقةُ الروح للبدن ، والإِرَادِيٌّ نَمُوعُ الأبدان من الشهوات ... وقالوا: الأبدانُ التي اعتادت الحُمى آفَتْها التخليط ، والأبدانُ التي اعتادت التخليط آفَتْها الحُمى ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله: مَنْ اسْتَقَلَّ بَدَانَهُ فلا يَتَدَاوَنَ ، فإنه رُبَّ دواء يُورِثُ الدَّاءَ ... وكانت الحِكْمَاءُ تقول: إِيَّاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتُكَ دَاءَكَ ... وقالوا: مَثَلُ شربِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلثَّوْبِ ، يُنْقِيه وَلَكِنْ يُخْلِقُهُ وَيُبْلِيهِ ... وقال أبقراط: الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقُ ، والدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ، والدَّوَاءُ لَا فَوْقَ وَلَا تَحْتِ ، وَفَسَّرَ ذَلِكَ مُفَسِّرُوهُ فَقَالُوا: مَنْ كَانَ دَاوَاهُ فِي بَطْنِهِ فَوْقَ سُرَّتِهِ سَقَى الدَّوَاءَ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَاهُ تَحْتِ سُرَّتِهِ حَقَنَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَنْفَعِ فَوْقَ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقِ الدَّوَاءَ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَمِيلُ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لتياذوق مُتَطَبِّيه ^(١) : صِفْ لِي رِصْفَةً آخِذُهَا
ولا أَعْدُوها ، قال تِيَاذُوقُ : لا تَتَزَوَّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ
اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيئًا ، وَلَا تَأْكُلْهُ حَتَّى يُنْعَمَ طَبْخُهُ ، وَلَا تُشْرَبَنَّ دِرَاءً إِلَّا مِنْ
عِلَّةٍ ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهِةِ إِلَّا تَضِيحُهَا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا أُجِدَّتْ
مَضْغَةً ، وَكُلْ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَاشْرَبْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَلَا تَأْكُلْ
عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَلَا تَحْبِسِ الْغَائِطَ وَالْبَوْلَ ، وَإِذَا أَكَلْتَ بِالنَّهَارِ فَتَمِّمْ ، وَإِذَا أَكَلْتَ
بَاللَّيْلِ فَتَمَشَّ وَلَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً ... فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ
كَذَا تَقُولُ فَلَيْمَ هَلَكَ أَبُقْرَاطُ وَلِمَ هَلَكَ جَالِينُوسُ وَغَيْرُهُمَا وَلِمَ يَبْقَى أَحَدٌ
مِنْهُمْ ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ احْتَجَجْتَ فَاسْمَعْ : إِنْ الْقَوْمَ دَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
يَمْلِكُونَ ، وَغَلَبَهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ - يَعْنِي الْمَوْتَ وَمَا يَرُدُّ مِنْ خَارِجٍ ، كَالْحَرِّ
وَالْبَرْدِ وَالْوَقُوعِ وَالْفَرَقِ وَالْغَمِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - ... وَقَالَ تِيَاذُوقُ أَيْضًا
لِلْحَجَّاجِ : أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ الْعَمَرَ وَتُبَا قَتْلَنَ : دُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى بَطْنَةٍ ، وَالْمَجَامَعَةُ
عَلَى الْإِمْتِلَاءِ ؛ وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِ ^(٢) ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الرَّيْقِ ؛
وَمَا بِمَجَامَعَةِ الْعَجُوزِ بَعِيدَةً مِنْهُمْ ... وَوَجَدَ الْحَجَّاجُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
إِلَى تِيَاذُوقٍ وَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : اغْسِلْ رِجْلَيْكَ بِمَاءٍ حَارٍّ وَأَذْهُنَهُمَا ، وَخَصِيَّ
لِلْحَجَّاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ الْخَصِيَّ : وَاللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ طَبِيبًا أَقَلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالطَّب منك ! شكى الأميرُ الصَّداع في رأسه فنِصف له دواءً في رِجله !
فقال له : أَمَا إِنَّ عَلامَةَ ما فَلَنتُ فِيك بَيدَنَةٌ ! قال الخِصِيُّ : وما هِى ؟ قال :
نُزِعَت خُصيتُكَ فَذَهَبَ شَعْرُ خِيميَتِكَ ! فَضَحِكَ الحِجَّاجُ وَمَن حَضَرَ ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابيٍّ : إِنَّكَ حَسَنُ السَّكِينَةِ قال : إني
أُذِقُ رِجْلِي في الشتاء ، وَأُغْفِلُ غَاشِيَةَ الغَمِّ ، وآكُلُ عند الشهوة ...
ويقال : ثلاثة أَسْياء تُورِثُ الهُزالَ : شربُ المِاءِ على الرِّيقِ ، والنومُ على
غيرِ وِطاءٍ ، وكثرةُ الكلامِ بَرَفَعِ الصوتِ ... وقالوا : الدَّواءُ الَّذِي لاداءَ مَعَهُ :
أَنْ تَجْلِسَ على الطَّعامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ وتَقُومَ عَنْهُ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعَمُ والمَشْرَبُ إِذا كُثُرَا على المَعِدَةِ أَظْفَأَ
نَارَها فَجَرَتْ الأَغْذِيَةَ في البَدَنِ غيرَ نَضِيجَةٍ ، فَصارَ ذَلِكَ نَقْصاناً لِلبَدَنِ يورِثُ
الفَتْرَةَ ^(١) ، كالشجرة ، إِذا كُثِرَ ماوِها عَفِنَتْ وَإِنْ قَلَّ جَفَّتْ ، وكالَسراج ، إِذا
قَلَّ دُهنُهُ أَوْ كُثِرَ انْظَافاً ... وقال بعضهم : مَن تَغَدَّى وتَعَشَّى ولم يَأْكُلْ
فِما بَيْنَهُما ، سَلِمَ مِنَ الأَوْجَاعِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فيها بُكَرَةً
وعَشِيّاً ... وقال بعضُ الأطباءِ : أَحَبُّ النّاسِ إلينا : الرّغيبُ البَطْنُ ، لكثرةِ
حاجاتهم إلينا ... وأخبرَ بعضُ الأمراءِ بِشيخٍ قَدِ أَتَتْ عليه مائةٌ وخمسونَ
سنةً في اعتدالِ جِسمِهِ وأنْصارةِ لَوْنِهِ ، فَاستدعاه وسأله فقال : إِنْ كانَ لِمَا تَرى
مِنْ هَذِهِ المَورِثَةِ الجَمِيلَةِ سَبَبٌ بَعْدَ تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالى فَمَا أَصَفُهُ : ما احْتَمَلْتُ مُهِمّاً
تَبْعُدُ عَنِّي مُدافَعَتَهُ ، ولا رَأَيْتُ مِنْ زَوْجَةٍ مَكروها ، ولا اجْتَمَعَ في بَطْنِي
طعامان ، وإِذا شَرِبْتُ شَراباً تَناءَلْتُهُ رَقِيقاً طَيِّباً لا أُمَلِّ مِنْهُ ^(٢) ، ولا أَسْتَدْعِي

(١) الفَترَةُ : الضعف والانكسار (٢) ثَمَلُ يَثْمَلُ : أَخَذَ مِنْهُ الشَّرابَ وَالْمَكْرَ

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيت للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلت ذلك أفقلت الحركة بنية يوحى . . . وقالوا : أضرت الأشياء للبدن : الفسك والسكر ، وأنهمك الأشياء للبدن : الخوف . وقال المسامون : قد أصبت دواء يبرئ ولا يؤكل ولا يشرب ا فليل : ما هو ؟ قال : النوم لماثر الغداء . . . وقالوا : إذا أكلت فاضطجع على جنبك الايسر ، فإن السكيد يقع على المعدة فينضج الطعام فيهضمه . . . وقالوا : غشيان المراق المولية يضعف القوة ويسقم البدن ، لأنها كالشن البالى^(٢) ، ماؤها سم قاتل ، تأخذ منك ولا تعطيك . . .

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتاز رجل بصديق له محوم فسأله عن سبب علة ؟ فقال : أكلت في هذا الصيف فراخا وعسلا وشربت خمرأ صلبا - شديدة - ونمت في الشمس ! فقال له : على كل يمين ، لو كانت الحمى من حملة الشمس ورأتك بهذه الحالة اتركت عملها ورافتك . . . ونظر طبيب إلى دهقان^(٣) يغرس شجرة مشمش فقال له : ما تصنع ؟ قال : أعمل لى ولك ا ، يعنى أن الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوء أثره على آكله ، وحاجتهم إلى الطبيب ، ليسا يتولد فيهم من الادواء لا كل الطرى منه ، وفي هذا المعنى يقول ابن الرومى :

إدما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق أنه لطبيب
يغل له مالا يغل لربه يغل مريضا يحمل كل قضيبي

(١) الباه والباهة والباء والباءة : الجماع

(٢) الشن : القرية الخلق

(٣) رئيس القرية

« يُغَلَّ له : أى يعطى الطيب من الغلة - وهى الدّخل - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن حَمَلَ الغصن الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البُستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرتى كأنّ بها حياءَ فليس تزورُ إلا فى الظلامِ
بَدَلْتُ لها المطارِفَ والحشايا فعاقَتها وباتتْ فى عِظامى
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نَفْسِ وعِها فتوسّعهُ بأنواعِ السّقامِ
إذا ما فارَقْتَنى غَسَلْتَنى كأنّا عاكِفانِ على حَرَامِ
كَأنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها فتَجْرى مَدامِعُها بأربعةِ سِجَامِ
أراقِبُ وقتَها من غيرِ شوقٍ مُراقِبَةً المَشُوقِ المُسْتَهَامِ
ويَصْدُقُ وعُدُّها والصدّقُ شرٌّ إذا ألقاكِ فى الكَرْبِ العِظامِ

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتیه ليلاً ،
كأنها حَيَّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع
مُطَرَف وهى : أُرْدِيَّةٌ مُرَبَّعةٌ من خَزٍّ فى جنبها عِلمَانِ ، والحشايا
جمع حَشِيَّة : مأخوذة من الفرش مما يُجْلَسُ عليه ، يقول : إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبث فى الفراش ولما تبثت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسْعُها ولا يسعُ أنفاسى التى أتَفُسُّها ، وهى
مع ذلك تَذْهَبُ بالحمى فتوسّع جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارَقْتَنى غَسَلْتَنى ... يقول : إنه يَعرَقُ عند إفراقها ، فكانه

تغسله لِعُكُوفِهِمَا عَلَى مَا يوجب الغُسل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها
 « زائرة غريبة » ولم يجعلها زوجةً ولا مملوكة ... وقوله : كأن الصبح ... البيت
 يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكان الصُّبح يطردُها ، وأنها إذا فارقتَه
 تجري مدامعُها من أربعة سِجَام ، يريد : كثرة العرق - عرق الحُمى - فكانها
 تبسكي عند فراقه لِجَبِّها لِيَام ، وأراد بالأربعة : اللَّحَاطِينَ والمُوقِينَ للعَيْنَيْن .
 - وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتظر وقت مجيئها كما ينتظر المشوق محباً ،
 حبيبته ، وذلك أن المريض يجزع لورود الحى ، فهو يراقب وقتها خوفاً
 لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدها ، يقول : إنها صادقة الوعد في الورد
 . وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق بضّر ولا ينفع كمن أوعد ثم صدق
 : في وعيد ... »

وقال المتنبي أيضاً :

ومنازلُ الحُمى الجسومُ قُفْلٌ لَنَا ما عُدُّرُها في تركِها خيراتها
 أعجبتُها شرفاً فطال وقوفُها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها
 « يقول المتنبي لهذا الممدوح - وكان مُصاباً بالحُمى - إِنَّ جِسْمَكَ خَيْرُ
 الأجسام فلا عُدْرٌ للحُمى في تركِ ، لأن محلّها الأجسام اثم قال : إن الحُمى
 لما رأتك في المحل الارتفاع من الشرف والكرم والنبل أعجبتُها فأقانت
 في بدنك لتأمل أعضائك التي اشتملت على تلك المحامد ، لالانها تريد أن
 تؤذيك ... » وقال الشاعر أبو الفتح كُشَاجِم^(١) في علي بن سليمان الأخفش :
 ولقد أخطأ قومٌ زعموا أنها من فضلِ برْدٍ في العصب

(١) هو محمود بن الحسين بن السمندي بن شاهك ، وشاهك أمه

هو ذاك الذهنُ أَذْكَى نَارَهُ والمِرَاجُ المُفْرِطُ الحَرَّ التَّهَبُ
 ودخلَ بَحْتِشُوعُ^(١) على يَحْيَى بنِ خَالِدِ بنِ بَرْمَكٍ بِعَقِبِ مُحَمَّدٍ فَقَالَ
 لَهُ : تَوَقَّ فَإِنْ حَيَّ لَيْلَةٌ يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرُهَا سَنَةً — وَعِنْدَهُ وَكَيْعٌ فَقَالَ :
 صَدَقَ ، فَقَالَ يَحْيَى : مَا أَقْرَبَ تَصْدِيقَكَ إِيَّاهُ قَالَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «حَيَّ لَيْلَةٌ كَفَّارَةٌ سَنَةً ، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ...»

الرمد

عَمَّا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :
 قَالُوا : اشْتَكَيْتُ عَيْنَهُ فَقَاتَ لَهَا : مِنْ شِدَّةِ الْفَتَنِ نَالَهَا الْوَصَبُ^(٢)
 مُخَرَّتْهَا مِنْ دَمَاءٍ مَن قَتَلَتْ وَالْدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ^(٣)
 وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
 قَالُوا : الْحَبِيبُ شَكَاهُ جُعِلَتْ فِدَاؤُهُ رَمْدًا أَضَرَّ بِعَيْنِهِ كَالْعِنْدَمِ^(٤)
 فَأَجَبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ فِي مُهَيَّجَتِي حَتَّى تَلَطَّخَ بِالْدَمِ

(١) بَحْتِشُوعُ بنُ جُورْجِسَ هو طَبِيبُ يُونَانِي الْأَصْلِ ، اتَّصَلَ بِهَرُونَ الرَّشِيدِ
 وَخَدَمَهُ وَكَانَتْ لَهُ مَنَزَلَةٌ عِنْدَهُ ، وَكَانَ أَبُوهُ جُورْجِسَ طَبِيبٌ أَبِي جَعْفَرِ الْمَصُورِ ،
 وَابْنُهُ يَدْعَى جَبْرَائِيلَ بنَ بَحْتِشُوعَ ؛ كَانَ مِنْ أَمْهَرِ الْأَطْبَاءِ اتَّخَذَهُ جَعْفَرُ بنُ يَحْيَى الْبُرْمَكِيُّ
 طَبِيبَهُ الْخَاصَّ وَحَظَى عِنْدَ الْخُلَفَاءِ وَنَالَ مِنْهُمْ أَمْوَالًا لَمْ يَنَالَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ مِنْهُمْ
 (٢) الْفَتَنُ يَرُودُ : الْقَتْلُ ، وَالْفَتَنُ أَحْسَنُ ، وَالْوَصَبُ : الْمَرَضُ وَالْوَجَعُ الدَّائِمُ
 وَقَدْ بَطَلَقَ عَلَى التَّعَبِ

(٣) النَّصْلُ : نَصْلُ السِّمِّ وَالسِّيفِ وَالرَّيْحِ وَقَدْ يُسَمَّى السِّيفُ نَصْلًا

(٤) الْعِنْدَمُ : صَبَغَ أَحْمَرَ يَحْتَضِبُ بِهِ

النقرس (*)

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، ف قيل له : لا تغتم فإن ذلك يؤذن بطول العمر ! فقال : طول العمر هو أن من به النقرس يسهر ، فيصير ليله نهاراً ، فكأما يتضاعف عمره ... وقال المبرد : ذكر أعرابي رجلاً قد أترى فقال : تنقرس ! كأنه سمع أن النقرس يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابي :

ألا فاعجبوا من مُقبسٍ حلفَ نقرسٍ أما نقرسٌ في مُقبسٍ بعجيبٍ
« فلان حلف كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوى والأدوية

قيل لأبقراط : ما بال الإنسان يكون أثور ما يكون بدناً إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُندس ... ومن قولهم : مثل الدواء مثل عدوٍّ إلى جانبه صديق ، ترى العدو فلا تأمن أن تُصيب الصديق ... وقالوا : لا تُستعمل الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداؤوا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء ، إلا الهرم ...

وقالوا : حتى الطبيب أن يتأني في المداواة فعثرته لا تفال ... وقالوا المثنائي في علاج الداء بعد معرفته الدواء كالمثنائي في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو روم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبقراط : المريض الذى يَشْتَهِي أَرْجَى عِنْدِي مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ... وقال المتنبي :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِرٍ مُرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ فِي عِلَّتِهِ . أَتَشْتَهِي شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا ! وَبُرْدَى
أَنْ أَشْتَهِي . وَقِيلَ ذَلِكَ لِأَخْرَقَالَ : أَشْتَهِي أَنْ لَا أَمُوتَ .

شكوى العلة

وكان منهم من لا يرى بأساً في شكوى عِلَّتِهِ ، ومنهم من يُنْكِرُ ذَلِكَ
بِحِمْنٍ شَكَاءَ عِلَّتِهِ أَبُو نَوَاسٍ إِذْ يَقُولُ :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلاً وَعُلُوًّا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضُّوا
لَيْسَ يَمُضِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا نَقَّصْتَنِي بِمَرِّهَا بِي جُزْوَا
لَهَفَ نَفْسِي عَلَى لَيَالٍ وَأَيَّامٍ تَمْتَعُنَّ لِعِبَاءٍ وَلَهْوَا
وَقَالُوا : * وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرُ *

ولما مرض بعض الصالحين وعاده الناس قالوا له : كيف تجدك ؟
قال : بِشَرٍّ ، قالوا : هذا كلامٌ مُثْلُكَ ! قال : أَجَلٌ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
« وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » فَالْخَيْرِ الصَّحَّةُ ، وَالشَّرُّ الْمَرَضُ
وَقَالُوا : الشَّكْوَى تُخَفِّفُ الْهَمَّ وَتُزِيلُ الْإِلْمَ ...

ولما وجه المَتَوَكِّلُ فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ الْجَاحِظُ مِنَ
الْبَصْرَةِ قَالَ لِمَنْ أَرَادَ حَمْلَهُ : وَمَا يَصْنَعُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِي لَيْسَ بِطَائِلٍ ،
ذِي شَقِيٍّ مَائِلٍ ، وَلُعَابِ سَائِلٍ ، وَفَرْجِ بَائِلٍ ، وَعَقْلِ حَائِلٍ ! « حَائِلٌ : مُتَغَيِّرٌ ،

وحدث المبرّد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس^(١) أو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشدُّ من ذلك ستُّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ايسَ ثوبٌ دَريسٌ كالجديد من الثياب
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمام العِدَّة وانقضاء المِدَّة ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الآنين وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الآنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أنينا فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها عليّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيان لا يعرفُ فضلُهُما إلّا من قدَّهما : السَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافية إلّا من نالته يدُ العِلَّة ، ولا طعمَ الرِّخاء إلّا من مسَّته يدُ البلاء .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكمين وأصابع الرجلين وفي إبهامهما أكثر

نفع المرض

أَعْتَلَّ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ بِخِرَاسَانَ ، ثُمَّ بَرَأَ ، جَلَسَ لِلنَّاسِ فَهَنَّاؤُهُ بِالْعَافِيَةِ وَتَصَرَّفُوا فِي فَنُونِ الْكَلَامِ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : إِنْ فِي الْعِلَالِ نِعْمًا يَدْبِغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَهَا : تَمْحِصُ الذَّنْبَ ، وَالتَّعَرُّضُ لِلثَّوَابِ ، وَالْإِيقَاضُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَالْإِذْكَارُ بِالنِّعْمَةِ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ، وَالِاسْتِدْعَاءُ لِلتَّوْبَةِ ، وَالْحَضُّ عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَفِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ الْخِيَارُ ...

وَاعْتَلَّ بَعْضُهُمْ فَقَالَ : اللَّهُمَّ أَجْمِلْهُ أَدَبًا لَا غَضَبًا ... وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : إِنْ الْمَرِيضُ تَحَاتُّ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ ^(١) ... وَذُكِرَتْ الْإِدْرَاءُ عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ : مَا اشْتَكَيْتُ قَطُّ ، فَقَالَ لَا جَرَمَ أَنْ ذُنُوبَكَ لَمْ تَحْطَ عَنْكَ ...

وصف العلة بأنها تنال الأمثال

قال أبو تمام من أبيات في مرض إلياس بن أسد :

فَإِنْ يَكُنْ وَصَبٌ عَايَلَتْ سَوْرَتَهُ فَالْوَرْدُ حِلْفٌ لِلْيَيْثِ الْغَايَةِ الْإِضْمِ
إِنْ الرِّبَاحُ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتُ عَيْدَانِ نَجْدٍ وَلَا يَعْبانَ بِالرَّتَمِ
بَنَاتُ نَعَشٍ وَنَعَشٌ لَا كُسُوفَ لَهَا وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْهَا الدَّهْرُ فِي الرِّقَمِ
حَدُّ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَغِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعَمِ
« الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والإضم :
الغضبان : وعيدان (بالفتح) جمع عيدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

الصلبة القديمة . والرتم : نبات من أدق الشجر، وبنات نعش كبرى وهى
سبعة كواكب أربعة منها نعش وثلاث بنات؛ وصغرى : وهى مثلها، ومنها
نأى من دونها، والرقم : السواد، ويبنى به الخفاء للكسوف والخسوف «
وقال البحرى :

وما الكلب محمواً وإن طال عمره ألا إنما الحمى على الأسد الورد
« قيل للأسد ورد لأن لونه أحمر يضرب إلى صفرة ، وفى الحديث
الشريف : مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع ، تفيئها الريح مرة وتعدّلها
مرة ، ومثل الكافر مثل الأرزة لاتزال حتى يكون انجعاؤها مرة واحدة .
« الخامة : الزرع أول ما ينبت على ساق واحدة ، وقيل : السدلة ، وقيل :
الطاقة الغضة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغضة الطرية . وتفيئها : تحركها
وتميلها يمينا وشمالا ، والأرزة : واحدة الأرز : شجر معتدل صلب لا يحرّكه
هبوب الريح يقال له الأرزة معروف بلبنان ، وقيل : شجر الصنوبر والجمع
أرز ، وانجعاؤها : انقلاعها . ومعنى الحديث : أن المؤمن يلغى له أن
يتلقى المكارة صابراً راجياً الخير من ورائها ، وأن يعدّ نفسه كأوائل الزرع
تميله الرياح يمنة ويسرة ، فهو فى الدنيا هدّاف تنتضل فيه الرزايا ، فليس له
إلا أن يعتصم بالصبر والرضا ، وأن يعلم علماً ليس بالظن أن كل ما يرزؤه
من فقدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مرض ووصب ، إنما هو مكفر
لنسيئاته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العفريّة النّفريّة ، فإن كل همّه أن
يستمتع بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رزى فى ماله وولده ونفسه تسخط
ولم يذخر لنفسه ما ينفعه فى آجله ومن ثم يموت إذ يموت كما تنعجف
شجرة الأرزة وتجتث من أصلها فيلقى الله بذنوبه حاتّة . هذا ، ولك أن

تقول : إن المعنى بسبيل من قولهم : المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن . لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقدم على ما حرم الله ، لا توانيهِ الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَرّاً وإن كان في آخرته من الفائزين . وهذا في الغالب ، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ...

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف : حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ : عيادةُ المريض وتشميتُ العاطس ، وتشيعُ الجنازة ؛ وفي الحديث أيضاً : من عاد مريضاً لم يَزَلْ في حُرَّةِ الجنة حتى يرجع ... « الحُرَّةُ » (بضم الحاء وفتحها) : ما يُخترَفُ أى يُجْتَنَى من الثمر ، أى لم يزل في بستانٍ يَجْتَنَى منه الثمر ، شبه صلوات الله عليه ما يحوزُه من يعودُ المريض من الثواب بما يحوزُه المُخترَف من الثمر »

أدب عيادة المريض

قالوا : سوءُ العيادة تلقيحٌ لليلة ... وقال الفضلُ بنُ الربيع : لا تقولوا : كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسألوه عن حاله فتُكفوه الجواب ، ولعله يُثقلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاءَ له وقولوا بَدَل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفسه : أنزل الله عليه الشفاءَ والرحمة ... ودخل قومٌ على

السَّيْرَى السَّقَطَى رحمه الله وهو عليل فأطالوا الجلوس وقالوا : ادْعُ لنا ،
فقال : ارفعوا أيديكم وقولوا : اللهم اجعلنا ممن عَلَّمَتْهُمْ عِيَادَةَ الْمَرْضَى ...
ودخل قوئم على مريض فأطالوا الجلوس ثم قالوا : أوصنا ، فقال : أوصيكم
ألا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عُدْتُهُ ... ودخل ثَقِيلٌ على مريض .
فأطال الجلوس ثم قال : ما تشتهي ؟ قال : قُعودك عندي ...

شكاية من لا يعودده إخوانه

قال : سجّطة البرمكي (*) :

مَرِضْتُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حُرٌّ يُشْرِقُنِي بِهَرٍّ أَوْ سَلَامٍ
وَضَعُوا بِالْعِيَادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَانَ عِيَادَتِي بَذْلُ الطَّعَامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ الْعِيَادَةِ تَارِكًا حَظَى فَإِنِّي فِي الدَّعَاءِ لَجَاهِدُ
وَلَرَبَّمَا تَرَكَ الْعِيَادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلَى غِلِّ الضَّمِيرِ الْحَاسِدُ

من عاده ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي الغطفانية :

وُخِبْتُ كَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةً فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِ بَصْرَ أَعُوذُهَا

(*) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من
ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون .
وأخبار ونوادر ومنادمة ، وججّطة لقب لقيه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦
وانظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عُدْتُهَا أَأُبرِيئُهَا مِنْ دَائِهَا أَمْ أَزِيدُهَا

مريض عاد صحيحاً

قال العباس بن الأحنف :

قَالَتْ : مَرِضْتُ فَعُدْتُهَا فَتَبَرَّمتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ
وَاللَّهُ : لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَا رَقَّ لِلوَلَدِ الضَّعِيفِ الْوَالِدُ
وقال آخر :

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذْنِبُونَ فَنَاتِيكُمْ وَنَعْتَذِرُ

حشهم العائد على تذهيبت المريض

قال بعض الأطباء القدامى : بَشَرُوا الْمَرِيضَ بِالْبُرءِ ، وَنَشَطَوْهُ لَشُرْبِ الدَّوَاءِ ،
وَلَا تُصَعَّبُوا عَلَيْهِ الْعِلَّةُ ، فَتَخَافَ نَفْسُهُ ، وَيَمُوتَ حِشَّهُ ، وَقَالَ : أَتُبْقِرُاطُ :
حَدِّثُوا الْمَرِيضَ بِحَالِ مَنْ كَانَ فِي أَصْعَابٍ مِنْ عِلَّتِهِ قَبْرًا ، وَلَا تَحَدِّثُوهُ عَمَّنْ
كَانَ فِي مِثْلِ عِلَّتِهِ فَمَاتَ ...

حشهم على تخويغه ليتجنب المضار

قَالُوا : خَوَّفُوا الْمَرِيضَ لِيَتَجَنَّبَ الْمَضَارَّ ، فَمِنْ خَوْفِكَ لَتَأْتِيَ الْإِمْنُ خَيْرٌ
لَكَ يَمَّنْ أَمْنِكَ لَتَلْقَى الْخَوْفَ ... وَقَالُوا : مَنْ أَوْجَرَكَ الْمَرُّ لَتَبْرَأْ خَيْرٌ مِمَّنْ
أَوْجَرَكَ الْحُلُو لَتَسْقَمَ .

تغير اللون

قال الصولي : لَمْ يُسْمَعْ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ فِي صُفْرِهَ اللَّوْنِ :
بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ ، إِنَّ حَمْدَهُمْ مِنْ أَلَدْرٍّ مَا أَصْفَرَتْ نَوَاحِيهِ فِي الْعَقْدِ .

وقال أبو تمام :

لَمْ تَشِنْ وَجْهَهُ الْبَيْجَ وَلَسْنَ جَعَلَتْ وَرْدَ وَجَنَّتِيهِ بِهَارَا
« البهار : نبت برى طيب الرائحة له فُقَاحَةٌ — زهرة — صَفْرَاءُ يَنْبُتُ
أَيَّامَ الرَّبِيعِ ، يُقَالُ لَهُ : الْغَرَارُ وَعَيْنُ الْبَقْرِ .. »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سَقَمْتُ أُتَيْجَ لَهُ بُرٌّ فَرَزَعَهُ وَالرُّمْحُ يَنَادُ طَوْرًا نَمَّ يَمْتَدِلُ
قَدْ حَالَ لَوْ أَنَّ فَزَعَ اللَّهُ نَضْرَتَهُ وَالنَّجْمُ يَخْمُدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَعِلُ
يُقَالُ : زَعَنَ الشَّيْءُ : حَرَّكَهُ لِيَقْلَعَهُ ، وَالْمَرَادُ هُنَا : دَفَعَهُ وَأَزَاحَهُ ، وَيَنَادُ :
يَمِيلُ ، وَحَالَ لَوْ : تَغَيَّرَ ، وَالتَّضَرُّعُ : الْحَسَنُ وَالْجَمَالُ ،

وقال أشجع بن عمرو السلمي : ^(١)

لَنْ جَرَحْتَ شَكَائَكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَوَّتْ بِصِحَّتِكَ الْعْيُونَ
وَقِيلَ لِأَعْرَابِي بَرَأَ مِنْ عِلَّتِهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلِكَ ، فَقَالَ : أَوْ يَسْلُمُ مَنْ
أَلَمْتُ فِي عُنُقِهِ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ

وقال المتنبي :

نَاْمَجْدُ عُوْفِيٍّ إِذْ عُوْفِيَتِ وَالْكَرْمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْأَلَمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كَانَ شَاعِرًا مُخْلًا وَلَدَ فِي الْيَمَامَةِ وَنَشَأَ فِي الْبَصْرَةِ وَمَدَحَ الْبَرَامِكَةَ وَانْقَطَعَ إِلَى
جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى قَهْرَبِهِ مِنَ الرَّشِيدِ وَمِنْ أَيْيَاتِهِ السَّائِرَةِ قَوْلُهُ فِيهِ :

وَعَلَى عَدْوِكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانُ ضَوْءِ الصَّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَنَبَّهَ رُغْمَتُهُ وَإِذَا غَفَا سَلَتْ عَلَيْهِ سُمُورُكَ الْأَحْلَامُ

وراجعَ الشَّمْسُ أُرُورُ كَانَ فَارَقَهَا كَأَنَّمَا فَقَدَهُ فِي جِسْمِهَا مَقَمٌ
قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وإيس دُعاء ، يريد :
أن أعداءه يُؤْلِعُهُمْ عَافِيَتُهُ لِعُودِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى غَزْوِهِمْ ، كما أشارَ إِلَى ذَلِكَ
فِي الْبَيْتِ التَّالِي . وَانْهَلَتْ : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شَفِيَ وَصَحَّ
اتصلت الغارات عليها ، فكأن الغارات كانت عليلة بعائته ثم صحت بصحته ،
وَسُرَّتْ الْمَكَارِمُ بِصَحَّتِهِ لِأَنَّهُ صَاحِبُهَا ، وَكَانَتْ الْأَمْطَارُ مُنْقَطِعَةً فَلَمَّا شَفِيَ
صَادَفَ اتِّصَالَهَا شِفَاءَهُ ، وَيَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّالِث : إِنَّ الشَّمْسَ فَقَدَتْ هِجَّتَهَا
فِي عِيُونِ أَوْلِيَائِهِ لَا غَتَمَ لَهُمْ لِعَائَتِهِ فَلَمَّا شَفِيَ عَادَ إِلَيْهَا حُسْنُهَا «

تفدية المريض

قال البُحْتَرِيُّ :

بأنفُسِنَا لَا بِالطَّوَارِفِ وَالتَّالِدِ

نَقِيكَ الَّذِي تُخْفِي مِنَ الشُّكْرِ أَوْ تُبْدِي

بِنَا مَعَشَرَ الْعَافِينَ مَا بَكَ مِنْ أَذَى

فَإِنْ أَشْفَقُوا بِنَا أَقُولُ فِي وَحْدِي

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التلذ

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

يَالَيْتَ عَلْتُهُ بِي غَيْرَ أَنْ لَهُ أَجَرَ الْعَلِيلِ وَأَنْ غَيْرُ مَا جُورِ

عقريات شتى

فى الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والهَرَمَ مرض طبيعى ؛ وله : بحالته
الثقيل نُحَى الروح .

وقال ثابت بن قُرَّة : ليس شئ أضر بالشيخ من أن تكون له جارية
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثِر من الطعام فيشْفهم ، ومن الجوع فيَهْرَمَ :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقر يُخالطه كسل ، وخصومة يخامرُها
حسد ، ومرض يمازجه هَرَمَ ...

وقالوا : ثلاثة يُعَدُّرُونَ على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والعاصم ...
وقالوا : فرط الغمِّ والسرور يقتلان ، أما الغم فإنه يُجمِّد الدم . والسرور
يُلْهبُه حتى تَعْلُو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيريه يوماً :
أى الفراش ألد ؟ فقال أحدهما : ألدُّ الفراش الحَرُّ مُحْشَوْاً ، وقال الآخر :
ألدُّ الفراش الحَرير مُحْشَوْاً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أتاؤن لى فى الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألدُّ الفراش الأَمَنُ ، قال :
صدقت ، قال : فما ألدُّ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يُنْقِدُ
فى عُنق آكله مِنه ، فقال : أحسنت ، فما ألدُّ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزِيلُ
عَقْلاً عن محله ولا يهيجُ على طبيعة شيئاً من عِللٍ ؛ قال : أحسنت ، فما ألدُّ
الرَّيحان ؟ قال : الولد السارُّ رِيحانُ أبيه فى حياته وخلف له بعد وفاته ؛ فرفع
محله وألحقه بأكابر حشمه ...

ونالت أبا الطَّيِّب المَتَنِّبى وهو بمصر علة ، فكان بعض إخوانه المصريين

يكثر الإمام به ، فلما أبلّ قطعته ، فكتب إليه : وصلتني — أعزك الله —
مُعْتَلًا ، وقطعتني مُبِلًا ، فإن رأيت أن تُسكدر الصحة عليّ ، وَتُحَبِّب العلة
إليّ ، فملت ...

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضرني أخلاقه ضررَ السعالِ لَمَن به استسقاء^(١)
وقال البُستى^(٢)

أنا كالورْد فيه راحةٌ قوم ثم فيه لآخرين زُكَّام^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من
تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد البستى الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ
من شعره :

وقد يلبس المرء خزر الثياب ومن دونها حالة مُضْنِيَّة
كمن يكتسى حُذَّه مُخْزَرَة وَعِلَّتْهَا ورمٌ في الرِيَّة
وله :

تَحْمَلُ أخاك على ما به فما في استقامته مطمعُ
وأنتَ له خُفاقٌ واحدٌ وفيه طبائعه الأربعُ
ومن ألفاظه : مَنْ أَصَاحَ فاسِدَه أرْغَمَ حاسِدَه . من أطاع غَضَبَه
أضاعَ أدبه . الفهمُ سُعاعُ العقل . المنية تضحك من الأمنية . حُدَّ العفاف
الرضا بالكفاف
(٣) قبله :

لا يفرنك أننى لئن المَسَّ فعزِمى إذا اتضيت حُسام

وقال المتنبي :

لعلَّ عَتَبَكَ محمودٌ عواقبُهُ ورُبُّمَا صَحَّتِ الأجسامُ بِاللَّيْلِ

وقال :

أُعِيذُهَا نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشَّجْمَ فيمن شجَّمه ورُمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، بطل الدواء ، وإذا قدر الربُّ بطل حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الآمل ، وبئس الدواء الآجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علتك تمحيصاً لا تنغيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعقوباتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى
من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنى بالقول عليها . والحث على الاستمسك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حنكتهم : التجارِب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن في عقل صاحبه عُهْدَةٌ مُتَعَمَّرٌ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار ... ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقيح إشاعته ويشنُّع سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من آتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ...

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يتخذَ عَكَ عن سرِّك مثل قول القائل :

❖ وأكتمُ السر فيه طَرَبَةُ العُنُق ❖

وقول الآخر :

وَيْكَا تَمَّ الْأَسْرَارَ حَتَّى لَانَهُ لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
فَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّى إِذَا اسْتَقْصَى مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَرْتَعْ فِيهِ حَقُّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرُ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَيْفَانِ السَّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَانٍ
« لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ : لَمْ يُحْمَرْزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخَازِنُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ لَقْمَانُ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ :
إِذَا كَانَ خَازِنُكَ حَفِيفًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدْتَ فِي أَمْرِيكَ : دُنْيَاكَ
وَأَخْرَجْتَكَ ، يَعْنِي : اللِّسَانُ وَالْقَلْبُ »

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري : لسان العاقل من وراء
قلبه . فَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ نَظَرَ فَإِنْ كَانَ لَهُ أَنْ يَقُولَ قَالَ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ أَمْسَكَ ، وَلِسَانُ الْأَحْمَقِ أَمَامَ قَلْبِهِ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُ الْقَوْلُ قَالَ ، كَانَ عَلَيْهِ
أَوَّلُهُ ... وَقَالُوا : مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَوَكِّيهِ .

ومن كلامهم : قِ فَاكْ مَا يَقْرَعُ قَفَاكَ « قِ : فَعَلَ أَمْرًا مِنَ الْوَقَايَةِ » وَمِنْهُ :
إِنْ لَمْ تَمْلِكْ فَضْلَ لِسَانِكَ ، مَلَكْتَ الشَّيْطَانَ فَضْلَ عَنَانِكَ .
وَفِي اللِّسَانِ وَمَكَانَتِهِ يَقُولُ زُهَيْرٌ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلَّ ذى نعمةٍ محسود ... » يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى قضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وَهَى الأمر إعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : مَنْ حَصَّن سِرَّهُ فله من تحصينه إياه خَلَّتَانِ : إما الظفرُ بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأهُ الظفر ...

حشَم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :

إذا ما جاوزَ الإثنينِ سرِّي فإنه يَبَثَّ وإفشاءُ الحديثِ قمينٌ (١)
وإن ضيَّعَ الإخوانُ سرًّا فإنِّي كَتُومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينُ
يكونُ له عندى إذا ما ضَمَمْتُهُ مَقَرٌّ بسوداءِ الفؤادِ كنينُ

روَوْا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنين الشفقتين كأنه يقول : لا تُفشِ سرك إلى أحد ... وهذا لَعَمْرِي بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والثب : نشر الحديث الذى كتبه أحق من نشره ، وقين : خليق وجدير ، وبث متعلق بقمين

وكان على ابن أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :
 فلا تُفشِ سِرَّكَ إلا اليك فإن لكل نصيح نصيحا
 ولئن رأيتُ غُواةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً
 وقال الصلتان العبدى من أبيات أوردَها أبو تمام فى حماسه :
 أشاب الصغيرَ وأقنى الكبيرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العشي
 إذا ليلةٌ هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى
 نروحُ ونغدو لحاجتنا وحاجة من عاش لا تنقضى
 تموت مع المروء حاجاته وتبقى له حاجة ما تبقى
 بُنى بداً خَبَّ نجوى الرجال فكُنْ عند سِرِّكَ خَبَّ النجوى^(١)
 وسِرُّك ما كان عند امرئٍ وسرُّ الثلاثة غيرُ الخفي
 كما الصمتُ أذنى لبعض الرشاد فبعضُ التكلم أذنى لغير
 ومن قولهم : سِرُّك من دِمِك « يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السِّرِّ
 سَفْكُ الدم ، وقال آخر لأخ له وحَدَّثَهُ بحديث : آجعلُ هذا فى وعاءٍ غير
 سَرِبٍ « السرب : السائل »

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُطلِعُوا النساءَ على سِرِّكم تَصْلُحْ أُمُورُكم ، وقالوا : ما كَتَمْتُهُ
 عَدُوَّكَ فلا تُطْلِعْ عَلَيْهِ صَدِيقَكَ

(١) الحب بكر الخاء : المكر وبفتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل
 فيما يتحدث فيه اثنان على طريق السروا السكتان ، يقول : إذا ناجيت صاحباً لك فمكن
 خفاً فيما تودعه من سرك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبها عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللأمر مئى ووضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب
وقال مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أنى جماعها (١)
لكل أمرى شغب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرأى أطلاعها (٢)
يظنون شئى فى البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

الممدوح بحفظ السر

قال الأخوص - شاعر إسلامى ترجم له صاحب الأغاني فى
الجزء الرابع - :

كريم يمت السر حتى كأنه عم بنواحي أمره وهو خاير
وقال قيس بن الخطيم :

(١) أضاف الفتى إلى الصدق كما يقال : فتى خير ، والمعنى : أنهم يصدقون فى
الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشئ كما أن النظام اسم لما ينظم به
الشئ ، والضمير فى جماعها : لك أن ترجمه إلى الفتى أو إلى ما دل عليه الكلام من
ذكر الأسرار يقول : رب فتى هكذا استناموا إلى واستودعوني أسرارهم فكنت
أنا نظامها لا يفوتنى من خبيات صدورهم شئ ثم أفردت كلا منهم بالوفاء وكتبان
ما أودعنى من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ،
والشعب فى الأصل : الطريق فى الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى
اسم للسر ، واطلاعا : علما يقال : اطلع الشئ واطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد
على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كُتُومٌ لِأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ
وَقَالَ كُشَايِمُ :

وَيُسْكَاتِمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُصَوِّئُهَا عَنْ أَنْ تُمَرَّ بِبَالِهِ
« وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْفَا »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَنٍ التَّقْفِيُّ ^(١) عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : أَبُوكَ
الَّذِي يَقُولُ :

إِذَا مِتُّ فَأَدْفِنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرَمَةٍ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُروْفُهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَذْرِفُهَا

فَقَالَ ابْنُ أَبِي مِحْجَنٍ : لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا مِنْ شِعْرِهِ !
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَوْلُهُ :

(١) أَبُو مِحْجَنٍ التَّقْفِيُّ هُوَ الصَّحَابِيُّ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ بِقِصَّتِهِ مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ
فِي يَوْمِ الْقَادِسيَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَى بِهِ إِلَيْهِ وَهُوَ سَكْرَانٌ - وَكَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ - فَأَمَرَ بِهِ
فَقِيدَ ، وَكَانَ بِسَعْدٍ جِرَاحَةٌ فَاسْتَعْمَلَ غَيْرَهُ ، وَصَعِدَ سَعْدٌ فَوْقَ الْبَيْتِ لِيَنْظُرَ مَا يَصْنَعُهُ
النَّاسُ لِجَعْلِ أَبِي مِحْجَنٍ يَتِمَثَّلُ :

كُنِي حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَى وَثَاقِيَا
ثُمَّ قَالَ لِامْرَأَةِ سَعْدٍ : وَيْلَكَ خَلِينِي وَلَكَ عَلَى إِنْ سَلِمْتَ أَنْ أَرْجِعَ فَأُضْعَ رَجُلِي
فِي الْقَيْدِ وَإِنْ قَتَلْتَ اسْتَرْحِمْنِي ؛ نَخْلَتُهُ وَوُثِبَ عَلَى فَرْسٍ لِسَعْدٍ يُقَالُ لَهَا الْبَلْقَاءُ ، ثُمَّ
أَخَذَ الرِّيحَ وَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى النَّاسَ لِجَعْلِ لَا يَحْمِلُ فِي نَاحِيَةِ الْإِهْرَامِ النَّاسَ ، لِجَعْلِ النَّاسِ
يَقُولُونَ : هَذَا مَلِكٌ ، وَسَعْدٌ يَنْظُرُ لِجَعْلِ يَقُولُ : الضَّبْرُ ضَبْرُ الْبَلْقَاءِ ^(١) وَالطُّفَرُ طُفَرُ أَبِي
مِحْجَنٍ وَأَبُو مِحْجَنٍ فِي الْقَيْدِ ، فَلَمَّا هَزَمَ الْعَدُوَّ رَجَعَ أَبُو مِحْجَنٍ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْقَيْدِ ،
فَأَخْبَرَتْ امْرَأَةُ سَعْدٍ بِالَّذِي كَانَ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَحَدَ الْيَوْمِ رَجُلًا أَيْلَى اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى يَدَيْهِ مَا أَبْلَاهُمْ ، نَخْلَى سَبِيلَهُ فَقَالَ أَبُو مِحْجَنٍ : لَقَدْ كُنْتُ أَشْرَبَهَا إِذْ كَانَ يَقَامُ عَلَى
الْحَدِّ أَطْهَرُ مِنْهَا فَأَمَّا إِذْ بَهَرَجَتْنِي فَوَاللَّهِ لَا أَشْرَبَهَا أَبَدًا

(١) الضَّبْرُ : عَذْرُ الْفَرْسِ

لا تسأل القوم ما مالى وما حسبى وسألى القوم ما حزمى وما خلقتى
 ألقوم أعلم أنى من سرائيم إذا تطايش يد الرعد بدة الفرق
 أعطى السنان غداة الروع حصته وعامل الرمح أرويه من العلق^(١)
 قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق
 فقال معاوية: إن كنا أسأنا الذول لنحسبن الفعل، وأجزل صلته ..

صعوبة حفظ السر

قالوا: أصبر الناس من صبر على كتبان سره فلم يبده لصدق فيوشك
 أن يصير عدواً فيذيعه

وقالوا: الصبر على لخب النار أهون من الصبر على كتبان السر ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر:

فلا تؤدعن الدهر سرّك أخمقاً فإنك إن أردعته منه أحمق
 إذا ضاق صدر المرء عن كتم سره فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال بشار:

تبوح بسرّك ضيقاً به وتحسب كل أخ يكتم
 وكتبانك السرّ ممن نخاف ومن لا تخافه أحمق
 إذا ذاع شرك من مخبر فانت متى أتمته ألوم

ذم من يفشى السر

يقولون: فلان أضيع الأسرار من الغربال للماء، وقال الخطيب:

(١) العلق: الدم

أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتُودِعْتَ سِرًّا وَكَأَنُونا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ
« الكانون : الثقل من الناس ، وقيل : الكانون : الذى يجلس حتى
يَتَحَصَّى الأخبارَ والأحاديثَ لِيَتَنَقَّاهَا ، قال أبو دَهَبَل :
وقد قَطَعَ الوائِشون بيني وبينها ونحنُ إلى أن يُوصَلَ الجبلُ أَخَوُجُ
فَأَيَّتْ كَوَانِنَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جُلَّةِ الْبَحْرِ لَجَّجُوا ،
وقالوا : فلانُ أتمُّ من النسيمِ على الرِّياض . وقال ابنُ الرومى :
كَأَنَّ سِرِّيَّ فِي أَحْشَائِهِ لَهَبٌ فَمَا يُطَيِّقُ لَهُ طَيًّا حَوَاشِيهَا

الأحوال التى يفشو فيها السرّ

قالوا : إذا أردتَ أن تُنْزِلَ الرَّجُلَ عَنْ سِرِّهِ فَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ فِي حَالِ
مُسْكِرِهِ * فَالْمُسْكِرُ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمُسْكُونَا *

المسازرة فى المحافل

قال سيدنا رسولُ الله : إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دونَ الثالث .
وكان مالكُ بنُ مُسَمِّعٍ إذا سارَّدَ إنسانٌ يقول : أظْهَرُهُ فلو كان خيراً لم
يكن مكتوماً ، وهذا من قول زهير بنِ أبى سُلمى :

وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ
« يقول : إن بين الممدوح وبين الفاحشاتِ سِتْرًا من الحياءِ والثِّقَى ، ولا
سِتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ يَحْجِبُهُ عَنْهُ »

وقال الخُبَيْرُ أُرْزِى :

إِذَا أَنْتَ سَارَرْتَ فِي مَجْلِسٍ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمٌ
فهذا يقول : قد أغتابنى وذا يَسْتَرِيبُ وَذَايَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي :

ولا أَكْتُمُ الأسرارَ لكنْ أُنْمِها ولا أَدْعُ الأسرارَ تُغْلِي على قلبي
وإنَّ قَلِيلَ العَقْلِ مَنْ باتَ لَيْلَه تُقْلِبُه الأسرارُ جَنْبًا إلى جَنْبِ

وقال آخر :

ولا تُودِعُ الأسرارَ قلبي فإنما تُصْـبِنُ ماءً في إناءٍ مُسَلَّمِ
وقال رجل لصديق له : أريدُ أنْ أُفْشِيَ إِيْلِكَ سِرًّا تحفُظُه ، فقال : كلا
لستُ أَشْغَلُ قلبي بنجواك ، ولا أَجْعَلُ صدري خِزانةَ شكواك ، إِنْ قُلِقْتَنِي
ما أَقْلَقَكَ ، وَيُورِّقَنِي ما أَرْقَكَ ، فَتَبَيَّتْ بِإِفْشائِهِ مُسْتَرْحِجًا ، وَبَيَّتَ قلبي يَحْتَرِه
جَرِيحًا ... وَلَعَمْرِي ما أَصْدَقَ هذا وأَكْثَرَه انطباقًا على الواقع ! وفي الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظةً لمن لا يطيقون كتبان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء :

وَأَبْتَدْتُ عَمْرًا بَعْضَ ما في جِوارِحِي وَجَرَّعْتُهُ مِنْ مُرٍّ ما أَتَجَرَّعُ
فَلَا بُدَّ مِنْ شَكْوَى إلى ذِي حَفِيظَةٍ ^(١) إِذا جَعَلْتَ أسرارُ نَفْسِي تَطْلَعُ

(١) الحفيظة : إما يراد بها : حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها : الغضب لحرمة
تنتهك من حرمانك أو جار ذى قرابة يظلم من ذؤيك أو عهد ينكث قال الحفيظة :
يُسْوسُونَ أَحْلامًا بَعِيدًا أَنانُها وَإِنْ غَضِبُوا جاءَ الحَفِيظَةُ والجِدُّ
والمحفظات : الأمور التي تحفظ الرجل أى تغضبه إذا وتر في حيمه أو جيرانه
قال القطامي :

أَخْوَكَ الَّذِي لا تَمْلِكُ الحِصْنَ نَفْسُهُ وَتَرْفُضُ عِنْدَ المَحْفَظَاتِ الكِتابَتُ =

وقال أبو تمام :

شَكَوْتُ وما الشَّكْوَى لِشَيْءٍ عَادَةٍ ولَا يَكُنْ تَفْيِضُ السَّكَاوُسُ عِنْدَ امْتِلَائِهَا
وقالوا: لَا يَزَالُ الْمَرْءُ فِي كُرْبَةٍ وَوَحْشَةٍ مَا لَمْ يَجِدْ مَنْ يَشْكُو إِلَيْهِ . . . وما
يَتَصَلُّ بِهَذَا أَنْ يُخْبِرَ الْمَرِيضُ طَبِيبَهُ بِكُنْهٍ دَانِهِ .

وقال محمود الوراق :

إِذَا كَتَمَ الصَّدِيقُ أَخَاهُ سِرًّا فَمَا نَفْضُ الصَّدِيقِ عَلَى الْعَدُوِّ

عقريات شتى فى كتمان السر

قال المهلب بن أبي صفرة: أَدْنَى أَخْلَاقِ الشَّرِيفِ كِتْمَانُ السِّرِّ، وَأَعْلَى
أَخْلَاقِهِ نِسْيَانُ مَا أَمَرَ إِلَيْهِ.

وَيُرْوَى أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ أَسْرَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ عُمَانَ بْنِ عَنبَسَةَ بْنِ
أَبِي سَفْيَانَ حَدِيثًا، قَالَ عُمَانُ: جِئْتُ إِلَى أَبِي فَقُلْتُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسْرَ
إِلَى حَدِيثًا أَفْأُ حَدَّثُكَ بِهِ؟ قَالَ: لَا، إِنَّهُ مَنْ كَتَمَ حَدِيثَهُ كَانَ الْخِيَارُ إِلَيْهِ
وَمَنْ أَظْهَرَهُ كَانَ الْخِيَارُ عَلَيْهِ، فَلَا تَجْمَلْ نَفْسَكَ مَمْلُوكًا بَعْدَ أَنْ كُنْتَ مَالِكًا،
فَقُلْتُ لَهُ: أَوْ يَدْخُلُ هَذَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَبِيهِ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ
تَذَلَّ لِسَانُكَ بِإِفْشَاءِ السِّرِّ! قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ،
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: أَعْنَتَكَ أَخِي مِنْ رِقِّ الْخَطَا . . .

وَكَانَ مَعَاوِيَةُ يَقُولُ: أَعْنَتُ عَلَى عَلَى رَحِمِهِ اللَّهُ بِأَرْبَعٍ: كُنْتُ رَجُلًا

== والكنايف: جمع كنيفة وهى السخيمة والحقد والعداوة يقول الفطامى: إذا
استوحش الرجل من ذى قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته
ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقدته عليه وغيض له فغضب له فنصره وانصر له من ظلمه،

أَكْتُمُ سِرِّي ، وكان رجلاً ظَهْرَةً^(١) وكنت في أطْوَحِ جُنْدٍ وَأَصْلَحِهِ ، وكان
في أَخْبَثِ جُنْدٍ وَأَعَمَّاهُ ، وتركته وأصحابَ الجَلِّ وقلت : إن ظَفِرُوا به كانوا
أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُ ، وإن ظَفِرَ بهم اعتَدَدْتُ بها عليه في دينه ، وكنتُ أَحَبُّ
إِلَى قَرِيشٍ مِنْهُ ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضي يُرَِّيحُ فكلَّمه بشيء وأخفاه ، فلما خرج قال
له رجلٌ : يا أبا أمية ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخي ، أو ما رأيته
سَتَرَهُ عَنْكَ !

وأمرَ رجلٌ إلى صديق له حديثاً فلما استقصاهُ قال : أَفَهِمْتَ ؟ قال :
لا ، بل نَسِيتُ ..

وقال عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُثْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ الْفَقِيه :
إِذَا كَانَ لِي سِرٌّ خَدَّيْتُهُ الْعِدَا وَضَاقَ بِهِ صَدْرِي فَلِلنَّاسِ أَعَذَرُ
هُوَ السِّرُّ مَا اسْتَوْدَعْتَهُ وَكَتَمْتَهُ وَلَيْسَ بِسِرٍّ حِينَ يَفْشُو وَيُظْهَرُ
ويقال : إِذَا انْتَهَى السِّرُّ مِنَ الْجَنَانِ إِلَى عَذْبَةِ اللِّسَانِ فَالْإِذَاعَةُ مُسْتَوَالِيَةٌ
عَلَيْهِ ..

وقال عمر بن عبد العزيز : الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ لِلْأَسْرَارِ ، وَالشِّفَاهُ أَتْقَالُهَا
وَالْأَلْسُنُ مَفَاتِيحُهَا ، فَلْيَحْفَظْ كُلُّ امْرِئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
وقال شاعر :

صَنِ السِّرِّ عَنْ كُلِّ مُسْتَخِيرٍ . وَحَازِرُهَا الْحَزْمُ إِلَّا الْحَذَرُ
أَسِيرُكَ سِرُّكَ إِنْ صَلَّتْهُ وَأَنْتَ أَسِيرُ لَهْ إِنْ ظَهَرَ
وقال جميل بن مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَالْقَى اللَّهَ يَا بَنِيَّ لَمْ أَجِءُ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخِيرُونَ كَثِيرُ
وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي بِهَا كَيْدُ الَّذِي بِي حَذَوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرْخَتْ جَانِبَ السَّيْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِقَبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهَا مِنْ تَرْفٍ وَلَكِنْ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
«يريد : أنه ليس يحمله أحدٌ مثلي في صيانتِهِ وسَتَرِهِ ، أى فلا يُبْدِيهِ لأحد»
وقال شاعر :

أَخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالتَفِتْ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ
وقال مسلم بن الوليد صَرَبُ الغَوَانِي فِي السِّكَاكِ يَا نَيْكَ فِيهِ السَّر :
الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسٍ
« أرماس جمع رَمَس وهو القبر ، والمراد إخفاؤه وتَعْفِيَتُهُ حَتَّى لَا يَبْقَى
لَهُ أَثَرٌ ،

وقال المقرئ :

فُظُنٌّ بِسَارٍ الْإِخْوَانِ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادٍ
وَقَبْلَهُ :

نَلُومٌ عَلَى تَبَسُّلِهَا قُلُوبًا تُكَادُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادًا
إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ وَقَوْدًا فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا
فُظُنٌّ

وبعده :

نَلُو خَبَرَتُهُمُ الْجُوزَاءُ خُبْرِي ... لَمَّا طَلَعَتْ بَخَاةً أَنْ تُكَادَا

عقرياتهم في المشورة

والاستناد بالرأى

المشورة مُشتقة من : سُرَّت الدابة : إذا أجزيتها لتعرف قوتها، وهي : استنباط المرء رأى غيره فيما يمرض له من الأمور المُعضلة . حتى يَنبشِق له حائق الأمر .. ونِعْمَت العُدَّة هي إذا كان المستشارُ صديقاً مجرباً حازماً ناصحاً رابط الجأش غير مُعجَب بنفسه ولا مُتلون في رأيه ولا كاذب في مقاله - فإنَّ من كَذَبَ لسانه كَذَبَ رأيه - فارغ البال حين استشارته :
فَأَنْفَعُ مَنْ شَاوَرْتَ مَنْ كَانَ نَاصِحاً شَفِيقاً فَأَبْصَرَ بَعْدَهَا مَنْ تُشَاوِرُ
وليس بشانئك الشفيقُ ورأيه عَزِيبٌ وَلَا ذُو الرَّأْيِ وَالصَّدْرُ وَاعِزُّ^(١)

* * *

وما كُلُّ ذِي لُبٍّ يُمَوِّتُكَ نَصَحَهُ وما كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بَلِيبٌ
ولكن إذا ما استَجَمَّما عند واحدٍ فُحِّقْ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبٍ^(٢)

مدح المشورة

أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهٖ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَشَاوَرَةٍ مِنْ هُوَ دُونَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ذَهَبَ الْمُفَسِّرُونَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهٖ بِمَشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى رَأْيِهِمْ وَلَكِنْ لِيُعْلَمَ مَا فِي الْمَشَاوَرَةِ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَقِيلَ : أَمْرُهُ

(١) عزيب : بعيد غائب

(٢) لابي الاسود الدؤلي وقوله : فحق له من طاعة بنصيب ، يريد : فهو اذن وفي هذه الحالة جدير بأن يطاع ويتنصحن بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطيباً لنفوسهم ، وقيل : لبستين بذلك المسلمون ... وقال
سبحانه : وأمرهم شورى بينهم
وفي الأثر : والمشاورة حصن من الندامة وأمن من الملامة وقالوا : ما هلك
أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب : الرأي الفرد كالخيط السجيل ، والرأيان
كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لا يكاد يلتقض ...
« السجيل : الخيط غير المقتول ، والمرار : الحبل الذي أجيد فثله ،
وقالوا : نصفت رأيك مع أخيك فاستشره ...

حشهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بُرد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	بمزم نصيح أو بتأييد حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة	مكان الخوافي نافع للقوادم ^(١)
وحل الهوينى للضعيف ولا تكن	أثوماً فإن الحزم ليس بنارم ^(٢)
وما خير كنف أمسك الغلُّ أختها	وما خير سيف لم يؤيد بقائم ^(٣)
وأذن من القربى المقرب نفسه	ولا تشهد الشورى أمراً غير كاتم
فإنك لا تستطرد الهمة بالمنى	ولا تبلغ العليا بغير المكارم ^(٤)

(١) الخوافي : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادم :
الريشات السكبار التي في مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد يمد القوى بالمعونة
(٢) الهوينى : تصغير الهوى والهوى تأنيك الأهلون يقال : إنك لتعمد للهويني
من أمرك : أى لاهوته

(٣) الغل : واحد الأغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهمة : ما يهيم به الرجل أو أجال فسكره فيه ليفعله

إذا كنتَ فَرْدًا هَرَّكَ النَّاسُ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تُفَزْ بِالْعَزَائِمِ^(١)
وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ دُشَيْعٍ أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ^(٢)
قال الأصمى : قلت ابشار : إني رأيت رجال الرأي يتعجبون من
أبياتك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدَى الْحُسَيْنَيْنِ :
بين صواب يفوز بشعره أو خطا يُشَارَكَ فِي مَكْرُوهِهِ ؛ فقلت أنت والله
أشعرُ في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعْتَمَدُ عَلَى مَشُورَتِهِ وَرَوِيَّتِهِ

كانت العربُ تَحْمَدُ آراءَ الشيوخ ؛ لتَقْدِمُهَا فِي السَّنِ ، ولما مرَّ عليها
من التجارب التي عَرَفَتْ بِهَا عَوَاقِبُ الْأُمُورِ حَتَّى كَانَتْ تَنْظُرُهَا عِيَانًا ،
وطرأ عليها من الحوادث التي أَوْفَحَتْ لَهَا طَرِيقَ الصَّوَابِ وَيَبِّتَتْ نَبِيَانًا ،
ولما مُنَحَّتْهُ مِنْ أَصَالَةِ رَأْيِهَا ، وَاسْتَفَادَتْهُ بِجَمِيلِ سَعْيِهَا ، قال علي بن
أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخُ خَيْرٌ مِنْ مُشْهَدِ الْغُلَامِ . ومن أمثالهم
« زَايِمٌ بِعَوْدٍ أَوْ دَغٌ »^(٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطرَ دهره ، ومَرَّتْ عَلَيْهِ

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
يعتزم المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوي التجارب
باعذك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تفز بجاجاتك التي
اعتزمت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أو بقوة قلبه
(٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبٌ خيره وشره ، وبلغ من العمر أشده ، وأورث التجربة زنده ،
واستشار زياد بن أبيه رجلا ، فقال الرجل : حق المستشار أن يكون
ذا عقل وافر ، واختبار مظاهر ، ولا أراقى كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :
أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّي آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يَرَوِي وَلَا يُقَلِّبُ كَفًّا وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي ثَقْلِبِ
وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعَزِلٍ وَآرَاؤُهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ شُهْدُ
كَمَا اخْتَجَبَ الْمَقْدَارُ وَالْحُكْمُ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طَرًّا لَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدُ^(١)
وقال إبراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمَضِّي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فَسْكَرَتُهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَقْظَلُ يُصْدِرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعْمُ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيَا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيَا إِذَا تَبَتَّ السِّیُوفُ مَضَى عَزَمُ بِهَا فَشَقَى مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخُطُوبُ تَأَثَّلَتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا جَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا
وقبلهما قل أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّا نَ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا
وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه لينظر إلى الغيب من

سَمْتِ رَقِيقِ

(١) ليس عنه معرّد : ليس عنه هرب

وقال الشاعر :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ
وقال الآخر في مثله :

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَأَنَّ لَهُ فِي الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى الْغَدِ
وقال :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ
وَأَيْنَ مَقَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا سَمَرَاتُ الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ تَجَارِبُهُ
ولقد بالغوا في الحثِّ على مُشاوَرَةِ ذِي الرَّأْيِ والتَّجَرُّبَةِ حتَّى ولو كانوا
أعداء، قال ابنُ المقفَّع في كَلِيلَةِ وَدِئْنَةِ : لا ينبغي للعاقل أن يترك استشارة
عدوه ذى الرَّأْيِ فيما يَشْرَكَ ذلك العدوُّ في نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ...
وقالوا : اسْتَشِرْ عَدُوَّكَ تَعْرِفْ مَقْدَارَ عداوتِهِ ...

وقد رأى قومٌ خلاف ذلك وذهبوا إلى أنَّ رَأْيَ الشَّبابِ هو الرَّأْيُ
الصَّابِ، وفهمهم هو الفهمُ الثَّاقِبُ، إذ أن عقولهم سليمةٌ من العوارض،
وآراءهم خَصِيْرَةٌ نَضْرَةٌ لم يَهْتَصِرْ غُصْنُهَا هَرَمٌ^(١)، ولا أذرى زَهْرَتِهَا قَدَمٌ
ولا خَبَأَ مِنْ ذِكَايَها يُطَوِّلُ المُدَّةَ ضَرَمٌ. قالوا : إن رَأْيَ الشَّيْخِ كالزُّنْدِ قد انثلم،
أما رَأْيُ الشَّابِ فكالزُّنْدِ الصَّحِيحِ الذِّى يُورِى بِأَيْسَرِ اقْتِدَاحٍ
وقال الشاعر :

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ آتِيهَاً وَلَمْ يُقَسِّمْ عَلَى عَدَدِ السَّنِينَا
وَلَوْ أَنَّ السَّنِينَ تَقَسَّمَتْهُ حَوَى الْآبَاءُ أَنْصَبَةَ الْبَلِينَا

(١) يهتصر الغصن : يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُتُس بن ساعدة الإيادي لا يَنْبَغُ : لا تُشاورُ مشغولاً وإن كان حازِماً ولا جائِماً وإن كان قهيماً ، ولا مدعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً ، فإلهم يعقلُ العقل فلا يتولدُ منه رأى ولا تصدقُ به روية ... وقالوا : لا تُدخل في مشورتك بخيلاً فيَقْصِرَ بفعلك ، ولا سجباً فيخوفك ، ولا حريصاً فيعبدك ما لا يُرجى ، وإن البخل والجبن والحِرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن بالله ...

وقالوا : لا تُشاورُ مَنْ ليس في بيته دقيق ...
وكان كسرى إذا أراد أن يستشير إنساناً بعث إليه بنفق سنة ثم يستشيرهُ .

وقال علي رضي الله عنه : إياك ومُشاورة النساء قرأتهن إلى أفن وعزهن إلى وهن ^(١) ... وورد في الآثار : شاوروهن وخالفوهن ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُستشارُ مُؤتمن ...
وقال صلوات الله عليه : الدينُ النصيحة ، قالوا : لمن يارسول الله ؟
قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ...
« قال ابن الأثير في النهاية : النصيحة كلمة تُعبرُ عن جملة هي : إزادة الخير للنصوح له ، وإيست كلمة تُعبرُ عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصيح في اللغة . الخُلوص ، يقال : نصحتُه ونصحتُ له . . هذا : والنصيحة لله : الإيمانُ به

(١) الأفن : النقص ، ورجل مأفون : نائص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه ، ومُوالاة من أطاعه ، ومُعاداة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد ، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خير لها ؛ والنصيحة لكتابته : الإيمان بأنه من عند الله ، وتحليل ما حله ، وتحريم ما حرّمه ، والاهتداء بما فيه ، إلى أمثال ذلك ؛ والنصيحة للرسول : تصديقه والاستئنان بسنته ، إلى آخره ؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل ، إلى آخره ، والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة . وقال حكيم : لا تُشيرَنَّ على عدوك وصديقك إلا بالنصيحة ، فالصديق تقضى بذلك حقه والعدو يهابك إذا رأى صواب رأيك ...

وقال آخر : إذا استشارك عدوك فخرّد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاةك ..

ويروى : أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية : يا أمير المؤمنين ، قد ضبطت لك العراق بشمالى وفرّغت يمينى لطاعتك ، فولّنى الحجاز ، فتأبّع ذلك الرجل الصالح عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، - وكان مقيمًا بمكة - فقال : اللهم اشغلّ عنا يمين زياد ، فأصابه الطاعون في يمينه ، فجمع الأطباء واستشارهم ، فأشاروا عليه بقطعها ، فاستدعى القاضى شريحًا وعرض عليه ما أشار به الأطباء ، فقال : لك رزق معلوم ، وأنجلّ محتوم ، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد ، فإذا سألك لم قطعتها قلت : بُغضًا في لقائك ، وفرارًا من قضائك ؛ فمات زياد من يومه ، فلام الناس شريحًا على منعه من القطع ، لبغضهم زيادًا ، فقال : إنه استشارنى والمستشار مؤتمن ... ولولا

الأمانة في المشورة لَوَدِدْتُ أَنْ تُقَطَعَ يَدُهُ يَوْمًا وَرِجْلُهُ يَوْمًا وَسَائِرُ
جَسَدِهِ يَوْمًا يَوْمًا ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُرًّا

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهاك، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ
وقال بعض الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرَّ لَتَبَرَّأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مَنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلُوَّ لَتَسْقَمَ. ويقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ، وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصُبُّ فِي الْفَمِ،

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَصْحَابِهِ وَإِنْ أَحْزَنُوهُ عَادَ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ، كَالْمُرِيضِ
الَّذِي يَتَرَكُ مَا يَصِفُ لَهُ الطَّبِيبُ وَيَعْمِدُ إِلَى مَا يَشْتَهِيهِ فَيَهْلِكُ. وقال الله
تعالى حكايةً عن صالح: «لَقَدْ أَرْسَلْنَاكَ رَسُولَاتٍ رُبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ»
وقال العرجي^(١):

عَرَّضْتُ نَصِيحَةً مَنِي لَيْحِي فقال: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر: * وما خَيْرُ نُصْحٍ قِيلَ لَا يُتَقَبَّلُ *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، سمي العرجي
لأنه ولد بالعرج في الطائف وقيل: بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب، ترجم له صاحب الأغاني (ج ١)

وقال غيره :

إن كان تخدي ضاع في نصيحتكم فإن أجرى ليس بالضائع
وقيل : أخذ رجل ذنباً فجعل يعطه ويقول له : إياك وأخذ أغنام
الناس فيعاقبك الله ، والذئب يقول : خفف واختصر فقد أمتى قطيع
من الغنم لئلا يفوتني ...

معاقبة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن همام السلولي :^(١)

وقد يستغش المرء من لا يغشه ويأمن بالغيب امرءاً غير ناصح
وقال أيضاً :

ألا رب من تغشكه لك ناصح ومؤمن بالغيب غير أمين
« تغشكه : تعدّه غاشماً لك »

وقال غيره :

نصحت فلم أفلح وغشوا فأفحروا فأنزلني نصحي بشر مكان

(١) هو القائل :

وأنت أمرؤ إما ائتمنتك خالياً فحنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانتة والإثم
وكان قد وثى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أجمع
بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال
زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجرتي ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت
لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيهة
ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقفي^(١) من تصيدة جيدة في بابها^(٢) يُعَاتِبُ ابنَ عمه عبد الرحمن بن عثمان بن العاص وأولها :
تُكَاشِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي^(٣)
لَسَانُكَ لِي أَرَى وَغَيْبُكَ عَلِمْتُ^(٤) وَشُرَكَ مَبْسُوطٍ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي^(٥)
تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صِفَاحًا وَغَيَّ بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُنْزَوِي^(٦)
تُفَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ^(٧) وَمِنْ دُونِ مَنْ صَافَيْتَهُ أَنْتَ مُنْطَوِي^(٨)

الناصر متهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظنة . « الظنة :
الثَّهْمَةُ » وقال أكنم بن صَيْفِي : إياكم وكثرة التَّنْصِيحِ فإنه يورثُ الثَّهْمَةَ .
« التَّنْصِيحُ : كثرة النصيح ، وقال قائلهم :
« وقد يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةُ الْمُتَنَصِّحُ »

(١) شاعر إسلامي فحل ، ترجم له صاحب الأغاني ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأماشي والخزانة

(٣) يقال : كاشر الرجل الرجل إذا كشر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ، والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ودوى صدره : ضغن

(٤) الأرى : العسل ، والعلم : الحنظل

(٥) وغبي يروى وحتمدى ، وزوى ما بين عينيه : قبضها

(٦) فافوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تنبسط فى الكلام عند عدوى لا أظهره على شىء من أموري ، وتنبض عن أصدقائي ولا تظهرهم على شىء من أمرك نكايه في .

وشارَرَ المأمونُ يحيى بنَ أكرمٍ، فكان الرأى مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحيى: ما أحدٌ بالغ في نصيحة الملوكِ إلا استغشوه، قال: ولمَ يا يحيى؟ قال: لَصَرْفِهِ لَهم عِسا يُحبُّون إلى ما لَعلَّهم يَكرَهُون في الوقتِ! والهوى إلهٌ مَعْبود!

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذي يَنْصَحُ القومَ وهو غاش: «أنت شولة الناصحة» قال ابن السكيت: كانت شولة أمة رَعَاءَ تَنْصَحُ موالِها فتعودُ نَصِيحَتِها وبِالآ عليهم، لَحْمِهَا.

وقال معاوية يوماً لعُمر بن العاص: هل غَشَشْتَنِي مُذِ اسْتَنْصَحْتُكَ؟ قال: لا، فقال: ولا يومَ أُشْرْتَ على بِمَارِزَةٍ على وأنت تعلمُ مَنْ هو؟ فقال: كيف وقد دعاكَ رجلٌ عَظِيمُ الخَطَرِ كنتَ من مُبَارِزَتِهِ إلى إحدَى الحُسَيْنَيْنِ! إن قَتَلْتَهُ قُوتَ بِالمُلْكِ وازدَدْتَ شَرَفًا إلى شَرَفٍ، وإن قَتَلْتَكَ تَعَجَّلْتَ من الله تعالى ملاقاةَ الشهداءِ والصَّديقين! فقال: وهذه أشدُّ من الأولى! فقال: أو كنتَ من جِهَادِكَ في شِكِّ؟ فقال: دَعْنِي من هذا

وقال شاعر:

أعاذِلَ إنْ نُصَحِّكَ لى عَناءُ خُشْبِكَ قد سَمِعْتُ وقد عَصَيْتُ

الاستبداد وكرهه المشورة

ومِنَ الناسِ مَنْ آثرَ الاستبدادَ برأيه وكرِهَ أن يستشيرَ، قال المهلبُ ابنُ صُفْرَةَ: لو لم يكن في الاستبدادِ بالرأى إلا صونُ السُّرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التمسكُ به ... وقال عبد الملك بن صالح ؛ ما استشرتُ أحداً قط إلا تسكبر عليّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العزة ودخلتني الذلة ؛ فعليك بالاستبداد ، فإن صاحبه جليلٌ في العيون ، مهيبٌ في الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تضعضع شأنك ، ورجفت بك أركانك ؛ وما عز سلطان لم يُغنيه عقله عن عقول وزرائه ، وآراء نصحاؤه ؛ فإياك والمشورة وإن ضاقت عليك المذاهب ، واشتبهت لديك المسالك .

ورَوَوْا : أن أبا جعفر المنصور كان يستشير أهل بيته حتى مدح ابن هرمة ^(١) بقوله :

يُزْنُ امراً لا يُصلِحُ القومُ أمره

ولا يلتجئ الأذنين فيما يُحاول ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبت والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها . وقال بعض جلساء هارون الرشيد . أنا قتل جعفر بن يحيى البرمكي وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفس تنفساً مُسكرًا فأنشدت في إثر نفسه :

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد ^(٣)

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرًا ...

-
- (١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ، من متقدمي الشعراء ، ومن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغاني د ج ٤ ،
(٢) انتباه : إذا أفضى إليه سره وخصه به
(٣) لعمر بن أبي ربيعة وقوله :

ليت هنبداً أنجزتنا ما تعدُّ وشفّت أنفسنا مما نجد

وكانت الفُرسُ والرُّومُ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الاستشارة، إِنْ قَالَتِ الرُّومُ : نحن لَا نُمَلِّكُ من يحتاج إلى أَنْ يَسْتَشِيرَ ، وَقَالَتِ الفُرسُ : ونحن لَا نُمَلِّكُ من يَسْتَعْنِي عن المشاورة ؛ وقد فَضَّلَ الفُرسُ لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » .

المتفادى من أن يُستشار

ومن الناس من يَكْزُرُهُ أَنْ يُشِيرَ :

استشارَ عبد الله بن عليّ عبد الله بن المُقَفَّع فيما كان بينه وبين أبي جعفر المنصور ، فقال ابنُ المُقَفَّع : لَسْتُ أَقْوَدُ جَيْشًا ، وَلَا أَتَقَلَّدُ حَرْبًا ، وَلَا أُشِيرُ بِسَفْكِ دَمٍ ، وَعَثْرَةُ الْحَرْبِ لَا تُسْتَمَالُ ، وَغَيْرَى أُولَى بِالمشورة فِي هذا المكان ...

واجتمع رؤساءُ بني سعدٍ إلى أَكْثَمَ بنِ صَيْفِيّ يَسْتَشِيرُونَهُ فِيمَا دَهَمَهُمْ يَوْمَ الْكَلَّابِ ، فَقَالَ : إِنَّ وَهْنَ الْكِبَرِ قَدْ فُتَّسَ فِي بَدَنِي ، وَلَيْسَ مَعِيَ مِنْ حِدَّةِ الذَّهْنِ مَا أِبْتَدِئُ بِهِ الرَّأْيَ ، وَلَكِنْ اجْتَمِعُوا وَقُولُوا ، فَإِنِّي إِذَا مَرَّ بِي الصَّوَابُ عَرَفْتُهُ .

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وكانوا يمدحون الأنانة في الرأي وإجمالة الفكرة فيه وعدم التسرع .
كان عبد الله بن وهب الراسبي يقول : لِمَا بَيَّأَ والرأيُ الفطيرُ ، وكان يستعِذُ بالله من الرأيِ الدَّبرِيِّ .

« الفطير : كلُّ ما أُعْجِلَ عن إدراكه ، تقول : فَطَرْتُ العجينَ ، وهو

أَنْ تَعِجْنَهُ ثُمَّ تَحْتَبِزُهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالذَّبْرِيُّ : الذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الذَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الذِي يَسْنَحُ أَخِيرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَبِنَ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَجَةٍ قَالَ بَجْرِيرَ :

وَلَا تَنْقَرُونَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدَى لَوِجْهَهُ
أَمْرِهِ ، أَيْ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ مَا عِيلَهُ فِي آخِرِهِ لَا اسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ «
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمُ الْعَرَبِ يَقُولُ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ ! يَرِيدُ الْإِنَاءَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثَبُّتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَاهِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعْمِلٌ أَوْكَادَ « الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتَ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ »

وَقَالَ شَاعِرٌ :

تَأَنَّ وَشَارِزْ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمْنًا مُضِيًّا وَمُسْتَعْمِلُضٌ
فَرَايَانِ أَنْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهَى الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانٍ (١)
وَلَزَبَمَا طَقْنَ الْقَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الْإِقْرَانِ

(١) لِنَفْسٍ مُرَّةٍ : مِنَ الْمُرَارَةِ ، وَتُرْوَى مُرَّةً بِكَسْرِ الْمِيمِ : الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ ، وَأَصْلُ الْمُرَّةِ
إِحْكَامُ الْفَتْلِ يُقَالُ : أَمْرٌ الْحَبْلُ لِمُرَارَا ، وَتُرْوَى : حُرَّةٌ

لولا العقول لكان أذنى ضيغم^(١) أدنى إلى شرف من الإنسان^(٢)
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدي الكماة عوالي المران^(٣)
وفي الأثر : ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ، ولا الخرق إلا شانه .
وقال القطامي :

قد يدرك المتأني بفض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل^(٤)
وقال :

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٥)
وقبله :

ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا^(٦)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تمدح فيه العجلة :

قيل لأبي العيناء : لا تعجل فالعجلة من الشيطان فقال : لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى « وعجلت إليك رب استرضى »
وقال معاوية : ما من شيء يعدل التثبت فقال الأحنف بن قيس : إلا
أن تبادر بالعمل الصالح أجلك ...

(٢١) الضيغم : الأسد والمراد بأدنى ضيغم : أدون وأخس ، وأدنى إلى شرف :
أقرب ، والعوالي : صدور الرماح ، والمزان : الرماح اللينة ، والسكاة جمع كمي وهو
البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول : خير الأمر ما قد تدبرت أقوله فعرفت إلام تؤل عاقبته ، وشره
ما ترك النظر في أوله ، وتتبع أواخره بالنظر

(٤) يقول : إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبينت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه .

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كالمثاني في إعطاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه...

وسأل أبو علي البصيرُ بعضَ الأمراء حاجة: فقال له: رُحْ إلى وقتِ العصر، فجاء وقتَ الظهر، فقال: ألم أعدك وقتَ العصر؟ فقال: نعم، ولكن رأيتُ الإفراطَ في الاستظهارِ أحمدَ من الاستظهارِ في التواني... والاستظهارُ هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق.

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهيبة خيبة والفرصة تمرُّ مرَّ السحاب... وقالوا: انتَهَزَ الفرصة قبل أن تعودَ غُصَّة. وقالوا: الافتراضُ افتِناص...

عقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بنُ معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية - :

إذا كنتَ في حاجة مُرسِلاً	فأرسلْ حَكِيماً ولا تُوصِه
وإنْ بابُ أمرٍ عليك التَّوَي	فشاوِرْ كَبِيباً ولا تَعَصِه
ولا تَنطِقِ الدهرَ في مجلس	حديثاً إذا أنتَ لم تُحَصِه
ونصَّ الحديثَ إلى أهله	فإنَّ الوثيقةَ في نصِّه ^(١)
وإنْ ناصحٌ منك يوماً دنا	فلا تنأَ عنه ولا تُقَصِه
وكم من قتي شاحص عقله	وقد تعجَّبُ العينُ من شخصِه
وآخرَ تحسَّبه جاهلاً	ويأتيك بالامرِ من فِصِه ^(٢)

(١) نص الحديث: رفعه وأسنده؛ والوثيقة في الامر: لإحكامه والاخذ بالثقة

(٢) فص الامر: أصله وحقيقته تقول: أنا آتيك بالامر من فِصِه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابن المقفع : لَا يُقْدَفَنَّ فِي رُوعِكَ أَنَّكَ إِذَا اسْتَشَرْتَ الرِّجَالَ
ظَهَرَ لِلنَّاسِ مِنْكَ الْحَاجَةُ إِلَى رَأْيِ غَيْرِكَ فَتَنْقَطِعَ بِذَلِكَ عَنِ الْمَشُورَةِ ، فَإِنَّكَ
لَا تَرِيدُ الرَّأْيَ لِلْفَخْرِ وَلَكِنْ لِلانْتِفَاعِ بِهِ ، وَلَوْ أَنَّكَ أَرَدْتَ الذِّكْرَ لَكَانَ
أَحْسَنُ الذِّكْرِ عِنْدَ الْأَبْيَاءِ أَنْ يُقَالَ : لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِهِ دُونَ ذَوِي الرَّأْيِ
مِنْ إِخْوَانِهِ ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قُرَيْشٍ فِي غَزَاةٍ بِذُرٍّ نَزَلَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذْنَى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ بِذُرٍّ ، فَقَالَ لَهُ الْحَبَّابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ
اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمْزِلُ أَنْزَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ لَنَا
أَنْ تَقْدَمَهُ وَلَا أَنْ تَتَأَخَّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ :
« بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ » ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنْ هَذَا
لَيْسَ لَكَ بِمَنْزِلٍ ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَذْنَى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ الْقَوْمِ فَنَنْزِلَهُ ،
ثُمَّ نَقْوَرُ^(١) مَا سِوَاهُ مِنَ الْقُلُوبِ ، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَأُهُ مَاءً ، ثُمَّ
نُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَتَشْرَبَ وَلَا يَشْرَبُوا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« لَقَدْ أَثَرْتُ بِالرَّأْيِ » وَفَعَلَ مَا أَشَارَ بِهِ الْحَبَّابُ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... « أَقُولُ : وَإِنَّمَا كَانَ يَشَاوِرُهُمْ — كَمَا قَالَ
عَلَاؤُنَا — فِيمَا لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ ، وَفِي أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ كَانَ
يَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ فَقَدْ غَفَلَ غَفْلَةً عَظِيمَةً كَمَا قَالَ الْأَنْثَمَةُ ، وَكَذَلِكَ إِنَّمَا
كَانَتِ الْمَشَاوَرَةُ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ ، فَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ لَمْ يَكُنْ لِبَشِيرِ التَّقْدُمِ
عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : فَلَقَدْ شَاوَرَ النَّبِيَّ أَصْحَابُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فِي الْمَقَامِ

(١) عور الركبة : كبسها بالتراب حتى تفسد عيونها

والخروج ، فأوَّاه الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيمَ بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبسَ لأمته ^(١) فلما لبسها ندِموا وقالوا : يا رسول الله أقمْ فالرأي رأيتك ، فلم يمل إليهم بعد العزم وقال : لا ينبغي لنبي يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله ... وكذلك كان الخلفاء الراشدون يستشيرون الأمراء من أهل العلم في الأمور التي لم يكن فيها نصُّ بحكم معين ليأخذوا بأمرها ، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يقضى به قضى وإلا دعا رؤس المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الرومُ والفرسُ لا يجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به : وذلك لعمانٍ منها أن لا يقع بين المستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي وصحة النظر ، لأن من طباع المشركين في الأمر التناقض والتغالب والطعن من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدهم بالرأي الصواب وسبق إليه فحسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتّهجين وكدروه وأفسدوا ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة ولذلك قالت الفرس : إنما يراد الاجتماع والكثرة والتأصُّر في الأمور التي يحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمور الغائصة فإن الاجتماع يفسيدها ويؤلِّد فيها التضاعن والتناقض ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشار وزراءه له ، فقال أحدهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزاة كما يزداد البحر بموآده من الأنهار وينال بالحزم والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ؛ وللأسرار منازل : منها ما يدخل الرهط فيه ، ومنها ما يستعان فيه بقوم ، ومنها ما يستغنى فيه بواحد وفى تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل ، والمستشير وإن كان أفضل رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالسليط ضوئاً^(١) ؛ وإن كان الملك محصناً لسره بعيداً من أن يعرف ما فى نفسه متخيراً للوزراء مهيئاً فى أنفس العامة كافياً بحسن البلاء لا يخافه البريء ولا يأمنه المريب مقدراً لما يفيد وينفق ، كان خليقاً لبقاؤ ملكه . ولا يصلح لسرنا هذا إلا لسانان وأربع آذان . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أدل منها فى هذه الأجيال وشال أمرها فى الميزان ، ورجحت كفة الشورى ونفقت سوتها ، وخطت فى عصرنا هذا خطوات رغبة موفقة ، وعمت أكثر الأمم التى أعزقت فى الحضارة ، وظهر أن مجالس الشورى على علاتها هى خير ألوان الحكم ، ومن الذى يقول إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذى لا رقة عليه هو أفضل من الشورى أياً كان لونها اللهم إلا رجُل أحق مأفون ليس بثاقب الرأى ، وإذا كانت الشورى لا تعرى من العيوب فأين لا أين الخير مخضاً والكمال صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عبقریاتهم فی الوعظ

والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر

ومما يتصل بهذا الباب عبقریاتهم فی الوعظ والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، فلنورد لك صدرًا من ذلك إن شاء الله

نهی من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعلی بن أبی طالب رضی الله عنه : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال :
تَوَقَّ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضی الله عنه فقال : لئنني أريد أن أعظ ، فقال : أَوْبَلَّغْتَ ذلك ! إن لم تخش أن تفزع بشلاط آيات من كتاب الله فافعل ، قال : ما هي ؟ قال : قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ! كُبرَ مَقْتًا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وقوله تعالى : « وأنامرون الناس بالبرّ وتلدسون أنفُسكم » ، وقول العبد الصالح شُعيب « ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » أَلَحَكَمْتَ هذه الآيات ؟ قال : لا ، قال : فابدأ إذن بنفسك .

وقال شاعر :

يا وادِّظْ الناسَ قد أصبَحْتَ مُتَّهِمًا إذ عِبتَ منهم أمورًا أنت تأتِها
كَمَنْ كَسَا الناسَ مِن عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ للناسِ باديةٌ ما إنْ يُوارِها

حشهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلقِّنُك الحِكْمَةَ تلقينًا ، إنما الحكيم

الذى يعمل العقل الحكيم فتقتدى به .
 وقال آخر ؛ أخذ المرء نفسه بحسن الأدب تأديب لأهله .
 ومن هذا يقول محمود الوراق :
 رأيت صلاح المرء يصلاح أهله ويُعديهم داء الفساد إذا فسد

اللطيف واللين في الوعظ

تصدى رجل للرشد فقال : إننى أريد أن أغظ عليك في المقال ،
 فهل أنت محتمل ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خير منك إلى
 من كان شرًا منى ، وأمره باللين ، فقال تعالى : « فقول له قولاً ليناً لعله
 يتذكر أو يخشى ،

وقالوا : واجب من يعظ أن لا يعنف ، ومن يؤعظ أن لا يأنف

الحث على الاتعاظ

قالوا : السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ به غيره . وقالوا :
 من لم يتعظ بغيره وعظ الله به غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لا يتنجح الوعظ في الملوب القاسية ، كما لا يزكو البذر في
 الأرض الجاسية .

وقالوا : صفة لك سيفاً ليس له سنخ^(١) تعب ، وبذر لك أرضاً
 سبخة نصب .

(١) السنخ : الأصل من كل شيء . تقول : رجع فلان إلى سنخه المكرم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من 'استثقل سماع الحق فهو للعمل به أكثر استثقالا ...

حشهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يمتنعنكم سوء ما تعملون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا .

وورد في الآثار : مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به ، وإنهوا عن المنكر وإن لم تلتزموا عنه :

وقال الحسن البصري^١ يوماً لبعض الصالحين : عِظ أصحابك ، فقال له : إني أخاف أن أقول ما لا أفعل ، فقال له : يَرْتَحِمُكَ اللهُ ، وأثابنا يقول ما يفعل ! يؤذ الشيطان أنه ظفِرَ بهذه منك فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينه عن منكر ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إياك والاقتداء بزلات أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : فلان شرب النيد ، وفلان سمع الغناء ، وفلان لعب بالشطرنج فيخرج منك فاسق تامم ... وقالوا : من أخذ برخصة كل فقيه خرج منه فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(١)

(١) قال الإمام البيضاوي في تفسيره : من في منكم للنبعوض لانت الامر

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ عَمَّهِمُ اللَّهُ
بِعِقَابِهِ .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضرركم ... الآية : أى لا يضرُّكم الضلال إذا كنتم
مُهْتَدِينَ ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَجَسَّرُونَ عَلَى الْكُفْرَةِ وَيَتَمَنُّونَ إِيْمَانَهُمْ ، وَقِيلَ
كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ قَالُوا لَهُ : سَفَّهْتَ آبَاءَكَ ، فَنَزَلَتْ «

وقال الراغب الأصبهاني : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، وإذا رأيتم
شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ أَمْرٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَوِّ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالأحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أئموا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيذان بفضله

وَدَعَ أَمْرَ الْعَوَامِ ^(١) ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل موضع ، لكن من علم أوطن أن قوله يَنْفُذُ وأن لا يئأله مكروه إذا أمر أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خاف على نفسه فعليه أن يُنْكَرَ المنكر بقلبه دون لسانه ...

—

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الأعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الأعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجه وانبعائه؛ وهو فضيلةٌ عليا ما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلا ذو حظٍ عظيم^(١) ومن كلام النبوة: كادَ الحلم أن يكون نبياً. وهو نتاج العقل والآلة، أو قل: إنه هُما. قال عزّ وجلّ: يَذُمُّ الْكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا»، وسأل عليّ رضي الله عنه كبيرَ فارسٍ عن الغالبِ كان على كِسْرَى أنو شروان؛ قال: الحلم والآلة، قال: هما توأمان يَبْتَجِهُمَا تُلَوُّ الهِمَّةُ وقال الشاعر:

لَنْ يَذْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذِلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لَا قَوَامَ

وَيُسْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً . لَا صَفْحَ ذَلٍّ وَلَكِنْ صَفْحَ أَحْلَامٍ^(٢)

(١) آية كريمة هي: «وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

(٢) مسفرة: مشرقة مضيئة. سرورا

قالوا : وإن يَتَمَّ حِلْمُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِإِمْسَاكِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا : الْيَدِ عَنِ الْبَطْشِ ، وَاللِّسَانِ عَنِ الْفُحْشِ ، وَالْعَيْنِ عَنِ النَّظَرِ الشَّرِّ ، وَأَقْرَبُ لَفْظٍ يُقَابِلُ الْحِلْمَ هُوَ التَّذَمُّرُ . وَقَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَمِنْ أَشْرَفِ نُعُوتِ الْإِنْسَانِ أَنْ يُدْعَى حَلِيمًا ، لِأَنَّهُ لَا يُدْعَاهُ حَتَّى يَكُونَ عَاقِلًا وَعَالِمًا وَبُصْطَرِيحًا وَعَفْوًا وَصَاحِبًا وَمَحْتَمَلًا وَكَاطِلًا ، وَهَذِهِ شَرَائِفُ الْأَخْلَاقِ وَكَرَامُ السَّجَايَا وَالْخِصَالِ .
وَالْحِلْمُ : مِنْهُ مَا هُوَ غَرِيزِيٌّ ، وَهُوَ هَبَّةٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ يَعْفُو عَنْ ظُلْمِهِ ، وَيَصِلُ مِنْ قِطَاعِهِ ، وَيُجَسِّنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، يَصْدُرُ فِي ذَلِكَ عَنْ نَحِيْزَةِ كَرِيْمَةٍ وَغَرِيزَةٍ سَالِمَةٍ وَصَدْرٍ سَالِمٍ مِنَ الْغَوَائِلِ وَالْأَذَى ، صَافٍ مِنْ شَوَائِبِ الْكَدْرِ وَالْقَذَى ، وَهَذَا هُوَ الْحِلْمُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ تَعْلَمُهُ وَلَا يُكْتَسَبُ تَحَلُّمًا :

وَإِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طِبَاعٍ لَمْ يُحَلِّمْ تَقَادُمُ الْمِيلَادِ [الْمُنْتَبِئُ]
رَوَى أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِأَشْجَعِ عَبْدِ الْقَيْسِ : يَا أَبَا الْمُنْدَرِ ، إِنَّ فِيكَ تَحْصُلَتَيْنِ يَرْضَاهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحِلْمُ وَالْإِنَانَةُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِ شَيْءٌ جَبَلَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ اخْتَرَعْتُهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي ؟ قَالَ : « بَلْ شَيْءٌ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقِي يَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .
وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ : إِنْ الْحِلْمَ لَيْسَ غَرِيزَةً وَلَا طَبِيعَةً بَلْ مُكْتَسَبٌ مُسْتَفَادٌ : وَأَيُّكَانَ الْحَالُ فَلَيْسَ مِنْ يُنْكِرُ أَنَّ مِنَ الْحِلْمِ مَا هُوَ غَرِيزِيٌّ كَمَا قُلْنَا ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ حَلِيمًا يُكْتَسَبُ بِالتَّحَلُّمِ كَمَا أَنَّ الْعَلَمَ بِالتَّعَلُّمِ

قَالَ حَاتِمٌ :

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبْقِ وَدَّهْمَ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلِّمَ
يُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْنَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لَأَتَعَلَّمَ عَلَيْهِ الْحِلْمَ ...

وقال الشاعر :

وليس يَتِمُّ الْحِلْمُ لِلرَّءِ رَاضِيًا إِذَا هُوَ عِنْدَ الشُّحِّطِ لَمْ يَتَحَلَّمْ
كَمَا لَا يَتِمُّ الْجُودُ لِلرَّءِ مُوسِرًا إِذَا هُوَ عِنْدَ الْقَسْرِ لَمْ يَتَحَشَّمْ
[يَتَحَشَّمُ : يَنْدَمُّ وَيَسْتَحْيِي]

وهناك حلم حادث عن الكِبَرِ والعَجَرَةِ ، لَا يَرَى الْمُسِيءَ أَهْلًا أَنْ
يُجَارِيَهُ ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ حِلْمٌ مَهَانَةٌ وَذِلَّةٌ وَعِزٌّ وَغَضَبٌ نَفْسٍ وَصِغَرُ هِمَّةٍ

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مِهْيَارُ الدَّيْلِيِّ :

وَإِذَا الْإِبَاءُ الْمُرُّ قَالَ لَكَ : انْتَقِمْ قَالَتْ خَلَانِقُكَ الْكَرَامُ : بَلِ أَحْلَمُ
شَرُّعٍ مِنَ الْعَفْوِ انْفَرَدَتْ بِدِينِهِ وَفَضِيلَةُ إِسْوَاكَ لَمْ تَتَقَدَّمْ
حَتَّى لَقَدْ وَدَّ الْبَرِيُّ لَوْ أَنَّهُ أَذَلَّ إِلَيْكَ بِفَضْلِ جَاءِ الْمُجْرِمِ
وقال بعضهم :

فَدَهَرَهُ يَصْفَحُ عَنْ قُدْرَةٍ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ عَلَى عِلْمِهِ
كَأَنَّهُ يَأْتِفُ مَنْ أَنْ يَرَى ذَنْبَ امْرِئٍ أَعْظَمَ مِنْ حِلْمِهِ

وقال المتنبي :

وَأَحْلَمُ عَنْ يَخْلَى وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزَاهُ حِلْمًا عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمُ
وقال سالم بن واَيْصَةَ^(١) :

(١) شاعر إسلامي تابعي ، وهو صاحب هذه الايات : - وهي من أبيات الحماسة

أَحِبُّ الْفَتَى يَنْفِي الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاخِشَةٍ وَقَرَأَ

وَنِيرَبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَنْتَاتُ لِحْمِي وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ^(١)
 دَاوَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غِمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلا جَلَمٍ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْخَيْرِ أَسْدِيهِ وَالْحِمَّةُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْعَ مِنْ رَحِمٍ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْبِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسْكِتِيْمٍ^(٤)
 وَإِنِّي فِي الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ
 وَقَالَ بَعْنُ بْنُ أَوْسٍ الْمُرَنِّي: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِيهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

سَلِيمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسْطِطَاءِ أَذَى وَلَا مَانَعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شَدَّتْ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُسْكِرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًا
 إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَسَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِزَلَّتِهِ عُذْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَنْةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَلِكَ الْغِنَى فَقْرًا

(١) النيرب: الشر والنيمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم
 يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يغتابنى ويأكل لحي ولا يشفيه ذلك
 من قرم، ويقعات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول:
 صابرتي على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى.
 وحقدًا: أى حاقدا وداويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بداويت أو قلبت وقوله: تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما
 لم يرع من رحم: يرجع إلى الحمة

(٤) يقول: ما زلت أنلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار
 يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادبنى مكاشرة

(٥) شاعر غل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طوييلة

تراها فى الامالى ج ٢

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وَكَلِمَاتٍ عِنْدِي أَنْ يَحُلَّ بِهِ الرِّغْمُ (١)
وَيَشْتِمُ عِرْضِي فِي الْمَغْيِبِ جَاهِدًا وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتْمٌ
إِذَا سُمِّتُهُ وَضَلَّ الْقَرَابَةَ سَامِنِي قَطِيعَتَهَا ، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ
فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسِي لَهُ وَتَعْطَانِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأَثْمُ
وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِيْبُنِي

وَكُظْمِي عَلَى غَيْظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ (٢)
لَأَسْتَلَّ مِنْهُ الضُّغْنَ حَتَّى اسْتَلَمْتُهُ وَقَدْ كَانَ ذَا ضَغْنٍ يَضِيئُ بِهِ الْحَزْمُ
فَدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَنْتُ نِفَارُهُ نَعْدُنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمُ (٣)
وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمُ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

لَقَدْ أَسْمِعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كُلُّهُ نَذَرُ نِيهِ النَّفْسِ قَلْبِي يُصَدِّعُ
فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنِّي مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرَكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَذْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كَظْمًا : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ وَتَجَرَّعَهُ . قَالَ تَبَالَى :
« وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ » قَالَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ : يَعْنِي أَعَدَّتِ الْجَنَّةُ لِلَّذِينَ جَرَى
ذِكْرُهُمْ وَلِلَّذِينَ يَكْظِمُونَ الْغَيْظَ »

(١) الرِّغْمُ : الدَّلُّ وَالْقَسْرُ

(٢) رَابَهُ فَلَانُ وَأَرَابَهُ : إِذَا رَأَى مِنْهُ مَا يَكْرَهُ

(٣) ارْفَأَنْتُ : سَكَنْتُ مَا خُذْتُ مِنْ رِفَا الثُّوبِ : لَأَمْ خَرَقَهُ وَضَعْتُ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ

وفي الحديث : « مامن جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله عز وجل »

وقالوا : السكظم يدفع محذور الندم ، كالماء يطفئ حر الضرم
وقال بعضهم : كظم يتردد في خلق أحب إلى من نقص أجده في
خلق .

وقال : * وأفضل حلم حسبة حلم مغضب *
وقال معاوية : ما وجدت لذة هي عندي ألد من غيظ أتجرعه وسفه
بحلم أقمعه . وقال لابنه يزيد : عليك بالحلم والاحتمال حتى تمسكتك الفرصة
إذا أمكنتك فعليك بالصفح ، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور ، ويقيك
مصارع المحذور

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مثل الغضب مثل نار ما يشتعل ، والناس فيه مختلفون ،
فبعضهم كالخلفاء^(١) سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضا^(٢) بطيء الوقود
بطيء الخمود ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم على العكس من
ذلك ، وهو أحمدهم ، ما لم يؤديه ذلك إلى زوال حقيقته ، وفقدان غيظته .
واختلاف الناس في الغضب قد يكون مرده اختلاف الأزجة ، وقد يكون

(١) الخلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والحوص : يذب في
مغايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصاب الخشب وجره بقي زمناً طويلاً
لا يطفئ الواحدة منه غضاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من سَجَرَاءِ إِنْفِهِ الذَّلِّ والانتقِاذَ والاستِخْذاءَ ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتدُّ من أدنى ما يُلمَّ به ، مَثَلُهُ مَثَلُ كَلْبٍ يَسْمَعُ صَوْتًا فَيَبْجَحُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَصْدَرَهُ ، وأكثر الناس غضباً الصبيانُ والنساءُ ، وأكثرُهم ضَجَرًا الشيوخُ ، وأجل الناس شجاعةً وأفضلهم مجاهدةً وأعظمهم قوَّةً من كظَمِ الغيظِ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديدُ بالضَّرْعَةِ ، إنما الشديدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغضبِ ، ومرَّ صلوات الله عليه بقوم يرفقون سَجَرًا فقال : (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بأشدَّكم ؟ : من مَلَكَ نَفْسَهُ عند الغضبِ) واعلم أن نارَ الغضبِ متى كانت عَنيفَةً تَأْجِجَتْ واضطربت واحتدَّ غَلْيَانُ الدَّمِ فِي الْقَلْبِ وامتلات الشرايينُ والدماغُ دُخَانًا مُظْلِمًا يَسُوهُ مِنْهُ حَالُ الْعَقْلِ وَيَضْعُفُ فِعْلُهُ ، وكما أن الكَهْفَ الضيقَ إذا امتلأ حريقًا واختنقَ فِيهِ اللَّهَبُ والدُخَانُ وعلَا الاجْيِيجُ صَعَبَ علاجه وإطفائه ، وصار كل ما يَدْنُو مِنْهُ مَادَّةٌ لِقَوْتِهِ ، كذلك النفسُ إذا اشتعلت غضبًا عَمِيَتْ عن الرشدِ وصمَّتْ عن الموعظةِ حتى تصيرَ المواقظَ مَادَّةً لَغَضَبِهَا ، وربما أدَّى الغضبُ إِلَى تَلَفٍ ، وهو اختِنَاقُ الْحَرَارَةِ فِي الْقَلْبِ الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِمَرَضٍ مُسْتَعْصِيَةٍ تُؤَدِّي إِلَى التَّلَفِ ؛ ثُمَّ قَالَ وَحَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِ الْغَضَبُ أَنْ يُفَكِّرَ ، فَإِنْ كَانَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ تَحْتَ يَدِهِ فَلَا مَعْنَى لاسْتِشَاظِهِ ؛ إِذْ هُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنَ الْإِتْقَامِ مِنْهُ مَعَ سُكُونِ الْجَاشِ ، وَإِنْ كَانَ غَضَبُهُ عَلَى مَنْ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ فَلَا مَعْنَى لَتَعْدِيهِ نَفْسَهُ فِي الْوَقْتِ وَإِنَّمَا الْأَخْلُقُ بِهِ أَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يَتِمَكَّنَ مِنْهُ ثُمَّ يَفْعَلَ الْوَاجِبَ ، قَالَ حَكِيمٌ : سُدَّ طَرِيقَ الْغَضَبِ قَبْلَ تَلْهِبِ نَارِهِ فِي لَحْمِكَ وَدِمِكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُنْفِئْ نَارَ الْغَضَبِ

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر . وقال بعض الملوك الحكيم : كيف لي أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون كل وقت ذا كراً أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع فقط ، وأن تُخذم لا أن تُخدم فقط ، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فدات ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قائلاً ...

وقالوا : مَنْ غَضِبَ قائماً فَعَدَّ سَكَنَ غَضَبِهِ ، وإن كان قاعداً فاضطجع سَكَنَ .

وكانت العرب تقول : إِنَّ الرَّيْثَةَ تَفْقَأُ الْغَضَبَ : « الرَيْثَةُ : اللبنُ الحامضُ يُصْبُ عليه الحليب ، وهو أطيبُ اللبن ، وَتَفْقَأُ الْغَضَبَ : تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ ، وخطب معاوية يوماً فقال له رجلٌ : كَذَبْتَ ، فنزل مُغَضَباً ، فدخل منزله ، ثم خرج عليهم تَقَطَّرُ لَحِيَّتُهُ مَاءً ، فصعد المنبرَ فقال : أيها الناس ، إن الغضبَ من الشيطان ، وإن الشيطانَ من النار ، فإذا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُطْفِئْهُ بالماء ؛ ثم أخذ في الموضع الذي بلغه من حُطْبَتِهِ .

وفي الحديث : إن الغضبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى جَمْرَةٍ عَيْنِيهِ وَاتْفَاخَ أَوْدَاجِهِ ...

من اجتهد في إغضابه فلم

خَاطَرَ رَجُلٌ آخَرَ ^(١) عَلَى أَنْ يُغَضِبَ الْأَخْنَفَ بْنَ قَيْسٍ ، فجاءه فخطب إليه أمه ، فقال : لَسْنَا نَرُدُّكَ انتِقاصاً لِحَسْبِكَ ، وَلَا قِلَّةَ رَغْبَةٍ فِي مُصَاهَرَتِكَ وَلَكِنَّا امْرَأَةٌ قَدْ عَلَا سِنُّهَا ، وَأَنْتَ تَحْتَاجُ إِلَى امْرَأَةٍ وَلَوْ دُوْدٌ تَأْخُذُ مِنْ خُلُقِكَ ، وَتَسْتَمِدُّ مِنْ أَدَبِكَ ؛ أَرْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُغَضِبْنِي .

(١) يقال : خاطره على الأمر : رآه عليه .

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال . ما الذى رغبك فيها وهى عجوز ؟ فقال . إنها عجوز عنايمة العجز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تغضب سيّد بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : أرجع فلست به .

وسمّى رجلٌ الأحنف وألحّ عليه ، فلما فرغ قال له : يا بن أخى ، هل لك فى الغداء ؟ فإنك منذ اليوم تحذو بحمّلٍ فقال ... « الثفال : البطيء الثقل الذى لا ينبعث إلا كرهاً »

وروى أن رجلاً خاطر آخر على أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفّله ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ما أشبهه عجيزتك بعجيزة أمك هند ! ففعل ذلك ، فلما انفتل معاوية عن صلاته قال له : يا أخى ، إن أباسفیان كان محتاجاً إلى ذلك منها ؛ فخذ ما جعلوه لك ، فأخذه ثم خاطره آخر بعد ذلك أن يقوم إلى زياد وهو فى الخطبة فيقول : أيها الأمير من أمك ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُخبرك — وأشار إلى صاحب الشرطة — قدّمه وضرب عنقه ، فلما باغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيرى ، واو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية ...

وقيل للأحنف : بمنّ أعلّمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم المنقرى ، رأيتُه قاعداً بفناء داره مُحْتَبِياً بجهايل سيفه يُحدّث قومه ، حتى أتى بمكتوف ورجلٍ مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك : قال : فوالله ما حلّ حُبّوته ولا قطع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال : يا ابن أخى أئمتَ ربّك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك ؛ ثم قال لابن له آخر : قم يا بنى فوار أخاك وحلّ كتاب ابن عمك وسقّ إلى أمك

مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة ، ثم اتسكا على شقة الأيسر وقال :
 إني امرؤ لا يستري خلقي دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ وَلَا أَفْنُ (١)
 مِنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتٍ مَسْكُومَةٍ وَالْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغُصْنُ
 خُطَبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ بِيضُ الْوَجْهِ أَعْفَةُ لُسْنُ
 لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْوَا لِحِفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك
 إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان فأنا لك اليوم ماتناله
 متى غدا ، انصرف إذا شئت ...

وأمر محمد بن سليمان برجل أن يطرح من القصر كان قد غضب
 عليه فقال الرجل : اتقى الله ، فقال : خالوا سيده ، فإنى كرهت أن أكون
 من الذين قال الله فيهم : « وإذا قيل له اتقى الله أخذته العزة بالإثم »

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياك وعزة الغضب فإنها تصيرُ بك إلى ذلة الاعتذار
 وقال شاعر :

مَتَى تُرِيدَ الشَّفَاءَ لِكُلِّ غَيْظٍ تَكُنْ مِمَّا يَغِيظُكَ فِي ازْدِيَادٍ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إني امرؤ لا يطبى حسبي دَنَسٌ يُهَيِّجُهُ وَلَا أَفْنُ

اطباء : دعاه ، والافن : النقص ، ويفنده : يكذبه

حَثَمَ عَلَى التَّصَامَمِ عَنِ الْقَبِيحِ وَتَمَدُّحُهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلب بن أبي صفرة: إذا سمع أحدكم العوراء فليطأطأ لها
تَمَخَّطَاهُ ... «العوراء: الكلمة القبيحة أو الفجلة القبيحة: ويقال للكلمة
القبيحة عوراء، وللکلمة الحسنة عينا» قال الشاعر:

وعوراء جاءت من أخٍ فَرَدَدْتُهَا بِسَالِمَةِ الْعَيْنَيْنِ طَالِبَةً عُذْرًا
«بسالة العينين: أى بكلمة حسنة لم تكن عوراء. وعوران الكلام:
ما تنفيه الأذن قال:

وعوراء قد قيلت فلم أَسْمِعْهَا وما السكلمُ العورانُ لى بقتول^(١)
وقال حاتم طي:

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادْخَارَهُ وَأَعْرِضُ عَنْ شَتَمِ اللَّيْمِ تَكْرُمًا^(٢)
وقال ابن علقمة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه محملة:
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذلٍ ولو شاء لانتصر
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة.

حَثَمَ عَلَى الْعَفْوِ مطلقاً

قال الله جل شأنه: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ،
والله غفور رحيم»، وقال سبحانه: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»،

(١) وصف الكلام بالعوران لأنه جمع وأخبر عنه بالفتول وهو واحد لأن الكلام
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء.
(٢) ادخاره: أى لا دخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خُذِ
الْعَفْوَ ، فَالْعَفْوُ : السَّهْلُ الْمَيْسَرُ والمعنى : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ واقْبَلْ مِنْهَا
مَا سَهْلٌ وَتيسّر ولا تستقصِ عليهم فَيَسْتَقْصِي الله عليك مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حقّق سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقّه : (وإنك لَعَلَى خُلَاتِي عَظِيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وَحِمَّةُ الْأَرْغَادِ ، قيل : وما حِمَّتُهُمْ
قال : يَرُونَ الْعَفْوَ مَغْرَمًا وَالتَّحَمُّلَ مَغْنَمًا ... « التحمل دهنًا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل ،
وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...
وقالوا : لَذَّةُ الْعَفْوِ أَطْيَبُ مِنْ لَذَّةِ النَّشْتِ ؛ لأن لذة العفو يلحقها حمد
الماقبّة ، وَلَذَّةُ النَّشْتِ يَلْحَقُهَا ذَمُّ النَّدَمِ ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَعَيْنَ الْإِنْسَانِ عَدْلٍ أَشْفَى مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ
هَذِهِ تَكْسِبُ الْحَامِدَ وَالْأَجْرَ وَهَذِهِ تَجِيءُ بِالْآثَامِ

التحمل عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : أَنْفَسِدْ
أَدَبَكَ بِأَدَبِهِ ! فلم يرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليحيى بن خالد البرمكى : إنك لا تؤدّبُ غلمانك ولا تضربهم !
قال : هم أمتاؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأتمهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرَّم أَصْلَهُ لَان قَلْبُهُ
وقالوا : مِن أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة
« الكرم نقيض اللؤم »
وفي الحديث الشريف « اَرْحَمُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ
وفيه أيضاً « لَا تُنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ شَقِيٍّ »
أما من ذَمَّ الرحمة ونعاهها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك
الزيات إذ يقول : الرحمة خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، ومثل غيره من فلاسفة هذا
الجيل كالفيلسوف نيتشه وَمَنْ عَلَى شَاكَلَتِهِ فَأَوْلُوكَ إِنَّمَا يَتْرَامُونَ إِلَى
أَهْدَافٍ أُخْرَى ، وإلى مدح القُوَّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك
عقيرياتهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار وما يُستقبح

أغلظ رجلٌ لمعاويةَ فحلم عنه ، فقليل له : تحلمُ عن هذا ! فقال : إني
لا أحولُ بين الناس وبين أَسْلَمَتِهِمْ مالم يحولوا بيننا وبين سُلْطَانَتِنَا ... وقال
المأمونُ : يحْمَلُ الحلمُ بالملوك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذِيعٍ لِسِرِّ ، ومُتَعَرِّضٍ
للْحَرَمِ ، وقَادِحٍ فِي مُلْكٍ ... « حُرِّمَ الرَّجُلُ : عِيَالُهُ وَنَسَاؤُهُ وَمَا يَحْمِيهِ »

وقال السقاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إِلَّا مَا أَوْضَعَ الدِّينَ وَالسُّلْطَانُ .

حشهم على درء الحدود

في الحديث الشريف : « آذَرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنِيلُوا الْكِرَامَ عَثَرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، »
« ادرؤا : ادفعوا ، والحدود جمع حد ، وهو لغة ، المنع وشرعا : العقوبة التي جعلت لمن يعترف مانهى عنه كحد السارق ، وهو قطع يمينه في ربع دينار فصاعداً ، وحد الزاني البكر وهو سجلده مائة وتغريه عاماً ، وحد المصحن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تحد : أى تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها ^(١) ، والشُّبُهَات جمع شبهة وهى الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبهت ، أى التبتت لاشتباه بعضها ببعض ، والعثرات : الزلات والكرام : خيار الناس ووجوههم حسباً ونسباً وعلماً ودينياً وصلاحاً ، ومعنى أقبلوا عثراتهم : لا تعاقبهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا فى حد من حدود الله فإنه لا تجوز إقالتهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلاً ، ومعنى ادرؤا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وجدتم السبيل على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمر متيقن لا يتطرق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشة رضى الله عنها : إِذَا مَلَكَتْ فَاسِّجِحْ » قالت ذلك لعل

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المعاصى قال تعالى : وتلك حدود الله

فلا تقربوها .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجَمَل حين ظهر على الناس فدنا من هَوْدَجِهَا ثم كلمها بكلام ، فأجابته : مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ ، أَيْ ظَفِرْتَ فَأَحْسِنْ وَقَدَرْتَ فَسَهِّلْ وَأَحْسِنِ الْعَفْوَ ، ففَهِزَهَا عِنْدَ ذَلِكَ بِأَحْسَنِ الْجَهَازِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَالِإِسْجَاحِ : حُسْنُ الْعَفْوِ ،

ومن كلمة لعللى رضى الله عنه : إِذَا قَدَرْتَ عَلَى الْعَدُوِّ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ سُكْرًا قَدَرْتَكَ .

وقالوا : الْمَقْدِيرَةُ تُذْهَبُ الْحَفِيزَةُ « الْحَفِيزَةُ : الْغَضَبُ ، وَقَوْلُهُمْ : إِنْ الْخَفَائِظُ تَذْهَبُ الْإِحْقَادُ فَمَعْنَاهُ : إِذَا رَأَيْتَ حَمِيمَكَ يُظْلَمُ حِمِيَّتَ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ فِي قَلْبِكَ حَقْدٌ ... وَظَفَرَ الْإِسْكَندَرُ الْمَقْدُونِيَّ بِيَعِضِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَصْنَعُ بِكَ ؟ قَالَ : مَا يَحْمِلُ بِالْكَرَامِ أَنْ يَصْنَعُوهُ إِذَا ظَفَرُوا ، نَخَلَّى سَبِيلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ .

ولما ظَفَرَ أَنُو شُرَوَانَ بِبُزُرُجْمَهَرَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَ نِيَّ بِكَ ، فَقَالَ : كَافِيَ مِنْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ بِمَا يُحِبُّ ... وَقِيلَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَعْفُوكَ عَنْ إِخْوَتِكَ عِنْدَ قَدَرَتِكَ رُفِعَ قَدْرُكَ ...

ذَمُّ الْمَتَشَفِّي مِنَ الْغَيْظِ

قال معاوية رضى الله عنه : الْعُقُوبَةُ الْأَمُّ حَالَاتِ ذِي الْقُدْرَةِ ... وقال حكيم : التَّشَفِّيُّ طَرَفٌ مِنَ الْجَزَعِ ، فَمَنْ رَضِيَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ إِلَّا سِتْرٌ رَقِيقٌ وَحِجَابٌ ضَعِيفٌ فَلْيَلْتَصِفْ ...

مدح من صفتح عن قدرة

قال الاخطل من أبيات يمدح بها بنى أمية :

شمس العداوة حتى يستتقاد لهم

وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا ^(١)

وقال أشجع السلي :

يعفو عن الذنب المظي - وليس يُعجزه انتصاره ^(٢)

صفحا عن الجاني علي - وقد أحاط به اقتداره

وقال المتنبي :

قتي لا تسلب القتلى يدها - ويسلب عفوه الأسرى الوثاقا

« يقول المتنبي : إذا قتل الممدوح قتيلاً لم يأخذ سلبه ، ترفعاً عن ذلك

ولكن عفوه يسلب أسراه أغلالهم وقبوضهم ، أى ينفو عنهم ويطلقهم »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لا نعتد بما لم نسمعه أذنك ، فإن السيد إذا خضر هيب وإذا

غاب أغيب .

وقال بعض الملوك : إنما تملك الأجساد دون النيات ، ونفخص

عن الأعمال لاعتن السرائر ... وقال البحتري :

إذا عدوك لم يظهر عداوته فما يضرك إن عاداك إسراراً

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستتقاد لهم : أى

حتى يؤخذ حقهم من اعتدى عليهم ، من قولهم ، استتقت الامير من القاتل فأقادلى

منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بالشرِّ فاعفُ تَكْرُمًا

وإن خَنَسُوا عنك الحديث فلا تَسَلْ^(٢)

« وإن دحسوا: قال ابن الأثير يريد: إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه .

وخنسوا الحديث يريد : واروه وغيبوه وأخروه عنك ،

العفو عمن سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، ويَزِلَّ وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنَيْتِهِ للأمين وقد عفا عنه :

قسماً وما أدلى إليك بِحُجَّةٍ إِلَّا التَّضَرُّعُ مِنْ حُجِّبٍ خَاشِعٍ

ما إن عَصَيْتُكَ وَالْغَوَاةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بَدِيْعٍ طَائِعٍ

وقال الفرزدق :

فلمستَ بما خُوذِ بِلُغْوٍ تَقُولُهُ إِذَا لَمْ تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعَرَائِمِ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقره أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استأمنه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في

إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحُورِي :

تناس ذنوبَ قومك إن حفظَ الذُّنُوبَ - إذا قدُمنَ - مِن الذنوب

العفو عن المقرِّ المعترف

قال بعضهم :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك فلم تُغفرْ له ، فلك الذنبُ

ومن قولهم : التوبة تغسل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عتَبَ مع إقرار ، ولا ذنبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكرَ ذنباً : إما أن تُقرَّ بذنبك فيكونَ

إقرارُكَ حُجَّةً لنا في العفو ، وإلا فطُبْ نفسك بالانتصار منك ، فإن الشاعر

يقول :

أقرِرْ بذنبِكَ ثم آطُبْ تجاوزَنا عنه فإنَّ جحودَ الذنبِ ذُنُوبَانِ

ومن كلام لابن المعتز : تجاوزَ عَنْ مُذْنِبٍ لم يَسْلُكْ بالإقرار طريقاً

حتى اتخذ من رجائِكَ رقيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبة : بلغني أَنَّكَ تُبَغِضُنِي ، فلم يُنكرِ

الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كاللّنيا نذُثمُ صُروفَها وُوسِدُها ذَمًّا ونحنُ عبيدُها

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافَ عَنِ الذُّنُوبِ بِ وَجَدَتْهَا فِينَا كَثِيرَةً^(١)

لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَيَّةَ سَلَّةٌ أَنْ تَغُضَّ عَنِ الْجَرِيرَةِ^(٢)

وَقَالَ السَّرِيُّ الرَّفَاءُ :

فَإِنْ تَغُضَّ عَنِّي تَغُضَّ عَنْ غَيْرِ جَاحِدٍ

لِمَا كَانَ وَالْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ أَرْوَحُ

وَقَالَ آخَرُ :

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبِيدِ هَذَا وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوَالِي عَفَا

وَقَالَ غَيْرُهُ :

صَفْحًا فَلَوْ شَقَّ قَلْبِي عَنْ صَحِيفَتِهِ لَظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدَمُ

وَأُنَى أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ بَرَجُلٍ أَذْنَبَ . فَقَالَ : إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالْإِحْسَانِ : فَإِنْ أَخَذْتَ فِي غَيْرِي بِالْعَدْلِ تَخَذُ فِيَّ بِالْإِحْسَانِ ...

حسن العفو عن المصير

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ : ذَنْبُ الْإِصْرَارِ ، أَوْلَى بِالْإِغْتِنَارِ ؛ فَقَالَ :

صَدَقَ وَاللَّهِ ، لَيْسَ فَضْلُ مَنْ عَفَا عَنْ السَّهْوِ الْقَلِيلِ كَمَنْ عَفَا عَنْ الْعَمْدِ

الْجَلِيلِ ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ :

(١) تَجَافَى بِحَذَفٍ لِاحْدَى الثَّامِنِ أَيْ تَتَجَانَى وَتَتَجَانَى عَنِ الذُّنُوبِ : تَبْتَعِدُ وَتَغْضُ

الْطَّرْفَ عَنْهَا

(٢) الْجَرِيرَةُ : مَا يَجْرَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَنْبٍ

هَبْنِي أَسَاتُ كَمَا ظَنَنْتَ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْأُخُوَّةِ
وإذا أَسَاتُ كَمَا أَسَا تُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوءَةُ
وقال آخر :

وهَبْنِي — وما أَجْرَمْتُ — أَجْرَمْتُ كُلَّ مَا
أَتَاكَ بِهِ الْوَارِثِي يُجَدُّ بِاحْتِمَالِهِ
وقال الشعبي لِبَعْضِ الْوُلَادَةِ — وَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِي قَوْمٍ حَبَسْتَهُمْ — : إِنْ
حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ حَبَسْتَهُمْ بِحَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ ؛
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِمْ .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَانَةِ : لَا تُضِرَّ بَنِكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :
هَذَا خِلَافُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ النَّاسُ حَتَّى يَقْرَأُوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تُضِرُّنِي حَتَّى أُقَرَّ بِالْكَفْرِ الْخَفِيلِ وَعَفَا عَنْهُ .
وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجه الآمين من
الحبس ، وذكر الرشيد وفعله به قال : وَاللَّهِ إِنْ الْمُلُوكَ كَشَى مَا تَوَيْتَهُ
وَلَا تَمْنَيْتَهُ ، وَلَوْ أُرِدْتُهُ لَكُنَ إِلَى أَسْرَعِ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْحَدُورِ ^(١) ، وَمَنْ
النَّارَ إِلَى يَبِيسِ الْعَرْفَجِ ^(٢) ، وَإِنِّي لَمَأْخُودٌ بِمَا لَمْ أَجِنْ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا
لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَيْتُ بِالْمُلُوكِ قَيْنًا ، وَإِنْ لَمْ أَتَرَشَّحْ لَهُ فِي سِرِّ
وَلَا جَهْرِ ، وَرَأَيْتُ حَنِينَ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ مَيْلَ الْهَلُوكِ ^(٣)

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سهلي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبهة

عاقبتني عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حسبتني أني أصلح له ويصلح لي فليس ذلك ذنباً فأَتُوبَ منه .
وقال التَّوْحِي :
إن كان إقرارى بما لم أجنيه يُرضيك عنى قُلتُ لاني ظالمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غيب سماء فمرَّ برجل من بني يَشْكُرْ جالساً على غدير ماء ، فقال له : أتعرف النعمان ؟ قال اليَشْكُرِي : أليس ابن سَلَمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربما أمررتُ يدى على فرجها ، قال له : ويحك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبرتُك ، فما آنقضى كلامه حتى لحقته الخيل وحيَّوه بتحيَّة المَلِك ، فقال له : كيف قلت ؟ قال : أبيت اللَّعن ^(١) ، إنك والله ما رأيتَ شيئاً أكذبَ ولا ألامَ ولا أوضعَ ولا أعصَّ يبْظُرُ أمه ^(٢) من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوهُ ، فأنشأ يقول :

تغفو الملوكُ عن العظيِّم من الذنوبِ لفضْلِها
واقعد تُعاقِبُ في اليَسير ر وليس ذاك لجهْلِها
إلاَّ ليُعرفَ فضْلِها ويُخافُ شِدَّةُ نَكْلِها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فأنتهى إلى إعرابى ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحبها ماوكها في الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتى ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرْد من الخير
(٢) البظر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختن - ومن قولهم في السب : يا ابن مقطعة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خاتنة وقد يقولونها في معرض الذم وإن لم تكن أمه خاتنة

أَنعِرُفَ عَبْدَ الْمَلِكِ؟ قَالَ: نَعَمْ، جَائِزٌ بَائِرٌ، قَالَ: وَيَحْكُ أَنَا عَبْدَ الْمَلِكِ! قَالَ:
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بَيَاكَ وَلَا قَرَّبَكَ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ، قَالَ:
وَيَحْكُ أَنَا أَضْرُ وَأَنْفَعُ، قَالَ: لَا رَزَقَنِي اللَّهُ نَفْعَكَ وَلَا دَفَعَ عَنِّي ضَرَّكَ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ حَيَاتُهُ عَمِلَ صِدْقَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آتَكُمُ مَا جَرَى فَاَلْجَالِسُ
بِالْأَمَانَةِ...

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قُلْ غَلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عُمَهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسَهْوٍ مِنْهُ: يَا عَمُّ، إِنِّي قَدْ أَسَأْتُ
وَلَيْسَ مَعِيَ ثَقْلِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمِمَّا عَقَلْتُكَ...
وَقَالَ الْمُنْبِي:

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا نَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُوا حَيَاتَهُمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهِلْتَ أَيَادِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبِّمَا خَفَى الصَّوَابُ^(١)
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

فَإِنَّ يَدَكَ حُرْمٌ عَنَّا أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطِيئَتِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمُنْبِي قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ: «رُفِعَ عَنِّي الْخَطَأُ
وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَسْكِرْهُوا عَلَيْهِ» وَقَالَ تَعَالَى: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا،

(١) أَيَادِيكَ: نَعْمَكَ، وَالْبَوَادِي: خِلَافُ الْحَوَاضِرِ أَيْ أَهْلُ الْبَوَادِي يَقُولُ:
لَهُمْ لَمْ يَجْهَلُوا بِعَصِيَانِكَ سِوَابِقِ نَعْمِكَ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى الصَّوَابُ عَلَى الْمَرْءِ
فِي أَيِّ غَيْرِهِ

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فتن^(١) :

أَحِينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ تَجَمُّلُ فِعْلِكَ بِي أَشْمَتَ حُسَادِي !
فَإِنْ تَمَكَّنْ هَفْوَةٌ أَوْ زَلَّةٌ سَالَفَتْ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِيٍّ وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو مجبوس :
وعَفْوَكَ عَنْ مُذْنِبٍ خَاضِعٍ قَرَنْتَ الْمَقْسِمَ بِهِ الْمُقْعِدَا^(٢)
إِذَا أَدْرَعَ اللَّيْلَ أَنْضَى بِهِ إِلَى الصَّبْحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْقُدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ وَمَوْلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمْرٍ تَلَا فَيْتَهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أُنْسِدَا
فَلَا عُدْتُ أَعْصِيكَ فِيمَا أَمَرْتُ حَتَّى أَزُورَ السَّيْرَى مُلْحِدَا
وَلَا نَخَالِفْتُ رَبَّ السَّمَاءِ وَخُنْتُ الصَّدِيقَ وَعِفْتُ النَّدَى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسْأَلُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَحُسْنِ بِلَايَا^(٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذه المقيم المقعد أى ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأله : أسألت فيه

وقال جل شأنه : « إن يجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونُذِلكم مُدخلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبار هن : الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها .

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي :
أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فإن تَهَبَ لِحَسَنِهِمْ أَهْلَ الإِسَاءَةِ يَصْلُحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعُشُّ لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أُمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ تَعَصَيْتَ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتُمْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... « وَقَدْ أوردنا هذه الاحدوثة كما أوردناها الادباء ، وإن في النفس منها بعدُ لأشياء » .

مستعفف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال سلم الخاسر :
لقد أتتني من المهديّ معتبةٌ تظلُّ من خوفها الأحشاء تَضْطَرِبُ
وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه :

أتانى عائرُ الأنباء تَسْرِي عِقارُبهُ بداهيةً نَادٍ^(١)
 فياخبراً كأنَّ القلبَ أَمَسَى يُجْرُّ به على شوكِ القَتَادِ^(٢)
 وقال البحتري :

عَذِرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنَقَنَ مَشْرِبِي وَلَقَيْتَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا^(٣)
 وَأَكْسَبْنِي سُخْطَ امْرِئٍ بَتُّ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا^(٤)

من استعفى واستوهب معا

أخذ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رجلاً من أصحاب المختار ، فأمر بضَرْبِ عُنُقِهِ ،
 فقال : أيها الأمير ، ما أَقْبَحَ بك أن أقومَ يومَ القيامةِ إلى صورَتِكَ هذهِ
 الحسنةِ ، ووجهِكَ هذا الذي يُستضاءُ به ، فأَتَمَّلْتُ بأُطْرَافِكَ وأقول : أَيْ
 رَبِّ سَلْ مُصْعَبًا فَيَمَّ قَتَلَنِي ، نال : أَطْلِقُوهُ ، قال : اجْعَلْ ما وَهَبْتَ لِي مِنْ
 حَيَاتِي فِي خَفْضٍ ، قال : أَعْطُوهُ مائَةَ أَلْفٍ ، قال : بَأْبَى أَنْتَ وَأُمِّي ،
 أَشْهَدُ اللَّهَ أَنْ لَابِنِ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ مِنْهُمَا خَمْسِينَ أَلْفًا ، قال : وَلِمَ ؟ قال :
 لِقَوْلِهِ فِيكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
 مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ يُخَشَى وَلَا كِبَرِيَاءُ
 يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْـلَحَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ الْإِنْتِقَاءُ

(١) عائرُ : كقولهم : قصيدة عائرُه : أى سائرة ، ويقال : داهية نَادٍ فالنَادِ :
 الداهية تحل .

(٢) فيا خبرا : يروى : ثنا خبر ، وثنى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقَتَادِ : شجر
 صلب له شوك كالإبر

(٣) رَتَقَ الماء : كثره ، والمَشْرَبِ : موضع الشرب ، والماء

(٤) الموهن : نحو من نصف الليل

فضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصليعة ، وأمره بلزومه
وأحسنَ إليه ، فلم يزل معه حتى قتل ...
وقال المتنبى :

فاغفرَ فِدَى لك واحببني مِن بَعْدِهَا لِنُحَصِّنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالثبوت إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيلٌ فَتَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَتَقَلَّبْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَيَّنُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبا للنعيم ؛ وتعليق
الامر بالتبين على فسق المخبر يقتضى جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيبوا : أى كراهة إصابتكم ،

وغيض الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غيظت الله ، فأطع
الله فى غضبك بالوقوف إلى حال التبين كما غيظت له .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : لئنك على إيقاع ما لم توقع أقدرُ منك على ردِّ
ما أوقعت ...

نهى العافى عن التثريب

رضى بعض الملوك عن رجل ، ثم أخذ يُوبِّخه ، فقال : إن رأيتَ ألا

(١) فاغفر أى فاغفرلى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحباه :
أعطاه ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عني وأعطيتني
كنت قد خصصتني بعطاء أنا من جملته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تَخْدِشَ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فَافْعَلْ^(١)

وقالوا : ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَعَ بِهِ ...

وقال شاعرٌ فيمن يعاقب ثم يعاتب :

إِذَا عُوِّبَ الْجَانِي عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبَا

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف : إياك وكلُّ أمرٍ يُعْتَذَرُ منه :

وفي حديث آخر : إياكم والمعاذيرَ فإنها مفاجِرُ ...

« ومعنى الحديثين : إياكم أن تسكتموا أو تفعلوا ما تحتاجون إلى أن

تعتذروا عنه . »

وقال بعضهم : دُعِ ما يسبقُ إلى القلوب إنكارُهُ ، وإن كان عندك

اعتذارُهُ فليستْ بمُوسِعٍ عُذْرًا كُلُّ مَنْ أَسْمَعَتْهُ نُكْرًا ...

وكتب الحجاجُ إلى بعض من اعتذر إليه : إِنْ يَسْلَمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ

نَيْتِكَ تُكْفَ الْمَقَال .

وكتب كاتبٌ : لستُ أعتذر إليك من الذنب إلا بالإفلاق عنه .

وكتب آخر : إن تركتُ الاعتذارَ فلَمَّا قال الشاعر — هو محمد

الوراق — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُذْرِ لَيْسَ بَيِّنٍ فَإِنْ أَطْرَاحَ الْعُذْرُ خَيْرٌ مِنَ الْعُذْرِ

وقالوا : الإغراقُ في العذرَ يَحَقِّقُ التَّهْمَةَ ، كما أن الإفراطَ في النصيحة

يوجبُ الظَّنَّةَ ...

(١) التثريب : تقييح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم : إن كان ما بَلَغَكَ حقاً فما تُغني المَعَاذِيرُ ، وإن كان كَذِباً
فما تضر الأباطيل .

وقال شاعر :

تَعَالَوْا نَصْطَلِحْ وَتَكُونُ مِنَّا مُعَاوِدَةً بَلَا عَسَدَ الذُّنُوبِ
فَإِنِّ أَحْبَبْتُمْ قَلْبَتُمْ وَقَلْنَا فَإِنَّ الْقَوْلَ أَشْفَى لِلْقُلُوبِ

وخطب الحجاج يوماً فأطال ، فقام رجل فقال : الصلاة ، الوقتُ
لا ينتظرُك ، والربَّ لا يُعَذِّرُك ، فأمر بحبسِه ، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون
فإن رأى أن يُخَلِّي سبيلَه ! فقال : إن أقر بالجنون خَلَّيْتُهُ ، فقيل له ذلك ، فقال :
معاذ الله ، لا أزعمُ أن الله ابتلاني وقد عافاني ، فبأغ ذلك الحجاج ، فغفوا
عنه لصدقه ..

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم : رَبِّ تَلَوِّمْ لَا ذَنْبَ لَهُ .

وقال البُخْتَرِيُّ :

إِذَا تَحَاسَيْتِ اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَدِرُ

عبقرياتهم في ذمّ الحلم

ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادرٌ تحمي صفوه أن يكدرًا (١)
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلیمٌ إذا ما أورد الأمر أضدرًا
يُروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله قال صلوات الله
عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له
نيلة ... وأنشد المبرد :

أبا حسنٍ ما أقبح الجهل بالفتى وللحلم أحياناً من الجهل أفتحُ
إذا كان حلمُ المرء عونَ عدوه عليه فإن الجهل أعنى وأرؤحُ
« أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتنبّي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طُرُق المظالم

وقال :

إذا قيل : رفقاً قال : للحلم موضعٌ وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ
وقال أبو يعقوب الخريزمي :
أرى الحلم في بعض المراتب ذلةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البوادر جمع بادرة : ما يبدر من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ فيه له . وقال : ما قَلَّ
سَفَهَاءُ قوم إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَابَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خالف الله في
تدبيره ، وظن أن رحمة الله دون رحمته ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سَوْءًا يُجْزَ بِهِ » وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها »

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمْتُهُ الْآتَقَةَ إِلَى الْمَكَافَأَةِ
وجزاء سيئة سيئة مثلها ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الْحِجَاجِ فَقَالَ : اللَّهُ ذَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنْبَيْهِ ! وتمثل بقول الشاعر :

ولا خيرَ في عَرِضِ أَمْرِي لَا يَصُونُهُ ولا خيرَ في حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

إِن كُنْتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الْحِلْمِ لَأُنِّي إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَحْوَجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي قَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّ فَإِنِّي مُعَوِّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الْجَهْلَ خِذْنَا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُخْرَجُ
وإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سِمَاجَةٌ فَقَدْ صَدَقُوا ، وَالذَّلَّ بِالْحُرِّ أَسْمَجُ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَتَنْشِئُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالْكَلَمِ
وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنينة أمه - :

إِذَا الْمَرْءُ أَوَّلَاكَ الْهَوَانَ فَأُولِهِ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَّاصِرُهُ^(١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهوانا فأوله من الذل والهوان ما تزد به =

وإن أنت لم تقدرِ على أن تهينه فذرْه إلى اليوم الذي أنتَ قادِرُهُ^(١)
وقاربْ إذا ما لم تكنْ لك حيلةٌ وصمَّمْ إذا أيقنتَ أنك عاقِرُهُ^(٢)
وقالوا : الشر لا يدفعُه إلا الشر والحديد بالحديد يُفْلَحُ^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمعَ عامرَ البقيّا عليها ونزقَها احتمالك والوقار^(٤)

وقال آخر :

ولا يغررك طولُ الحلمِ مني فما أبدأ تُصادقني حلما

وقال آخر :

احذرْ مغايظَ أقوام ذوى أنفٍ إن المغيظَ جهولُ السيفِ مجنونُ

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحنف لرجل : ليت طولَ حلمنا عليك لا يذهو جهلَ غيرنا

إليك .

كيدِه عنك وتشقى به نفسك وإن كان الذى سامك الخسف يمت إليك بسبب من
القرابة وقوله قريباً خبر، كان ولم يقل قريبة على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشق

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيّا اسم من الإبقاء . يقول :
وأطمعهم فى العصيان لإبقاؤك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحلمهم على الطيش
حلمك عنهم وامتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأحنف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهرة بالملاينة والخير شرٌّ من الاشتهار بالغيلة والشر ، لأن من عُرِفَ بالخير اجترأ عليه الناس ، ومن عُرِفَ بالشر هابه الناس وتجنّبوه .

وقال معاوية : ما وَلَدْتُ قُرَشِيَّةً خيراً إِقْرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان حاضراً : بل ما وَلَدْتُ شراً لهم منك ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَّدْتَهُمْ عَادَةً يَطْلُبُونَهَا مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُجِيبُونَهُمْ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ كَحْمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي بِهِمْ كَالزُّقَاتِ الْمُنْفُوخَةِ عَلَى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
هُضِرْتُ كَوْضَعَ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهمُ ومن لك بالحرِّ الذي يحفظ اليدا
وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللئيم أضُرُّ مع استعمال الجهل مع الكريم .
وقال يزيد بن معاوية لآبيه : هل ذَمَمْتَ عَاقِبَةَ حِلْمٍ ؟ قال : ما حُلِمْتُ عَنْ
لئيم وإن كان ولياً إلا أَعَقَبَنِي نَدَمًا ، ولا أقدمْتُ على كريم وإن كان عدواً
إلا أَعَقَبَنِي أَسْفاً ...

وقال الشاعر :

مَنْ تَضَعُ الْكَرَامَةَ فِي لَتِيمَةٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ إِلَى الْكَرَامَةِ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُلَاقِي الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ

وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَّالُ أَنْ يَتَهَضَّوْا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنَ بِجَهْلٍ
وَيُنَازِلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَلَطَمَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بَعِزٌّ مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مُلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَنَالُ الْمَرْءُ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ سَقَى الْأَعَادِيَ بِالْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَا
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَا
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَسْكُومَةً مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتُهُ كَذْبَا
قَتَلْتَ عُمَرَا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ رَأَيْتَ رَأْيَا يَجْرُ الْوَيْلُ وَالْحَرْبَا
لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَتَرُكْهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْيَهَا الذَّنْبَا^(١)

(١) الشهم : الذكي الغواد المتوقد النجد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ به جَزَرًا

هم أَوْقَدُوا النَّارَ فَاجْعَلُهُمْ لها حَطْبًا^(١)

ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلَكَ وَالْعَطْبَا
عَسَلَامَ تَقْبَلُ مِنْهُمْ فِدْيَةً وَهُمْ لَا فِضَّةَ قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبًا
وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنب
خاصًا . فلا تُعَمِّمُ بالعقوبة ، فمعى سلامة البريء ومودة الولي ؛ فيكتب إليه :
قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَان ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
تَسْمَعْ بالعفو ! فقال : لأن بني مروان لم تَبَلَّ رِيئُهُمْ ، وآل أبي طالب لم
تُعْمَدُ سُيُوفُهُمْ ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأمس سُوقَةَ وَالْيَوْمَ خُلَفَاءَ ،
فليس تَمَهَّدُ الهَيْبَةُ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا بِأَطْرَاحِ الْعَفْوِ وَاسْتِعْمَالِ الْعُقُوبَةِ ...

التبجح بقسوة القاب وقلة الرحمة

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق قد انْخَدَ تَنُورًا
من حديد ، وأطراف مَسَامِيرِهِ قَائِمَةٌ مِثْلَ رُؤُوسِ الْمَسَالِ ، فِي أَيَّامِ زَارَتِهِ ،
وكان يَعَذِّبُ فِيهِ الْمَصَادِرِينَ وَأَرْبَابَ الدَّوَابِّ الْمَطْلُوبِينَ بِالْأَمْوَالِ ، فَيَجِدُونَ
لِذَلِكَ أَشَدَّ الْأَلَمِ ، وَلَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِقَابِ ، وَكَانَ إِذَا قَالَ
لَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ : أَيَا الْوَزِيرِ ، ارْحَمْنِي ، يَقُولُ لَهُ : الرَّحْمَةُ تَحَوَّرُ فِي الطَّبِيعَةِ ، فَلَمَّا

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى
قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكلُ أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ فِي التَّنُورِ وَقِيدَهُ بِخَمْسَةِ عَشْرِ رِطْلًا مِنَ
الحديد، فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ارْحَمْنِي، فقال له: الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ،
كَمَا كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ. ثُمَّ يَتَمَثَّلُ:

❖ فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتَ سِرَّتِهَا ^(١) ❖

وَوَقَعَ مَرَّةً فِي قِصَّةِ رَجُلٍ: دَعْنِي مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ، فَمَا هُمَا
إِلَّا لِلنَّسْوَانِ وَالصَّبِيَّانِ ...

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي:

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي ثَلْبِهِ ^(٢)

« الثَّلَبُ: الذَّمُّ وَالْعَابُ، يَقُولُ: إِنَّ الصَّبْرَ مِمَّا يَمْدَحُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَالْإِشْفَاقُ

مِمَّا يِعَابُ بِهِ »

أَخَذَ الْبَرَى بِذَنْبِ الْجَانِي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»

وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ الْيَشْكُرِيُّ مِنْ مَعْلَقَتِهِ الَّتِي ارْتَجَلَهَا بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو بْنِ هَنْدٍ

مَلِكِ الْحَيْرَةِ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ:

عَنَّا بِاطْلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعَدُّ سَتْرُ عَنْ حَجَرَةِ الرَّيْبِضِ الظُّبَاءِ

« الْعَيْنُ: الْإِعْتِرَاضُ يَقَالُ: عَنْ يَعْنُ وَيَعْنُ عَنَّا وَعُنُونًا وَاعْتَنَ:

عَرَضَ وَاعْتَرَضَ، وَالْإِسْمُ الْعَيْنُ، وَالْحَجَرَةُ: النَّاحِيَةُ، وَالْجَمْعُ: حَجَرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعمته وأولها:

آخَرُ مَا الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِهِ

وَحَجَرَاتٍ مِثْلَ جَهْرَةٍ وَتَجَرُّهُ وَتَجَرُّاتٍ ، وَالْعَتَرُ ، ذَبْحُ الْعَتِيرَةِ ، وَهِيَ ذَبِيحَةٌ كَانَتْ تَذْبَحُ لِلْأَصْنَامِ فِي رَجَبٍ ، وَالرَّبِيضُ : الْغَنَمُ الرَّابِضَةُ فِي مَرْبِضِهَا ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْذِرُ : إِنْ بَلَغَ اللَّهُ غَنَمَهُ مِائَةً ذَبَحَ مِنْهَا وَاحِدَةً لِلْأَصْنَامِ ، ثُمَّ رُبَّمَا ضَلَّتْ نَفْسُهُ بِهَا فَأَخَذَ ظَبِيًّا وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشَّاةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ يَقُولُ : أَلَزِمْتُمُونَا ذَنْبَ غَيْرِنَا عَنَّا بِاطْلَاكَ يُذْبَحُ الظَّبْيُ لِحَقِّ وَجَبٍ فِي الْغَنَمِ ،

وَقَالَ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي مِنْ أَبِيهَا الْعَيْنِيَّةِ الَّتِي يَعْتَذِرُ فِيهَا إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ .
أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنِ أَنْكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وَتَرَكْتُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ظَالِمُ
وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْعُرِّ يُكَوِّي غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعُ
وَذَلِكَ امْرُؤٌ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولَهُ وَلَوْ كَبَلْتُ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَهْلَهٍ اللَّسَخِ كَاذِبًا وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهَيْنٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَى الْإِقَارِغِ
ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
فَبِتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَبِيلَةً مِنْ الرَّقِيشِ فِي أَنْيَابِهَا الشُّمُّ نَاقِعُ
يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّهَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَارِقُ
تَتَاذَرُّهَا الرَّاغُونَ مِنْ سُوءِ سُنِّيَّهَا تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
ومنها :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتِيَنَّ ذُو لِمَّةٍ وَهُوَ طَارِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَّابِلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
« وَإِلَيْكَ شَرَحَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ : أَبَيْتَ اللَّعْنِ : أَبَيْتَ أَنْ تَأْتِيَ مِنْ

الاخلاق المذمومة ما تُلْعَنُ عليه ، وكانت هذه تحيةً لَنَحْمِ وجُذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غَسَّان : يا خيرَ الفتيان ، وكانت منازلهم الشام : وتَسْتَكُ : تَلْسُدُ ولا تَسْمَعُ : ورائع : مُفْزِعٌ وَخَوْفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الأخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظاليع : مائل . والعُر : قَرْحٌ يأخذ الإبل فى مشافرها وأطرافها شبيه بالقرع ، وربما تفرَّق فى مشافرها مثل القُوباء ، يسيل منه ماءٌ أصفرٌ ، وكان الأعرابُ إذا وقع العُرُ فى إبل أحدٍ من أعرضا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّوْا مِسْقَرَهُ وعُضَدَهُ وفَخَذَهُ يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العُرُ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكُونُونَ الصحيح لئلا يتعلّق به الداءُ لا ليبرأ السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْلَهُ النسيج وهلهل النسيج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بين واضح . وقوله : لَعَمْرَى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العمر بضمها لكن خَصَّ استعمال المفتوح فى القسم ، أى ما قَسِمِى بَعْمَرِى هين على حتى يَهْمِىَ مَتَمُّمٌ بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والأقارع : هم بنو قُرَيْع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تَغَيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيدُه فى غير قدر الوعيد ، أى لم أَكُنْ بَلَغْتُ ما يغضب على فيه . وراكس : وادٍ ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنَى الوادى . وقوله : فَبُتْ ... أَلَبِيتُ فالمساورة : المواثبة ، والآفَى لا تَلْدَغُ إلا وَثْباً . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرُقْس من الحيات : المنقطة بسواد ، وهى من شرارها ، والسم مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التمام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسليم :

اللدغ ، وسمت العرب الملسوع سلبيا نقاؤلا . وقوله : لحلى النساء في يديه
قماقع : فقد كان الملدوغ يُحمل الحلى في يديه والجلاجل حتى لا ينجم فيديبه
السُّم . فيه وتناذرها الراقون يروى أيضا : تناذرها الحاوون ، وهو جمع حار ،
وهو الذى يُمسيك الحيات ، أى أنذر بعضهم بدصا بأنها لا تُجيب راقيا
وقوله : نُطْلَقُهُ : تخيُّث عنه مرة وتشتت عليه مرة ، ومثل ذلك قول
الآخر :

تبیتُ الهمومُ الطارقاتُ يُعدُّ نبي كاتمتري الأوصابُ رأس المُطَلَّقي
يقال : طَلَّقَ السَّليم : رَجَعَتْ إليه نفسه وسكن وجُمعه بعد العِدَاد^(١)
فهو مُطَلَّق ، قال المبرد : وهذا هو الذى ذكره النابغة قال : وذلك أن
المنهوش إذا ألح الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤيسَ
من بُرئه ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لوعة في إثر
فترة والخائف لا ينأى إلا غرارا ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسهَّد . والإمَّة
لغة في الإمَّة : الدين والخير ثم شبهه في البيت الأخير في حال سخطه
بالليل الشديد الظلمة لا يُهتدى فيه «

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلىح الله الأمير ، جنى جان في
الحى فأخذتُ بحريته وأُسقط عطاى ، فقال الحجاج : أما سمعت قول
الشاعر :

جانيك من يحنى عليك وقد تُعدى الصحاح مَبَارِكُ الجُزْبِ^(٢)

(١) المداد : احتياج وجع اللدغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البره ومالم تمض قيل : هو في عداده
(٢) جانيك من يحنى عليك ، يريد : صاحب جناتك من يحنى عليك فلا تأخذ

وَلَرُبَّ مَاخُودٍ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ ^(١)
 فَقَالَ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، كَتَابُ اللَّهِ أَوْلَى مَا أَتَّبِعُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
 «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ الْحِجَابُ : صَدَقْتَ
 يَا غِلَامَ ، رُدَّ اسْمَهُ وَأُثْبِتْ رَسْمَهُ ؛ وَأَسْنِ لَهُ عَطَاءَهُ .

عذر من بدر منه سخط

قال البحتري :

إِذَا أُخْرِجْتَ ذَا كَرِيمٍ تَخْطِي إِلَيْكَ بَيْعُضُ أَخْلَاقِ اللُّثَامِ

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كيلة ودمنة : لا ينبغي للعاقل أن تحمله ثقته بقوته على أن
 يَجْتَزِيَ العداوة ، كما لا يجب لصاحب الترياق أن يشرب السم اتكالا
 على أدويته .

وقالوا : احذر مُعَادَاةَ الرجال فالناس رُجُلَان : عاقل فاحذر ختله ،
 وأحمق فاحذر مُحَقِّقه

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانك من يحني عليك يضرب مثلاً للرجل
 يعاقب بجنابة ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يحنيك من جنابته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يحنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعته هو الذي
 ياحتك عاره ، يعني : الذي يحني لك الخير ذو الذي يحني عليك الشر ، فقولهم : جانك
 معناه الجاني لك ، ومبارك الحرب : مواضع بروكها أي : مرابضها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخرايات
والأصدقاء والصدقة .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

تُسَدِّطُنْ مَعَهُ الْعَدَاوَةَ

دخل سُديفٌ مولى أبي العباس السفاح^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبلها ، فلما
رأى ذلك سُديف أقبل على أبي العباس وقال :

جَرَّدَ السِّيفَ وَارْفَعَ الْعَفْوَ حَتَّى لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُورِيَا
لَا يُغَرِّنُكَ مَا تَرَى مِنْ أَنْاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيَا
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ فَقَالَ : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ قَتَلَكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فَإِذَا الْمِنْدِيلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُقِّي سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ جَرَّ فَقُتِلَ .

ودخل شِبلُ بنُ عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلس ثمانين رجلاً من بني أمية على مُطِطِ الطعام ، فثُلَّ بين يديه وقال :
أَصْبَحَ الْمَلِكُ ثَابِتَ الْآسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بني
هاشم أنه تزوج مولاة لأبي هلب ويقال : بل أبوه هو الذي تزوجها فولدت له سديفاً
وسديف شاعر مقل من مخضرمي الدولتين شديد التعصب لبني هاشم مظهراً لذلك
أيام بني أمية

(٢) الآساس واحدها أس ، وقد يقال للواحد : أساس وجمعه أسس ، والهلول :
العزيز الجامع لكل خير

طلبوا وترَ هاشمٍ فشقَّوها بعد مِيلٍ مِنَ الزَّمانِ وَيَاسِ^(١)
 لَأُتْقِيَانِ عَبْدَ شَمْسٍ عِثَارًا وَقَطَّعَنْ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي^(٢)
 ذُلِّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحِزُّ الْمَوَاسِي
 وَلَقَدْ غَاطَنِي وَغَاطَ سَوَائِي قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي^(٣)
 أَنْزَلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ بَدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِتْعَاسِ
 وَأَذْكُرُوا مَصْرِعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ^(٤)
 وَالْقَتِيلَ الَّذِي بَحْرَانٌ أَضْحَى ثَاوِيًا بَيْنَ غُرْبَةٍ وَتَنَاسِ^(٥)
 نَعْمَ شَبْلُ الْهَرَّاشِ مَوْلَاكَ شَبْلُ لَوْ نَجَا مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ
 فَأَمَرَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ ، فَشَدَّخُوا بِالْعَمَدِ ، وَبَسَّطَتْ عَلَيْهِمُ الْبُسْطُ ، وَجَلَسَ
 عَلَيْهَا وَدَعَا بِالطَّعَامِ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ أَنْبَاءَ بَعْضِهِمْ حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا ، وَلَمَّا فَرَّغَ مِنَ
 الْأَكْلِ قَالَ : مَا أَعْلَنِي أَكَلْتُ أَكْلَةً نَطَّ أَهْنًا وَلَا أَطِيبَ لِنَفْسِي مِنْهَا وَقَالَ

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : في الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ، والأوإسي : جمع آسية وهي : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) الثمارق جمع نمرقة وهي : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ وقتله يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق لحشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة - عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلا بجانب المنهراس فالمنهراس : ماء بأحد ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبل قتل حمزة إلى بني أمية لأن أباسفيان ابن حرب كان قائد كفار قريش يوم أحد

(٥) القتل الذي بحزان هو إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو الذي يقال له الإمام

لِشَبَلٍ : لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمُك جميع أموالهم ^(١) ،
ولقدت لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبى :

فلا تغررك أسننة موالٍ تُقلِّهنَّ أفئدةً أعادى ^(٢)
وكن كالموت لا يرئى لباكٍ بكى منه ويروى وهو صاد ^(٣)
فإن الجرح ينفر بعد حينٍ إذا كان البناء على فساد
» قوله : فإن الجرح ... ألبيت : مثله قول البُخترى :

إذا ما الجرح رُمَّ على فسادٍ تبين فيه تفريط الطبيب
وفى كيلة ودمنة : لا يغرُّ العاقل سكون الحقد فى القلب مالم يجد مُحركاً
فإنه كالبحر المكنون مالم يجد حطباً ؛ والعداوة إذا وجدت فرصة اشتعلت
فلا يُطْفئها شيء دون النفس ...

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

نعم شبل المراس مولاك شبل لو نجا من حبال الإفلاس

(٢) دوال : جمع مولى وهو الولي والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار
ودهم فإن تلك الالسنه الموالية تقاها أفئدة معادية

(٣) لا يرئى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسياً عليهم كالموت
لا يرحم الباكي من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد ،
أى لطلب النفوس ، ومعنى يروى : ينال ما لو أدركه لروى

* كالموت ليس له رى ولا شبع *

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء ، وقوله : إذا كان البناء على فساد أى
إذا ثبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى : أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى
أن تتمكنهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلاً كان له عبدٌ سِنْدِيٌّ ، فَتَعَرَّضَ لامْرَأَتِهِ ، فَعَلِمَ الرَّجُلُ بذلك ، فَأَخَذَهُ وَجَبَّهُ ، ثُمَّ تَحَوَّبَ لَذَلِكَ ، فِدَاوَاهُ ، فَلَمَّا بَرَأَ اتَّفَقَ أَنْ غَابَ الرَّجُلُ يَوْمًا ، فَعَمَدَ السِّنْدِيُّ الْمَجْبُوبُ إِلَى ابْنَيْنِ كَانَا لِسَيِّدِهِ فَأَخَذَهُمَا وَصَعَدَ الشُّوْرَ ، فَلَمَّا بَصُرَ بِالرَّجُلِ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ لَمْ تَجِبْ نَفْسَكَ كَمَا جَبَبْتَنِي لِأَقْدِفْنَهُمَا مِنَ الشُّوْرِ لِيَمُوتَا ، وَإِنْ نَفْسِي لِأَهْوَنُ مِنْ شَرِبَةِ مَاءٍ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ مِنْهُ الْجِدَّةَ جَبَّ نَفْسَهُ ، فَرَمَى الْعَبْدُ بِالْأَبْنَيْنِ مِنَ الشُّوْرِ وَقَالَ : إِنْ جَبَّكَ نَفْسَكَ قِصَاصٌ لِمَا جَبَبْتَنِي ، وَقَتْلَ ابْنَيْكَ زِيَادَةً أُعْطِيتُكُمَا ...

وترجمُ العرب : أَنْ أَخْرَيْنِ كَانَا فِي إِبِلٍ لَهَا ، فَأَجْدَبَتْ بِلَادُهُمَا ، وَكَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمَا وَادٍ خَصِيبٌ وَفِيهِ حَيَّةٌ تَحْمِيهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا الْآخَرُ : يَا فُلَانُ ، لَوْ أَنِّي أَتَيْتُ هَذَا الْوَادِيَّ الْمُكَايَّ فَرَعَيْتُ فِيهِ إِبِلِي وَأَصْلَحْتُهَا ؟ فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ : إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْحَيَّةَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَهْبِطُ ذَلِكَ الْوَادِيَّ إِلَّا أَهْلَكَتَهُ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ لَا قَلَنْ ، فَهَبَّطَ الْوَادِيَّ وَرَعَى بِهِ إِبِلَهُ زَمَانًا ، ثُمَّ إِنْ الْحَيَّةَ نَهَشَتْهُ فَقَتَلَتْهُ ، فَقَالَ أَخُوهُ : وَاللَّهِ ، مَا فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ أَخِي خَيْرٍ ، فَلَا تُطْلُبَنَّ الْحَيَّةَ وَلَا قَتْلَهَا ، أَوْ لَا تَبْعَنَّ أَخِي ، فَهَبَّطَ ذَلِكَ الْوَادِيَّ وَطَلَبَ الْحَيَّةَ لِيَقْتُلَهَا طَلَبًا بَنَارَهُ ، فَقَالَتْ لَهُ الْحَيَّةُ : فَهَلْ لَكَ فِي الصُّلْحِ ، فَأَدْعُكَ بِهَذَا الْوَادِيَّ تَسْكُونُ فِيهِ وَأَعْطِيكَ كُلَّ يَوْمٍ دِينَارًا مَا بَقِيَتْ ؟ قَالَ : أَوْفَاعِلَةٌ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنِّي أَفْعَلُ ، خَلْفَ لَهَا وَأَعْطَاهَا الْمَوَاتِيْقَ : لَا يَضُرُّهَا ، وَجَعَلَتْ تَعْطِيهِ كُلَّ يَوْمٍ دِينَارًا ؛ فَكثُرَ مَالُهُ حَتَّى صَارَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ حَالًا ؛ ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ أَخَاهُ فَقَالَ : كَيْفَ يَنْفَعُنِي الْعَيْشُ وَأَنَا

أَنْظُرْ إِلَى قَاتِلِ أَخِي ! فَعَمَدَ إِلَى فَأْسِهِ فَأَخَذَهَا ؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا ، حَتَّى خَرَجَتْ ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَدِيدَةً رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ ، خَافَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَنَدِمَ ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ ؟
فَقَالَتْ : كَيْفَ أَعَارِدُكَ وَهَذَا أَثَرُ فَأْسِكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الْحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي فِي آيَاتِ لَهُ لَا دَاعِيَ إِلَى إِيْرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ :

أَبَى لَكَ قَبْرُ لَا يَزَالُ مُوَاكِفِي وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاعْرِه .

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن بُدَائَةَ السَّعْدِيُّ :

وإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَأَمْرُجْ لَهُ إِنَّ الْمِزَاجَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالْمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطَى النَّضَاجَ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ .
وَقَالُوا : لَا يُتَبَقَّى الْعَدُوُّ الْقَوِي بِمِثْلِ الْخُضُوعِ وَاللَّيْنِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الرَّيْحِ الْعَاصِفِ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ الْعِظَامَ ، لَتَأْبِيهَا عَلَيْهَا ، وَيَسْلُمُ مِنْهَا النَّبَاتُ
اللَّيْنُ لِقَايَلِهِ مَعَهَا .

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ

« قَالَ الْإِمَامُ ثَعْلَبُ : هَذَا مِثْلُ وَمَعْنَاهُ : إِذَا تَدَنَّى أَخُوكَ شَانِخًا عَلَيْكَ
فَالنَّزِيمُ لَهُ الْهُوَانُ ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ : الْمَعْنَى : إِذَا غَلَبَكَ وَقَهَرَكَ وَلَمْ تَقَاوِمِهِ
فَتَوَاضَعَ لَهُ ، فَإِنْ اضْطَرَّ بِكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذِلًّا وَخَبَالًا ؛ وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبُ خَطَأً ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ . إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنْ - بِكَسْرِ الْهَاءِ - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهُنْ : لَهُ وَدَارِيهِ ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، كَمَا رَوَى عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بينى وبين الناس شجرة يمدونها وأمدتها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرخوها مددت ، وإذا مدوها أرخيت ، فالصحيح فى هذا المثل ، فهن بالكسر ، من قولهم : هان يهين : إذا صار هيناً لينا ، كقوله :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارُ ذُوو كَرَمٍ سَوَاسُ مَكْرَمَةِ أَبْنَاءِ أَطْهَارِ
وإذا قالوا : فهن فهو من الهوان ، والعرب لا تأمر بذلك ، لأنهم أعزة
أباؤن للضم . وقال ابن سيده . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامي - :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عنك حيناً
دبت لها الضراء وقلت : أبقي إذا عز ابن عمك أن تهونا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضممار العداوة

قال المتنبي :

وجاهل مدّه فى جهله ضحكى حتى أتته يدُ قراسة وفمُ
إذا نظرت يُوبُ اللَّيثُ بارِزةً فلا تُظنَّ أن اللَّيثَ مُبْتَسِمُ
« مدّه : أمهله وطوّل له ، وأصل الفرس : دق العنق يقول : ربّ جاهل
خدعته بجاملى وتركه فى حقه ضحكى منه حتى افترسته وبطشت به بعد زمان
يعنى أنه يُغضى عن الجاهل ويحكم إلى أن يُجازيه ويعصف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الأصل : الشجر الملتف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضاً : المشى فيما يواريك عن
تكبده وتحتله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالي : إذا كثر الأسد عن نابِه فليس ذلك تبسُّماً ، بل قصداً للافتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بشره ، وتبسَّمه للجاهل فليس ذلك رضى عنه ، وفي مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَتَاهُ مِنْ حَفِيفَتِهِ . فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المثلث العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْثُرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتَمُ
وقال ابن الرومى :

يُذِيعُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخْفِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا^(١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟
فقال : إذا حضر هبناه ، وإن غاب اغتبناه ، قال : ذاك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبيء عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْتَوِكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتِ الْأَعْيُنُ

وقال زهير بن أبي سلمى :

وما يكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تُخْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء في غيبي عظمى وخضع لى وأنا أعرض عن عتابه إعراسا عنه واحتقاراً له لأنه لا يقدر أن ينظر إلى فى حضرتى .

وقال عُمَيْرُ بْنُ حُجَابٍ :

أَلَا رَبِّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَيْدِيهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَاتِمٌ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُ

مَقَالَتَهُ فِي الْغَيْبِ سَاءَ مَا يَفْرَى^(١)
نَمِيَّةٌ شَرَّتْ تَبْتَرِي عَصَبَ الظُّهْرِ^(٢)
مِنَ الضُّغْنِ وَالشَّحْنَاءِ بِالنَّظَرِ الشَّرِّ
كَأَنَّ أَوْبَارُ الْجِرَابِ عَلَى النَّشْرِ^(٣)

وقال أبو نواس :

كَمَنْ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا كَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجَرِهِ^(٤)

وقبله :

وَابْنِ عَمٍّ لَا يُكَاشِفُنَا قَدْ لَبِسْنَاهُ عَلَى غَمَرِهِ^(٥)
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ
وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمُرُّ عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبَقَى حَرَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَ^(٦)

(١) يفرى : يخلق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبتري : تبرى وتنت

(٣) جاء في اللسان : النشر : الكلال يبيع أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه الإبل إذا رعت ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا في الصلح حسن في مرآة العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجرب عن أكل النثر وتحتها دام منه في أجوافها .
وقال أبو منصور الأزهري : وقيل النشر في هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنان : البغض . يقول : البغض قد كن فيه واستقر مثل كمون النار في

الحجر الذي يوريه ويقده

(٥) لا بكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به من حقد (٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذي يتلبد فيه السرقة وأبعاد الغنم والبقر ، وفي الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدنةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أَقْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصالح بعد القتال بين كل متحاربين : هُدنة ، لأنها مُلاينةٌ وفترةٌ سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكُورَةُ إلى السواد كاللدخان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتوارثان .

وفي كَليلةٍ ودمنةٍ : ليس بين العداوة الجوهرية صلحٌ وإن اجْتُهد ، فالسُّاءُ وإن أُطِيلَ لسببائه فليس يَمْتَنِعُ من إطفاءِ النار إذا صَبَّ عليها . ويُحكي : أنَّ أعرابياً أخذ جروَ ذئب ، فرباه بلبَنٍ شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيته مع الشاة أنيسَ بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبعَ أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فاقتربها ، فقال الأعرابيُّ : أَكَلْتَ شُوَيْهِي ونشأتَ فينا فما أدراك أن أباك ذئبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال علي كرم الله وجهه : أنكى الأشياءَ لعدوك أن لا تُغلبه أنك اتخذتهُ عدواً .

وقال القاضي التنوخي :

أَلْقِ العدوَّ بوجهٍ لا قُطُوبَ به يكاد يقطرُ من ماءِ البَشَاشِ
فأحزمُ الناسِ مَنْ يلقى أعاديَه في جسمٍ حَقْدٍ وثوبٍ من مَوَدَّاتِ

عليه وسلم : المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوء ، شبه المرأةَ بما ينبت في الدمن من الكَلَا يرى له غضارةٌ وهو وبني الموعى منبتن الأصل

الرَّفْقُ يُنْزِلُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَزْحِ دِفْطَا حِ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداء بين أعدائك

في كلية ودمنة : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظفراً حسناً ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنى يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِبُهُ وَأَغْيِظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُ
ويقول : أتعب مناد لك من ناداك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ،
فَيَجْهَدُ فِي النَّدَاءِ ، كَمَا أَنَّ أَغْيِظُ الْأَعْدَاءَ لَكَ مَنْ عَادَاكَ وَهُوَ دُونَكَ ، لِأَنَّكَ
تَتَرَفَّعُ عَنْ مَعَارَضَتِهِ فَلَا تَشْتَقِي مِنْهُ ،
وقال شاعر :

يُسْطَوِ بِلا سببٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْكُتُبِ الْعُقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنى

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينياً ويدافعه :

إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ
وقال علي بن الجهم في تأسف من يعاديه لئيم :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشَبِّهُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حِسْبٍ وَدِينٍ
يُبْدِيكَ مِنْهُ عِرْضًا لَمْ يَصْنَهْ وَيَرْتَعِ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونٍ
ويحكى : أن خنزيراً بعث إلى الأسد وقال : قاتلني ، فقال الأسد :

أَسْتَبْكُفِّي ، وإن أنا قُلْتُكَ لَمْ يَكُنْ لِي ذَلِكَ غُرّاً ، وإن قَتَلْتَنِي لَحَقَنِي عَارٌ عَظِيمٌ ، فقال الخنزير : لَا خَبْرُنَّ السَّبَاعُ بِسُكُوكَ ، فقال الأسد : اِحْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَبِكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضِبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ
وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ » وقد تقدم

طائفة من عقرياتهم

فِي النَّاسِ وَمَا جُبِّلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَمْدِ وَالْحَسَدِ
وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى
وَلِلْمُنَاسِبَةِ عَقْرِيَّاتُهُمْ فِي الْعِدَاوَاتِ نَوْرٌ عَلَيْكَ هَاهُنَا صَدْرًا مِنْ عَقْرِيَّاتِهِمْ
فِي النَّاسِ وَمَا جُبِّلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَمْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ
وَالشَّمَاتَةِ وَالْمُزَاجِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

مَنْ أَرَوَعَ مَا قِيلَ فِي النَّاسِ وَحِكْمَةُ تَبَايُنِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ؛ فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا » ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا رَضُوا بِالنَّقْصِ وَتَرَكَوا التَّنَافُسَ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ وَدَرَكِ الْمَعَالِي ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًا فِي الْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَسَاوَوْنَ فِي الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا كَانُوا كُلُّهُمْ جُهَّالًا ، وَقِيلَ :

أراد بالتساوي التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أحسب قوله : فإذا تساوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخبر في النادر من الرجال ، لعزته ، فإذا كان التساوي فإنما هو في السوء . . . » وقال شاعر :
النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَتَّى فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ بَيْتُ الْآدَمِ
« أخياف : ضروب مختلفة الأخلاق والأشكال . والآدم . قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِضَنْءٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ
« الضنء : الأصل » وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هرا را على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قذراً ، ومنهم كالقرد ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : علق مِصْنَةَ لَا يُبَاع ، وعلق مِظَنَةً لَا يُبْتَاع ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضٌ يَخْبِتُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ
« وقد بما قلت فيما قلت ، في كتابي « الفردوس » : ولم لا يكون هذا الاختلاف في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل مأمنه بدأ السنا قد نُشئنا كأنعام آلات الموسيقى ، هي وإن اختلفت غير أن اجتماعها يؤلف من هذا الاختلاف نغما موسيقياً متجانساً بديعاً يطرب السمع ويملك على المرء مشاعره . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس أخبر ثقله

ومن أبداع ما قيل في ذم الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناسَ أَخْبَرَ ثَقَلَهُ .. قال ابن الأثير في النهاية : الْقَلَى : البغض ، يقال : قَلَاهُ يُقْلِيهِ قَلًى وَقَلًى : إذا أبغضه ، قال الجوهري : إذا فتحت مددت ، ويقلاه : لغة طائي . يقول جرّب الناس فإنك إذا جرّبتهم قَلَيْتَهُمْ وتركتهم ، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم . لَفْظُهُ كَلْفُظِ الْأُزْرِ ومناه الخبر ، أى من جرّبتهم أبغضهم وتركهم : والهاء في ثقله : لَلَّسَكَت . ومعنى نَظُمِ الحديث : وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول .

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف : النَّاسُ كإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً
يعنى أَنَّ الْمُرْضِيَّ الْمُنتَخَبَ مِنَ النَّاسِ فِي عِزَّةٍ وَجُودَةٍ كَالنَّجِيبِ مِنَ الْإِبِلِ الْقَوِيَّ عَلَى الْأَحْمَالِ وَالْأَسْفَارِ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْإِبِلِ . وقال الإمامُ الْأَزْهَرِيُّ : الَّذِي عِنْدِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الدُّنْيَا وَحَذَّرَ الْعِبَادَ سَوَاءً مَغْبَتَهَا وَضَرَبَ لَهَا فِيهَا الْأَمْثَالَ لِيَعْتَبَرُوا ، وَيَحْذَرُوا ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْذَرُهُمْ كَمَا حَذَّرَهُمُ اللَّهُ ، فَرَغِبَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بَعْدَهُ فِيهَا وَتَنَافَسُوا عَلَيْهَا حَتَّى كَانَ الزُّهْدُ فِي النَّادِرِ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ فَقَالَ : تَجِدُونَ النَّاسَ بَعْدِي كإِبِلٍ مِائَةٍ لَا يَسِيْرُ فِيهَا رَاحِلَةٌ ، أَيْ أَنَّ الْكَامِلَ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ قَلِيلٌ كَقِلَّةِ الْبَاسِلَةِ فِي الْإِبِلِ ، وَالرَّاحِلَةُ هِيَ

البعيرُ القوى على الأسفار والأحمال ، النجيبُ النائمُ الخلقُ الحسنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذكر والآثي ، والهاء فيه للبالغة ،

وقال الشاعر :

الناس يملُّ بُبوت الشعر كم رَجُلٍ منهم بألفٍ وكم يَبْتَ بديوانٍ
وفي هذا المعنى يقول المعري :
الناس كالشعر تُلَنَّى الأرض جائشةً بالجمع يُزجى وخيرٌ منهم رَجُلٌ

لو تكاشفتُم ما تدافنتُم

ومن كلمة سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ .
يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاسْتَنَقَلَ تشيعه ودَفَنه . . . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفي الناس شرٌّ لو بدَّما تعاشرُوا ولكن كساهُ الله ثوبَ غطاء

وقالوا في ذم الناس :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى
وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

وقال المعري :

يَحْسُنُ مَرَأَى لَبْنِي آدَمَ وكلهم في الدَّوْق لا يَعْدُبُ
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسِكٌ إلَّا إلى نَفْعٍ له يَجْدُبُ
أَفْضَلُ من أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لا تَظْلِمُ الناس ولا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلِهِمْ
لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَلَسُّبُهُمْ أَيْنَ أَذْنَاهُمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعُ حَسِيسًا ، ولا أَرَى أَنَيْسًا ، صَبِيانٌ حَيَارَى ، ما لَهم تَفَاقَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفَرَّاشُ نَارٍ ، وَذِبَابٌ طَمَعٌ . وَقِيلَ لِسَفِيانِ الثَّوْرِيِّ : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تَوْجِدُ . . . وَقَالَ فُلَانٌ : رَأَيْتُ كُتْلُومَ بْنِ عَمْرِو الْعَتَابِيِّ يَا كُلَّ خُبْرٍ فِي الطَّرِيقِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَمَا تَسْتَحْيِ أَنْ تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي دَارٍ فِيهَا بَقَرٌ ، أَمَا كُنْتُ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَؤُلَاءِ بَقَرَاتُهُمْ قَالَ : إِنْ شِئْتُ أَرَيْتُكَ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَامَ وَوَعِظَ ، وَجَمَعَ قَوْمًا ثُمَّ قَالَ : رُويَ عَنْ غَيْرِ وَجْهٍ : أَنَّ مِنْ بَاغِ لِسَانِهِ أُرْتَبَةً أَنْفَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لِسَانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ !

وقال رجل لأحد الشعراء : أَيْنَ سَكَةُ الْحَمِيرِ ؟ فَقَالَ : اسْلُكْ أَيَّ سَكَةٍ شِئْتُ فَكُنْتُهَا دُرُوبُ الْحَمِيرِ . . . وَمِثْلُ هَذَا مِنَ النُّوَادِرِ الْمُسْتَطَرَفَةِ . . .
وقال بعضهم : النَّاسُ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : آسَادٌ ، وَذُنَابٌ ، وَثَعَالِبٌ ، وَضُنَانٌ ، فَأَمَّا الْآسَادُ فَالْمُلُوكُ - وَهِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحُكَامِ الْمُسْتَبْدِينَ - وَأَمَّا الذُّنَابُ فَالْتَّجَارُ ، وَأَمَّا الثَّعَالِبُ فَالْقُرَّاءُ الْخَادِعُونَ ^(١) . وَأَمَّا الضُّنَانُ فَالْمُؤْمِنُ - يَرِيدُ الطَّيِّبَ الْكَرِيمَ - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ . وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةَ :

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ فَمَا تَرَى لِيَذِي شَيْئَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَارِي فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أكَثَرُ عِنَافِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النَّهْايَةِ . أَيْ أَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ نَفْيًا لِلنَّهْمَةِ عَنْ أَنْتَفُسِهِمْ وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَضْيِيعَهُ وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ

« يقال هُم سَوَاسِيَّةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَّةٌ : إِذَا اسْتَوَوْا فِي اللُّومِ وَالْحَسَةِ
والشر، وقال آخر :

شَبَابُهُمْ وَشِدْيَهُمْ سَوَاءٌ سَوَاسِيَّةٌ كَأَسْنَانِ الْحَمَارِ
« وَأَسْنَانِ الْحَمَارِ دَسْتِيَّةٌ ،

وقال دُرَيْقَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

كَأَنَّ خَلِيلِي كُنْتُ خَالَاتُهُ لَا تَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَةً ^(١)
نَدِمَ أَرْوَيْجُ بْنُ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ

وقال المتنبي :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسُ خِيَابَا جَزَيْتُ عَلَى ابْنِ سَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعَلِّي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

وقال ابن الرومي :

رَأَيْتُ أَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثَّلَبِ لَهَا الثَّالِبُ ^(٢)
وَلَا عِلَاجَ لِلنَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذَنْ لَفَاحِ الْحَمَاءِ اللَّازِبُ ^(٣)

وقال المتنبي :

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلَهُ فَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمَهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سِبَاعُ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاجْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ التَّمَسَّ شَيْءٌ غَلَابًا وَاجْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
كُلُّ غَايٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضَبُ نَفَرًا رَبَّيَالًا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحمأ : الطين الاسود المنين ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

إنا لفي زمن تركُ القبيح به من أكثر الناس إحساناً وإجمالاً
لولا المشقة ساد الناس كلُّهم الجود يُفقر والإقدام قتال

وقالوا في أن من شيم الناس أن تحمّد من رشّد وتلوم من يغوى
وفي ذلك يقول القطامي :

والناس من يلقّ خيراً قائلون له ما يشتهى ولاّم المخطئ الهبل^(١)
وقد أخذه من قول المرّتش الأصغر :

ومن يلقّ خيراً يحمّد الناس أمره ومن يغير لا يعدّم على الغي لا بما
وهذا كعمري من عناوين اللوم المركب في الطباع .

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السّفلة الاندال والقائل : خيداش

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عمّ لييد :

فإنّك لا تُبالي بعمد حوّل أظبيّ كان أمك أم جمار

فقد لحق الأسافل بالأعلى وماج اللؤم واختلط النّجار

وعاد الفند مثل أبي قُبَيْسٍ وسيق مع المعلّهجة العشار

« النّجار : الأصل . والفند : قطعة من الجبل طويلاً ، وأبو قُبَيْس جَبَل

بمكة ، والمراد به : الرّجل الشريف ، كما يُراد بالفند ، الرجل الوضع ، والمعلّهجة :

المرأة اللّثيمة الأصل الفاسدة الذّنب . والعشار : جمع العُشراء : النّاقة مضى

لحمها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أما وقد لحق الأسافل بالأعلى

واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللؤم ونفقت

(١) الهبل : الثكل - الفقد -

سُوقَهُ وعاد الخسيس مثل الشريف حتى سبقت الإبل الحوامل في مهر اللئيمة
وتغير بذلك الزمان واطرحت مراعاة الأنساب فلا تبالى بعد قيامك بنفسك
واستغنائك عن أبويك ، مَنْ انتسبت إليه ، شريفاً كان أم وضيعاً... وضرب
المثل بالظبي والحمار وجعلهما أمين وهما ذكران لأنه مثل لا حقيقة ، وقصد
قصد الجنسين ولم يحقق أبوة . وذكر الحول ، لذكر الظبي والحمار ، لأنهما
يستغنيان بأنفسهما بعد الحول ؛ فهذا شاعر ساخط كما ترى »

وقال ابن الرومي :

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُهُ شَرَفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ لَوْلُوهُ سُفْلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِحْفُهُ

وقال :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شِسْمٍ شَرِيفَةٍ
كَمِثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ حَيٌّ وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جِحْفَةٍ
أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ

وقال الوزير المغربي :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِيهَةٌ يُضَامُ الْعَلَى بِاعْتِلَانِهِ
كَذَا الْمَاءِ إِنْ حَرَّ كُنْهُ يَدُّ طَامًا عَكِرُ رَاسِبٌ فِي إِنْائِهِ

وقال المعري في الناس :

لَقَدْ قَتَّشْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَهُمْ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَهُمْ رِيَاءُ
فَالْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا الدَّلِيلَ وَلَا ضِيَاءُ
وَإِخْوَانُ الْفَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمٍ أَنْبِيَاءُ
فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوَّلُونَ فَأَغْيَاءُ

فإن كان الثقي بَلَمَّا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقِيَاءُ
 « الأعيار : جمع عَيْر ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلبس :
 ولا يقيم على ضميمٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
 فذاك يُخَسِّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشَجُّ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ
 وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمُّتُ فِعَالَكُمْ فَإِنِّي بِنَفْسِي لَا تَحَالَةُ أَبَدًا
 مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ فَتَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
 تَجَاوَزَ هَذَا الْجِسْمُ وَالرُّوحُ بُرْهَةً فَمَا بَرِحْتُ تَأْذَى بِذَلِكَ وَتَصْدَا
 وقال المعري :

جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَا تَرَكْتُ لِي التَّجَارِبَ فِي وَدَائِمِي غَرَضًا
 وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ تَشِدُّ وَتَنَائِي عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ
 تَوَاصَلَ حَبْلُ السَّلِّ مَا بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنِي وَلَمْ يُوَصَّلْ بِإِلَائِي بَاءُ
 تَنَاءَبَ عَمُّو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ يَبْغُدُونِي فَمَا أَعْدَتَنِي الثُّبَاءُ
 وَزَهَّدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَعَلَيَّ بَأْسُ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ
 وقال المعري :

أُرَايِكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتْ بِذَلِكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِثَاءُ
 وَقَدْ يُخْلِفُ الْإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُوءَاءُ
 إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ يَنْصَحُ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرُوءَاءُ
 وقال :

إِذَا بَكَرُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا فَإِنَّ كِلَيْهِمَا لَابْ وَأَمَّ

وفي كُليّ الطباع طباعٌ نَكَزٍ وليس بجميعهنّ ذواتِ سُمٍّ
« النكر : تسع الحية »
رَأَيْتُ الْحَقَّ لَوْلُوَّةٍ تَوَارَتْ يَلُجُّ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمٌّ

وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبَعِ ثَابِتٌ فَهُمْ مُجِدُّ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلُ
سَخَوِ الْقَوْلِ النَّاسُ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكَرَ فِي الْهَيْجَاءِ قِرْنُ مُنَازِلُ

وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفُ
وَالْخَيْرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبِيعِهِ وَإِذَا اللَّثِيمُ سَخَا فَذَاكَ تَكَلُّفُ
شَكَوْتُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَذْرَهُمْ

لَا تُنْكَرَنَّ فَعَلَى هَذَا مَضَى السَّالِفُ
وَقَلَّمَا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَلَدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلَفُ
أَسَى النِّفَاقِ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوَّى سَرْدَهَا الْخَلِيفُ
« الخلف : اليمين »

فَحَسَّنَ الْوَعْدَ بِالْإِنْجَازِ تَتَبِعَهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخُلَافُ

وقال :

إِذَا قَوَّعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنَّا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْقَزَعِ
وَشِيْمَةُ الْإِنْسِ مَزُوجٌ بِهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرِ وَلَا جَزَعِ

وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاءَ أَهْلِهِ وَجَارَ عَلَيْهِ النَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْعِرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمَا يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوَيْدَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلَى الطَّرْسِ
وقال :

أَهْرَبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فَمِثْلَ سَابِ جَرَّه السَّاحِبُ (١)
يَمْتَنِّعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَاخِبُ (٢)
وقال :

إِنْ مَازَتْ النَّاسَ أَخْلَاقُ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبْعِ أَسْوَاءُ
أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَيُنْسَ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَلْقِ حَوَاءُ
بُعْدَى مِنَ النَّاسِ بُرءٌ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلصِّحْجَى وَالذِّينَ أَدَوَاءُ
كَالْبَيْتِ أَفْرَدَ لَا لِإِطَاءٍ يُدْرِكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءُ (٣)
وقال :

قَدْ حُجِبَ الثَّوْرُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دِينُنَا رِبَاءُ
يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنَّ مُصْلِكَ أُنْقِيَاءُ
كَمْ وَعَظَ الْوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ
فَانْصَرَفُوا وَالْبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكُ الْعِيَاءُ
« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أُغْيَاءُ

(١) السَّابُ : زق الخمر

(٢) اللَّقَى : الملقى على الأرض ، والشاحِبُ : المهزول المتغير اللون لعارض كمرض ونحوه

(٣) الإِطَاءُ : تكرر القافية بلفظها ومعناها ، والاقْوَاءُ : اختلاف إعراب القوافي ،

والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروي كارداف قافية وتجريد أخرى

وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلِّ الْمَقَامُ فَكُمُ أَعَاشِرُ أُمَّةٍ أَمَرَتْ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا أَمْرًاؤَهَا
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أُجْرَآؤَهَا

وقال بشار بن برد :

خَيْرُ إِخْوَانِكَ الْمُشَارِكُ فِي الْمُسْرِ وَأَيُّنَ الْمُشَارِكُ فِي الْمَرْ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي الْحَمَى وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أَذَنًا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ الْيَاقُوتِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَّاهُ الْبَسْلَاءُ فَازْدَادَ زَيْنَا
أَنْتَ فِي مَعْشَرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَّلُوا كُلَّ مَا بَيْنُكَ شَيْنَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْزَمِ السَّبْرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى الْأَنَامَ يُودَّ صَاحِبَا عَادَ كُلُّ الْوِدَادِ زُورًا وَمَيْنَا

وقال ابن الرومي :

ذُقْتُ الطُّغُومَ فَمَا التَّدَذُّتُ بِرَاحَةٍ مِنْ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ وَالْإِشْرَارِ
أَمَّا الصَّدِيقُ فَلَا أَحِبُّ لِقَاءَهُ حَذَرَ الْقَلَى وَكَرَاهَةَ الْإِعْوَارِ
وَأَرَى الْعَدُوَّ قَذَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ فَهَجَرْتُ هَذَا الْخَلْقَ عَنْ إِعْذَارِ
أَرْنِي صَدِيقًا لَا يَنْوِي بِسَقْطَةٍ مِنْ عَيْنِهِ فِي قَدَرٍ صَدْرُ نَهَارِ
أَرْنِي الَّذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنْ أَقْلٍ عِشَارِ
أَحِبُّ قَوْمًا لَمْ يُحِبُّوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِفِرْدَوْسٍ لَدَيْهِ وَنَارِ

وقال :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْبِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى آتِقْلَابِ

ولو كان الكثير يطيب كانت صاحبة الكثير من الصواب
وما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى فى النطف العذاب
وبعد فإن هذا الباب متسع جدا ، وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فيه فى باب
الإخوانيات وباب الطبائع ، فلنجتزئ بهذا المقدار .

الغوغاء

ولهم فى السقاط والسفلة وهذه الرجرة من الناس كلام كثير ، فمن ذلك قول
واصل ابن عطاء : أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ هَذِهِ السَّفَلَةَ ، تَوَادُّ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتَحَادُّ مَنْ
وَادَّ اللَّهَ وَنَبِيَّهَ ، وَتَذُمُّ مَنْ مَدَحَهُ اللَّهُ ، وَتَمْدُحُ مَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ ، عَلَى أَنْ بِهِمْ
عِلْمُ الْفَضْلِ لِأَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ ، وَبِهِمْ أُعْطِيَ الْأَوْسَاطُ حَظًّا مِنَ النَّبْلِ ...
ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه . وقد أتى بجنان ومعه غوغاء —
فقال : لا مرحباً بوجوه لا ترى إلا عند كلِّ سَوْأَةٍ ... وقوله رضى الله عنه :
هم الذين إذا اجتمعوا ضُرُّوا وإذا تفرقوا نَفَعُوا ؛ فقل له : قد عَلِمْنَا مَضَرَّةَ
اجتماعهم فما منفعة انقراهم ؟ فقال : يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم ، فينفع
الناس بهم ، كرجوع البناء إلى بنائه ، والنساج إلى منسججه ، والخباز
إلى مخبزه .

وكان الحسن البصرى إذا ذكر الغوغاء والشوق يقول : قتلة الأنبياء ،
وكانوا يقولون : العامة كالبحر إذا هاج أهلك راكمه ، وكان المأمون الخليفة
العباسى يقول : كلُّ ثمر وظلم فى العالم فهو صادرٌ عن العامة والغوغاء ؛ لأنهم
قتلة الأنبياء ، والسعاة بين العلماء ، والنماون بين الأوداء ، ومنهم اللصوص

وَقَطَّاعِ الطَّارِقِ وَالطَّرَارُونََ وَالْمُحْتَالُونَ وَالسَّاعُونَ إِلَى السَّاطِنِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ حُشِرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي السَّعَايَةِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا وَآتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُّهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا... وَقَالَ الْجَاحِظُ : الْغَاغَةُ وَالْبَاغَةُ ^(١) وَالْحَاكَةُ كَأَنَّهُمْ إِعْذَارُ ^(٢) عَامٍ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ أَبَدًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ ، هَوْلًا ، إِلَّا بِمَقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، مِنَ السَّخْفِ وَالنَّقْصِ وَالْخَوَلِ وَالْغَبَاوَةِ .

وَمِنْ كَلِمَةِ أَسِيدِنَا عَلَى فِي فَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ وَوَصْفِ الطَّغَامِ — قَالَ كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ النَّخَعِيُّ : أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانِ ^(٣) ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ تُغَيِّرُهَا أَرْعَاها ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ ، فَقَالِمُ رَبَّانِي ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاتٍ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَاجِأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا كَمَيْلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزُكُّو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَلِيحُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ ؛ يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ ، هَلَّاكَ حُزْنُ الْآهْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ . إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْعُلُويَّةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ...

(١) الَّذِي فِي اللِّسَانِ : وَبُغَاءُ النَّاسِ : سَفَلَتُهُمْ وَطَاشَتُهُمْ وَحَقَاقُهُمْ .

(٢) الْإِعْذَارُ : الْحُتْنَانُ وَطَعَامُ الْحُتْنَانِ وَفِي الْحَدِيثِ : كُنَّا إِعْذَارَ عَامٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

(٣) الْجَبَانُ وَالْجَبَانَةُ يَرِيدُ الصَّحْرَاءَ .

خَتْنًا فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَخْتَنُونَ لِسَنَ مَعْلُومَةٍ فِيمَا بَيْنَ عَشْرِ سَنِينَ وَخَمْسِ عَشْرَةٍ

(٤) تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ : أَيْ تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا

وقال معاوية رَضْعَصَعَةَ بن صوحان : صِف لي الناس ، فقال : خُلِقَ الناس أطوارا ، طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفقهِ والسُّنة ، وطائفة للنبأِ والنَّجدة ، ورَجِرَةٌ بين ذلك ، يُغْلُونَ السَّعِر ، وَيَسْكَدُّونَ المَاء ، إذا اجتمعوا ضَرَبُوا ، وإذا تفرقوا لم يُعَرَفُوا ... ومن طريف التفاسير وغريبها ما قيل في قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » أى من السلطان « أو من تحت أرجلكم » أى من السَّفَل .

وقال دُعَيْل :

ما أَكْثَرَ الناسَ لا بِل ما أَقْلَهُمْ اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
لَمَنِّي لَا فَتَحْ عَيْنِي أَفْتَحُهَا على كثيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدَا
وهم يشبهون سوادَ الناسِ بالدُّبَا ، والدُّبَا مقصور : الجراد قبل أن يطير ،
وفي حديث عائشة قالت : كيف الناس بعد ذلك ؟ قال : دَبَى يَأْكُلُ شِدَادُهُ
ضِعَاعَهُ حَتَّى يَقُومَ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ ...

قلة الوفاء في الناس وشيوع الغدر والمكر في عاقبتهم

وقالوا في قلة الوفاء في الناس ووصف عاقبتهم بالغدر ، والمكر السيئ ،
ومن أروع ما قيل في ذلك قوله عز وجل : « وما وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » .. وقال سبحانه : « الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنْ بَعدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » ...

وقال : « أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْفِيَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، وقال : وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ . وقال : إِنَّمَا
بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ... وقال المتنبي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْجِدُحُ إِن قَاتَلُوا جَبُونَا أَوْ حَدَّثُوا سُجْعُوا
أَهْلُ الْحَفِيزَةِ إِلَّا أَنْ تُجَرَّبَهُمْ وَفِي التَّجَارِبِ بَعْدَ الْغَىِّ مَا يَزَعُ
وقال أبو فراس الحمداني :

بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ وَمَنْ أَيْنَ لِلْحَرِّ السَّكْرِيمِ صَحَابُ
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِنْ ثِيَابُ
وقال أبو تمام :

إِنْ شِئْتُ أَنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلَّهُ فَأَجِلْهُ فِي هَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ
لَيْسَ الصَّدِيقُ بِمَنْ يَعِيرُكَ ظَاهِرًا مَتَبَسِّمًا عَنْ بَاطِنٍ مَتَجَهِّمِ
« يقول : إِنْ شِئْتُ أَنْ لَا تَظُنَّ بِأَحَدٍ خَيْرًا فَاخْتَبِرْ مَنْ شِئْتُ مِنْ هَذَا النَّاسِ ،
وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعزَّ ما يرى . وكان يقول : هو أعزُّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كافأوه بالغدر »

وكانت العرب إذا غَدَرَ مِنْهُمْ غَادِرٌ ، يوقدون له بالموسم نارًا
وينادون عليه يقولون : أَلَا إِنْ فَلَانًا غَدَرَ ... وقالوا : رُبَّ حِيلَةٍ أَهْلَكَتِ
المُحْتَالَ ، وقال امرؤ القيس :

أَحَارِ بْنِ تَحْمِيرٍ كَأَنِّي نَحِيرُ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِمِرُ
« رجل نَحِير : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء ياتمر لغيره
بسوء . فيرجع وبأل ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وَكَمْ مِنْ حَافِرٍ لِأَخِيهِ لَيْلًا تَرَدَّى فِي حَفِيرَتِهِ نَهَارًا
ومن قولهم في وصف الغادر : فَلَانٌ يَحْسُو الْأَمَانَاتِ حَسْوًا ، وفلان

أَغْدَرَ مِنَ الذُّئْبِ ، قَالَ : * هُوَ الذُّئْبُ وَلِلذُّئْبِ أَوْقَى أَمَانَةٍ *

وَقَالَ : * وَالذُّئْبُ يَأْدُو لِلْغَزَالِ يَأْكُلُهُ * .

« يَأْدُو لِلْغَزَالِ : يَخْتَلِهَ لِأَكْلِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

- كَحَتْنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَائِلٌ يَأْدُو لِصَيْدٍ ،

وَيُقَالُ : رَكِبَ فُلَانٌ السَّخْبَرَ : إِذَا غَدَرَ ، قَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ
إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ

قَالَ ابْنُ بَرْتِي : إِنَّمَا شَبَّهِ الْغَادِرَ بِالسَّخْبَرِ ، لِأَنَّ السَّخْبَرَ شَجَرٌ إِذَا انْتَهَى اسْتَرْخَى رَأْسُهُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى انْتِصَابِهِ ، يَقُولُ حَسَنُ : أَنْتُمْ لَا تَنْبُتُونَ عَلَى وِفَاءٍ كَهَذَا السَّخْبَرِ الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى حَالٍ ، بَيْنَمَا يُرَى مُعْتَدِلًا مُنْتَصِبًا ، عَادَ مَسْتَرْخِيًا غَيْرَ مُنْتَصِبٍ » وَبَعْدَ فَانْهَمٍ عَلَى هَذَا نَصَحُوا بِمَدَارَاةِ النَّاسِ مَا دَامَ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ غَيْرَ

مُسْتَطَاعٍ . قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَبَّاسٍ : ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُغْنِيَنِي عَنِ النَّاسِ فَقَالَ : إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كَاتِّصَالِ الْأَعْضَاءِ ، فَتَنِي يَسْتَعْنِي الْمَرْءُ عَنْ بَعْضِ جَوَارِحِهِ ؟ وَلَكِنْ قُلْ : أَغْنِنِي عَنْ شِرَارِ النَّاسِ . وَرَوَى : أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَطُوفُ وَيَقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي بِضَائِعَ بَعْشَرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ فِدَعَاهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَبَذَلَ لَهُ الْمَالَ فَقَالَ لَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا شَرًّا مِنَ النَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ النَّاسِ فَانْظُرْ كَيْفَ تَحْتَاجُ أَنْ تَعْمَلَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا غِنَى بِكَ عَنْهُ ... ثُمَّ قَالَ : هَلْ يَسَاوِي هَذَا الْكَلَامُ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : دُونَكَ الْمَالَ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ ... وَقَالُوا : ثَلَاثًا التَّعَاشِ ، مَدَارَاةِ النَّاسِ . وَفَالِ النَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ أَحَدُ شُيُوخِ الْمَعْتَزِلَةِ - : مَا يُشْرِنِي تَرْكُ الْمَدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيَكَ فَشَحَّصَتْ له أُرْدَاكَ ، وإذا طَاطَتْ له تَخَطَّاك ... وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعْرَةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتُها ... وقال أكرم بن صَيْفِي : الانقباض من الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وإفراط الأُنس مَكْسَبَةٌ لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لا تَكُن حُلُوءًا فَتُسْتَرْطَ ولا مُرًّا فَتُلْفَظَ « استرطه ابتلعه ، وجاء في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عجز ، كالخشب المنصوبة في الشمس ، تَمَالُ فيزيد ظلها ، ويُفَرِّطُ في الإمالة فيَنقُصُ الظل ...

وقال الطغرائي في لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :
وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فُظُنُّ شَرِّهِ وَكُنْ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضُ الْغَدْرِ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللائم

اللُّؤْمُ : ضِدُّ الْعِثْقِ وَالْمَكْرَمِ ، وَاللَّيْمُ : الدَّنَاءُ الْأَصْلِي الشَّجِيحُ النَّفْسُ :
وَالنَّذَاةُ : الْحِسَّةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَكَةُ الْغَقْلِ وَالتَّأَخُّرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذَلُ :
الْخَسِيسُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرْوَةَ له . ومن عبقرياتهم في هذا الصنف
من الناس قولُ أَبِي الْأَسَدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النِّمَيْي - شاعر كان معاصراً
لأبي تمام : -

إِنْ يَنْخَلُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَغْدِرُوا لَا يَخْفِلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ - مَنْ كَانَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَيِّ بَرَأَقَشٍ كُلِّ لَوْ نَبَّ لَوْ نُهِ يَتَخَيَّلُ

« وَهَـفَ قَوْمًا مَشْهُورِينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ غَدُوَّهُمْ مُرَجِّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْفِلُوا . وَالْتَرَجِيلُ : مَشَطُ الشَّعْرِ وَإِسَالُهُ . وَأَبُو بَرَأَقَشٍ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيشُهُ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَأَسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَتَّى . وَهَذَا أَبُو بَرَأَقَشٍ غَيْرُ بَرَأَقَشٍ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا دَلَّتْ بَرَأَقَشُ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ بَرَأَقَشُ فَرَجَعَ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرَأَقَشُ وَقَعَّ حَوَافِرِ الْخَيْلِ ، فَتَبَحَّتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ زَبَاحِهَا ، فَطَفَّوْا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحَوْهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأَةً وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجَنَّى بَرَأَقَشُ ، قَالَ حَمْرَةُ بْنُ بَيْضٍ :

لَمْ تَكُنْ عَنْ جَنَائِي لِحَقَّتِي لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتِي
بَلْ جَنَّاها أَخٌ عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَأَقَشُ تَجَنَّى

وقال آخر — وهي من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام : —

أَنَاخَ اللَّؤْمُ وَسَطَ بَنِي رَبَاحٍ مَطِيئَتُهُ فَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يُقَالُ : انْتَحَتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يُقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَفْعَى عَنْهُ بِغَيْرِهِ ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ ذِي سَفَرٍ مُبْتَدَأٌ وَمَقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رَكُلُ مُسَافِرٍ إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُلْقَى عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللَّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نَقَلَ الْبُحْتَرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمَذْحِ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ ،

وقال جريير :

وَكُنْتُ إِذَا نَزَلْتُ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتُ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكَتُ عَارَا

وقال :

تَمِيمٌ بِطَرِيقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلِمَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ صَلَّتْ
وَقَالُوا فِيمَنْ لَا يَصْلُحُ لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ : فُلَانٌ أَمْلَسَ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ
لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالُوا : فُلَانٌ مَا هُوَ إِلَّا بِرْطَبٍ فَيُعْصَرُ وَلَا يَبْيَاسُ فَيَكْسَرُ .
وَقَالُوا : شَرُّ النَّاسِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّى أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مُسِينًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَجَلُّوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُوهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشَى الْغَدْرُ وَالْمَكْرُ فِي هَذَا النَّاسِ مَدَحُوا الْاِحْتِرَاسَ وَالْخَذَرَ وَسُوءَ
الظَّنِّ بِالنَّاسِ . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا الْحَزْمُ ؟ قَالَ : سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ . وَقَالَ
الشَّاعِرُ الْبَيْهَاقُ :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ

وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي

فَأَذِنَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وَقَالُوا عَلَيْكَ بِسُوءِ الظَّنِّ ، فَإِنْ أَصَابَ فَالْحَزْمُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَالْإِسْلَامَةُ .
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ لَأَنْتُمْ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ جُلَّةُ
صَوَابٍ . وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : قَرُوبُ مَا بَيْنَ عُمَرَ وَعُثْمَانَ أَنَّ عُمَرَ
أَسَاءَ ظَنَّهُ فَأَحْكَمَ أَمْرَهُ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ أَحْسَنَ ظَنَّهُ فَأَهْمَلَ أَمْرَهُ . وَقِيلَ

لبعضهم : أسأت الظن فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكاره وجب على العاقل أن يمسأها حذرًا ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يعد من الإفراط الممقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذموه ونعوه على أهله ، قال تعالى : اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم . وقال سيدنا رسول الله : ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد ، قيل : فما المخرج منهن يارسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ . . . وقال صلوات الله عليه : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . وقال ابن الأثير في النهاية : أراد : إياكم وسوء الظن وتحقيقه ، دون مبادئ الظنون التي لا تملك وخواطير القلوب التي لا تدفع ، وقيل : أراد : الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به . وأكذب الحديث : أى حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبى :

إذا ساءَ ففعل المرء ساءَ ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عذاته فأصبح في داج من الشك مظلم

وقال شاعر :

من ساءَ ظناً بما يهواه فارقه وحرصته على إبعاده التهم

ومن هنا مدحوا التثبت والتغافل . وترى سائر عقرياتهم في الظن في

باب الطبائع و باب الإخوانيات .

الشّماتة

والشّماتة : الفرح بِبَيْلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ تُعَادِيهِ ، تقول : شِمْتُ بِهِ يَشْمِتُ شِمَاتَةً وَشِمَاتًا ، وَأَشْمَتُهُ اللَّهُ بِهِ ، وفي القرآن الكريم : فلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ . . . وقد تقدم طَرَفٌ من عبقرياتهم في الشّماتة بالموت ، ومن عبقرياتهم في الشّماتة مطلقًا قول الفرزدق :

إذا ما الدهرُ جَرَّ عَلَى أَناسٍ حوادثُهُ أَنَاخَ بآخرِينَا
فَقُلْ لِلشامِتِينَ إِنَّا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشامِتُونَ كما لَقِينَا
وقيل لِأَيُّوبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلامُ : أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ فِي بِلَانِكَ ؟
قال شِمَاتَةُ الْأَعْدَاءِ .

الحَقْدُ

الْحَقْدُ — كما جاء في اللسان — : إِمْسَاكُ الْعَدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ وَالزُّبُنِ
لِفِرْصَتِهَا ، قال : والحَقْدُ : الضُّغْنُ . قال : وَحَقَّدَ عَلَى يَحْقِدُ حِقْدًا ، وَحَقَّدَ
— بالكسر — حَقْدًا وَحِقْدًا فهو حَاقِدٌ ؛ فَالْحَقْدُ : الفعل ، وَالْحِقْدُ : الاسمُ ،
وَتَحَقَّقَ : كَتَحَقَّقَ ، قال جرير :

يَا عَدُوَّ إِنِّ وَصَالَهُنَّ خِلَابَةٌ وَلَقَدْ جَعَنْ مَعَ الْبِعَادِ تَحَقُّدًا
« وبعد ، فَالْحَقْدُ عَلَى أَنَّهُ خَلَّةٌ لَا تَتَفَقُّ وَالنُّبْلُ وَالشُّوَدَدُ وَمَكَايِمُ
الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهُ دَلِيلُ الْخِيَوِيَّةِ ، وَمَنْ ثَمَّ يَكَادُ يَكُونُ خَلَّةً مَرَّ كَوْزَةً فِي الطَّبَاعِ ،
وَإِذَا كَانُوا قَدْ مَدَحُوهُ فَإِنَّمَا يَتَرَامُونَ — كما قلنا — إِلَى أَنَّهُ عُنْوَانُ الْخِيَوِيَّةِ وَأَنَّ
مَنْ لَا يَحْقِدُ لَا يَشْكُرُ ، وَإِذَا هُمْ ذَمُّوه ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى تَنَاسِيهِ وَأَنَّ
مِنْ سُمُو الْأَخْلَاقِ أَنْ لَا يَحْمِلَ الْمَرْءُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ ، كما قال الْمُقَنَّنُ الْكِنْدِيُّ »

واسمهُ محمد بنُ عُمَيْرَةَ ، وهو شاعرٌ كُنْدِيُّ إِسْلَامِيٌّ^(١) ، وكان أَحْسَنَ الناسِ
وَجْهًا إِذَا سَفَرَ لُقِيعَ ، أَي أَصَابَتْهُ الْعَيْنُ ، فَيَمْرُضُ وَيَلْحَقُهُ عَذْتُ ، فَكَانَ
لَا يَمْشِي إِلَّا مُقَنَّعًا ، قَالَ مِنْ أَيْيَاتٍ جَمِيدَةٍ تَرَاهَا فِي حِمَاةِ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِهَا :
وَلَا أُحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَلَيْسَ رَأْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم في ذم الحقد : فمن ذلك ما يُروى : أَنَّهُ قِيلَ الْأُحْنَفُ بْنُ
قَيْسٍ : مَنْ أَسْوَدُ النَّاسِ ؟ فَقَالَ الْأَخْرَقُ فِي مَالِهِ الْخَطْرُ حَقْدِهِ :
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ يَذَمُّهُ بَعْدَ أَنْ مَدَحَهُ ، كَمَا سَيَأْتِي :
يَا مَادِحَ الْحَقْدِ مُخْتَالًا لَهُ شَبْهًا لَقَدْ سَلَكَتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثْنَا^(٢)
كُنْ يَقْلِبَ الْعَيْبَ زِينًا مَنْ يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَانِيًا حَدَثًا^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الايات الجيدة في صاحب السوء :
وصاحبُ السَّوِّءِ كَالِدَاءِ الْعِيَاءِ إِذَا مَا ارْفَضَ فِي الْجَوْفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنَا
يُلْبِي وَيُخْبِرُ عَنْ سَوَاتٍ صَاحِبِهِ وَمَا رَأَى عِنْدَهُ مِنْ صَالِحٍ دَفَنَّا
كَمْهُرٍ سَوِّءٍ إِذَا رَفَعَتْ سِيرَتَهُ رَامَ الْجِمَاحِ وَإِنْ خَفَضَتْهُ حَرَنَّا
إِنْ يَحْيَى ذَاكَ فَكُنْ مِنْهُ بِمَعْرَلَةٍ أَوْ مَاتَ ذَاكَ فَلَا تَعْرِفْ لَهُ بَجَنَّا
« دَاءُ عِيَاءٍ : لَا يُبْرَأُ مِنْهُ ، وَرَفَعَتْ سِيرَتَهُ : حَلَّتْهُ عَلَى أَنْ يَزِيدَ فِي سُرْعَةِ
سِيرِهِ ؛ وَالْجَنِّ - بِالتَّحْرِيكِ - الْقَبْرِ » .

(٢) وعك الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَبِيحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شِعْثًا ^(١)
 كَمْ زَخَرَفَ الْقَوْلَ ذُو زُورٍ وَلَبَّسَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَّمَا لَيْثًا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُزْرِ مَعًا فَلَنْ نَرَى سَيِّئًا مِنْهُمْ مُنْتَكِبًا
 يَا دَاوُدَ الْحَقُّدُ فِي ضِعْفِي جَوَانِحِي سَاءَ الدِّفْنُ الَّذِي أَمْسَتْ لَهُ جَدْنَا ^(٢)
 الْحَقُّدُ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرَى الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمَرَهُ حُرْنَا ^(٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَابَةِ تَأْنِمْ يَبْرَأُ الْمَصْدُورُ مَا نَفْنَا ^(٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأَوْتَارِ مَا عَظُمْتُ

وَلَا تَكُنْ رِصْفِيرَ الْأَمْرِ مُكْتَرِنًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرْمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الْأَكْبَادُ أَوْ قَرْنَا ^(٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحَيًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرْنَا ^(٦)

(١) شعث : منتشر مفرق

(٢) الجدث : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذي يشتكى صدره ، وما في قوله : ما نفثا مصدريه ، ونفث : رمى
 بالنفثة وهو ما يلقى المصدور من فيه وفي المثل : لا بد للصدور أن ينثف وقد يستعار
 ذلك للبعث كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال :
 أو يستطيع المصدور أن لا ينثف ! أي لا يثقب ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان
 من الفم .

(٥) الفرث : تفثيت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الخشن ، من شرث الكف غلظ وتشقق ، والشرث
 أيضا : الخلق البالي من كل شيء فلعله من هذا أيضا .

إِذْنٌ وَسَرَكَ أَنْ يَلْسَى الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَرِيئًا
إِنِّي إِذَا تَخَلَّطَ الْأَقْوَامُ صَالِحُهُمْ بِسَيِّئِ الْفَعْلِ جَسَدًا كَانَ أَوْ عَمِيئًا
جَعَلْتُ صَدْرِي كَقَرْفِ السَّبِيلِ حِينَهُ يَسْتَخْلِصُ الْفِصَّةَ الْبَيْضَاءَ لَا الْخَبِيثَا
وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيزِ أَمْدُوحَهُ بِحِفْظِ مَا طَابَ مِنْ مَاءٍ وَمَا حَبِيئًا

وقال يمدح الحقد:

حَقَّدْتُ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَلْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَأَعْلَمُ أَيْمَى الرَّيْعِ حَبِينَ أَيْمَى بُذْرًا
وَلَمْ تَكْ ، يَالِكَ الْخَيْرَاتُ ، أَرْضُ لِنُزْرَعِ خَرْبَقًا فَتُرْبِعَ بُرًا
أُوْدَى لَنْ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالشُّكْرِ عُرًا وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالْعُرْفِ نُكْرًا
يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْيًّا وَهُوَ مَدْحٌ كَمَا يَدْعُونَ لِحُلْوِ الْحَقِّ مُرًّا
« الْخَرْبِقُ : نَبَاتٌ كَالشَّمِّ وَرَقُهُ أَبْيَضٌ وَأَسْوَدُ ، وَالْبُرُّ : الْقَمْحُ »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك
ابن صالح فقال له : يا عبد الملك بَلِّغْنِي أَنَّكَ حَقُودٌ فقال عبد الملك : أيها
الوزير ، إن كان الحقدُ هو بقاء الخير والشرِّ لئنهما لباقيان في قلبي ، فقال
الرشيد : ما رأيتُ أحداً احتجَّ للحقد بأحسن مما احتج به عبد الملك
وقال ابن الرومي يمدح الحقد أيضا وقد عابه عائب :

لَيْنُ كُنْتُ فِي حَفْظِي لِمَا أَنَا مُودَّعٌ

من الخير والشرِّ انتَحَيْتَ عَلَى عَرَضِي

لَمَّا عِبْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةٍ وَرُبَّ أَمْرِي يُزْرَى عَلَى خُلُقِي تَحِيصٍ
وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزَى الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَّانَ دَبْنًا وَلَا تَقْضِي

وخيرُ سَجِيَّاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤْفِكُ مَا تُسَدِي مِنَ الْقَرْضِ بِالْقَرْضِ
 إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنَ الْبَذْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْ لَا الْحَقُّودُ الْمُسْتَسْكَنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَا آخَرَ الدَّهْرِ ذُو نَقْضٍ
 وَمَا الْحَقْدُ إِلَّا تَوَأُّمُ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَمْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حَقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ
 وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الْحَقْدِ كِفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْفَعُ غُلَّتَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الحسد

الْحَسَدُ وَقَانَا اللَّهُ شَرٌّ — دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمَتَأَصِّلَةِ الْحَبِثَةِ الشَّائِعَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلَاؤُنَا: الْحَسَدُ : أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الْغَبْطُ أَوْ الْغِبْطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ
 الْإِزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَكِنَّا أَخْفَفْنَا مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضَرُّ الْغَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضَرُّ الْخَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلَيْسَ كَضَرِّ الْحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صَاحِبُهُ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْخَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلِفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضَرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...
 قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضَاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيُّ مِنَ
 الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالْجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبةً عن عدم الرضا بما قَسَمَ الله له ، وأنه آتيةٌ لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذهبهم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضة الحكم القدر وتمنى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »

وفي الحديث : لا حسدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآناً فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهري : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنفقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزأ صاحب المال في ماله أو تالى القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحسدا ، أى أن يُغبطا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البلية وضعف عقيد العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسبُ الحسود ما يلقى . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أخاك ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فليَمَ نَحْسُدُ مَنْ أكرمَهُ الله ؟ وإن كان غير ذلك فليَمَ تَحْسُدُ مَنْ تَصِيرُهُ إلى النار وفي الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقال علي بن أبي طالب : ما رأيت ظالماً أشبهَ بمظلوم من الحاسد ، نفس دائم ،

وعقل هائم، وحزنٌ لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال رَوْحُ بن زبَاع الجَذَامِيُّ: كُنْتُ أَرَى قَوْمًا دُونِي فِي الْمَنْزِلَةِ عَنِ السَّاطِئَانِ يَدْخُلُونَ مَدَاحِلَ لَا دُخُلَهَا، فَلَمَّا أَذْهَبْتُ عَنِ الْحَسَدِ دَخَلْتُ حَيْثُ دَخَلُوا... وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: أَقَلُّ مَا لَتَارَكَ الْحَسَدُ فِي تَرْكِهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنْ نَفْسِهِ عَذَابًا لَيْسَ بِمُذْرِكٍ بِهِ حِطًّا وَلَا غَائِظَ بِهِ عَدُوًّا، فَإِنَّا لَمْ نَرَ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمُظْلُومٍ مِنَ الْحَاسِدِ، طُولُ أَسْفٍ، وَمُخَالَفَةُ كِتَابِهِ وَشِدَّةُ تَحْرِيقٍ، وَلَا يَبْرَحُ زَارِيَا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ وَلَا يَجِدُ لَهَا مَزَالًا، وَيُكَدِّرُ عَلَى نَفْسِهِ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَلَا يَجِدُ لَهَا طَعْمًا وَلَا يَزَالُ سَاخِطًا عَلَى مَنْ لَا يَتَرَضَّاهُ وَمُسْتَخِطًا لِمَا لَنْ يَنَالَ فَوْقَهُ، فَهُوَ مُنْقَضُ الْمَعِيشَةِ دَائِمٌ السَّخَطِ مَحْرُومُ الطَّلِبَةِ، لَا بِمَا قُسِمَ لَهُ يَقْنَعُ وَلَا عَلَى مَا لَمْ يُقَسِّمْ لَهُ يَغْلِبُ؛ وَالْمَحْسُودُ يَتَقَلَّبُ فِي فَضْلِ اللَّهِ مُبَاشِرًا لِلشَّرِّ مُنْتَفِعًا بِهِ مُتَهَلِّلًا بِهِ إِلَى مُدَّةٍ وَلَا يَقْدِرُ النَّاسُ لَهَا عَلَى قَطْعٍ وَانْتِقَاصٍ... وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنَاحُهَا لِإِسَانِ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرِفِ الْعُودِ
لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ التَّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ:

وَلَنْ يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعُ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَعْتَرِ:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحُسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ أَيْضًا: الْحَسَدُ وَالْحِرْصُ دَعَامَتَا الذُّنُوبِ، فَالْحِرْصُ أَخْرَجَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْحَسَدُ نَقَلَ إِبْلِيسَ مِنْ جِوَارِ اللَّهِ تَعَالَى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تُحْطَ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفأك دُونَ شطر
غَيْظك ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصري : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ؟ قال : لا أَبَالِكَ ،
أَنَسِيتَ إِخْوَةَ يَوْسُفَ ؟ وقالوا : الحسود غَضَبَانُ عَلَى الْقَدَرِ ، وَالْقَدَرُ
لَا يُغَيِّبُهُ - أى لا يزيل عَتَبَهُ : أى لا يرضيه - أخذ هذا المعنى منصور
الفقيه فقال :

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْآدَبَ
أَسَأْتَ عَلَى اللَّهِ فِي فِعْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
وقال معاوية : كل الناس يمكنى أن أَرْضِيَهُ ، إِلَّا الْحَاسِدَ الَّذِي لَا يَرِدُهُ
إِلَى مَوَدَّتِي إِلَّا زَوَالُ نَعْمَتِي . وقال المتنبى :

سَيَوَى وَجَعَ الْحَسَادِ دَاوِي فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحْوِلُ
وقال آخر :

كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عِدَارَةٌ مِنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
ويقال : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدواً لَا يَرْخُمُهُ سُلْطَانُ عَلَيْهِ
حَسَدًا ... وقال العُثْبِيُّ - وذكر وَلَدُ الَّذِينَ مَاتُوا - :
وَحَسْبِي بَكِي لِي حَسَادُهُمْ وَقَدْ أَتَرَعُوا بِالْدموعِ الْعَيُونَا
وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَاسِرٍ يَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا
وقالوا : مَنْ دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدَ كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لِأَنَّهُ لَوْ زَهَدَ فِيهَا مَا حَسَدَ عَلَيْهَا
وقال البحتري :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَغْنٍ بَارِدُ السَّدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحَسَوِدِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومك ! فقال :
إنَّ العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للناس حُسَّادا^(١)

وقال آخر :

وترى اللبيب مُحَسَّدًا لم يجترِمْ شتمَ الرجال وعِرْضُهُ مَشْتُومٌ
جسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالتقَّومُ أعداءُ له وخصومُ
كضرائرِ الحسَاءِ قُلْنَ لوجهها حسدا وظلمًا : إنه لدميمٌ

وقال آخر :

إنَّ تحسِّدوني فإني لا ألومكم

قبلي من الناس أهلُ الفضلِ قد حَسَدُوا

فدام لي ولهم مابي ومابهم وماتَ أكثرنا غيظًا بما يجحدُ
أنا الذي تجِدُونِي فِي حُلُوقِكُمْ لَا أُرْتَقِي صَدْرًا عَنْهَا وَلَا أَرِدُ^(٢)

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقْبَازٍ بقولِ سُويْدِ بْنِ أَبِي كَاهِلٍ — شاعر

جاهلي إسلامي — :

كيف يرجون سقاطي بعد ما جَلَّلَ الرَّأْسَ بِيَاضٍ وَصَدَّعَ
رُبَّ مَنْ أَنْصَجَتْ غَيْظًا صَدْرَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ
وِيرَانِي كَالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَسِيرًا خُزَّجُهُ مَا يُنْتَزَعُ
مُزِيدًا يَخْطُرُ مَا لَمْ يَرْنِي فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي أَنْقَمَعَ

(١) عرانيين القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرنيين الأتف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرانيين

(٢) لا أرتقي صدرًا ولا أريد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غيرَ أَن يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ ^(١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَا قِيَّتُهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهْ لُحَى رَتَعْ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْنِفُ شَيْئًا لَا يُضَعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد :

وَصِدِّ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرَحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَصَعَّدُ ^(٢)

يَرَى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزِفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْضِي عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ ^(٣)

وَلَوْ قَاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ مَا مُنِحْتُمْ لِأَطْفَاءِ نَارَا فِي الْحَشَا تَتَوَقَّدُ

وَأَنَّقُ مِنْ عِقْدِ الْعَقِيلَةِ جِيدَهَا وَأَحْسَنُ مِنْ سِرْبَالِهَا الْمُتَجَرَّدُ ^(٤)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة ،

فقلت له : ما طَوَّلَ عُمرُكَ ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون :

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونُ مِنَ السَّكَاةِ : رَجُلٌ افْتَقَرَ بَعْدَ غِنًى ، وَغِنًى يُخَافُ عَلَى مَا لَهْ النَّوَى

— الهلاك والضياح — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبٌ مرتبته لا يبلغها قدره

وُخَاظُ الْأَدْبَاءِ بِغَيْرِ أَدَبٍ .

ومن ألفاظهم في وصف الحسد : قَدْ دَبَّتْ عَقَارِبُ الْحُسَدِ ، وَكُمُنَتْ

(١) زَقَا الدبك والطائر ونحوهما : صاح ، وكذلك الصبي إذا اشتد بكاءه ، والضروع

طائر من طير الليل إذا أحس بالصباح صدح

(٢) جدّه : حظّه

(٣) يفادُ : يحرق فزاده

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجل من العقد الذي يظن أنه يربنه ، والمتجرد -

أي الجسم العريان - أجل من السربال ، وهو القميص

أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصَدٍ : فَلَانٌ قَدْ وَكَلْ بِي لِحَظًا يَنْتَظِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...

ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحسد قول أعرابي يعظ رجلاً : وَيَحْكُ ، إِنَّ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَأَنْ أَظْهَرَ الشفقة عليك ، إِنَّ عَقَارَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عَلَانِيَتِكَ فَلَا تَجْمَعْ لَهُ صَدِيقًا فِي سِرِّتِكَ ...

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبته رجل ، فقال : احذرُ فلاناً ، فإنه كثيرُ المسألة ، حَسَنُ الْبَحْثِ ، لَطِيفُ الْاسْتِدْرَاجِ يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدّمت ، فلا تُظْهِرَنَّ لَهُ الْخَافَةَ فَيَرَى أَنَّكَ قَدْ تَحَرَّزْتَ . راعلم أن مِنْ يَقْطَعُ الْفِطْنَةَ إِظْهَارَ الْغَنَلَةِ مع شدة الحذر . فبأنه مُبَانَةٌ الْآمَنُ ، وَتَحْفَظُ مِنْهُ تَحْفَظُ الْخَائِفَ . فَإِنَّ الْبَحْثَ يُظْهِرُ الْخَفِيَ الْبَاطِنَ ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِنَّ الْكَامِنَ .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زاخراً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقتيه هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختار منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أَحْسِنْ إِلَى الْمُحْسِنِ يَا حَسَنَانِ ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ سَيَكْفِيكَ إِسَاءَتَهُ ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ، وَذَلِكَ الْكَلَامُ ، فَسَعَى بِهِ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الَّذِي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيَقُولُ مَا يَقُولُ ، زَعَمَ أَنَّ الْمَلِكَ أَبْخَرُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ عِنْدِي ؟ قَالَ تَدْعُوهُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا دَنَا مِنْكَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ لَعَلَّ لَا يَشْمُ رِيحَ الْبَخَرِ ، فَقَالَ لَهُ :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بجذاء الملك على عادته ، فقال : أَحْسِنُ إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيكه إساءته ، فقال له الملك : آذَنْ مَنِي ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يَشِمَّ الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صِلة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عُمَّاله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه وأحش جلدته تبناً وأبعث به إلي ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقية الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلة ، فقال : هَبْهُ لِي ، فقال : هوك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن آذَبَكَ وأسَاخَكَ ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فالتَّهَّ الله في أمري حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلدته تبناً وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيت فلان فاستوهبته مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ماقلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمَّه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقد كُفِيَ المسىءُ إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمكر ، وناقبة الماكرين .

« وبعد » فإن ما نورده ههنا من عبقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العبقریات لنستوفي باب العداوات ..

المزاح

ولأنَّ المزاحَ في الكثير الأعمَّ الأغلبِ مدَرَجَةٌ البغضاءِ رأينا أن نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزبيدي شارحُ القاموس : المزاحُ : المُبَاسِطَةُ إلى الغَيْرِ على جهة التَّطَلُّفِ والاستعطافِ دون أذِيَّةٍ ، حتى يَخْرُجَ الاستِهْزَاءُ والسُّخْرِيَّةُ . قال : وقد قال الأئمَّةُ : الإكثارُ منه والخُرُوجُ عن الحدِّ يُخِلُّ بالمُرُوَّةِ والوَاقارِ ، والتَّنَزُّهُ عنه والتَّقَبُّضُ يُخِلُّ بالسَّتَةِ .

ويقال : مَزَحَ يَمْزَحُ مَزَاحًا وَمِزَاحًا وَمِزَاحًا وَمِزَاحَةً ، وقد مَازَحَهُ مِمَّا زَاحَهُ وَمِزَاحًا ، والاسمُ المَزَاحُ بِالضَّمِّ والمِزَاحَةُ أَيْضًا :

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إِيَّاكَ وَالْمِزَاحَ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِهِمَا الْمُؤْمِنُ وَيُسْقِطُ مَرْوَةً وَيَجْعَلُ غَضَبَهُ .

وقالوا : المِزَاحُ مجلبةٌ للبغضاءِ مَثَلِبَةٌ لِلْبُهَاءِ ^(١) ، مَقْطَعَةٌ لِلْإِخَاءِ . وقالوا : المِزَاحُ أولُهُ قَرَحٌ وَآخِرُهُ تَرَحٌ ، وَهُوَ نَقَائِضُ الشَّفْهَاءِ مِثْلُ نَقَائِضِ الشُّعْرَاءِ ^(٢) .

وقالوا : لَا تَمَازِحْ صَغِيرًا فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ ، وَلَا كَبِيرًا فَيَحْقِدَ عَلَيْكَ

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به واجمع القائض ومن ثم قالوا : نقائض جرير والفرزدق ، وأصل النقص : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المساقة في القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مسعر بن كدام لابنه :

ولقد حبوتك يا كدام نصيحتي فاستمع لقول أب عليك شفيقي
أما المزاحمة والمرء فدعهما خلقان لا أرضاهما إصديقي^(١)
ولقد بلوتهما فلم أحمدهما لمحاوِرِ تجار ولا لرفيقي
وقالوا: المزاح سبب النوكي^(٢)

وقال عمر بن عبد العزيز: لا يكون المزاح إلا من سَخَفٍ أو بَطَرٍ.
وقالوا: الغالب فيه واثر. والمغلوب ناثر. وقال أبو نواس:
رُبَّمَا اسْتَفْتَحَ بِالْمَزْحِ مَغَالِيقُ الْجَهَنَّمَ

حمدهم القصص في المزح ومزاح الأمثال

جاء في الأثر: إني لأمزح ولا أقول إلا حقا...

ومن مزارحه صلوات الله ما روى: أن عجوزاً من الأنصار أتته فقالت:
يا رسول الله، اذع لي بالمغفرة، فقال: أما علمت أن الجنة لا يدخلها
العجائز؟ فصرخت، فتبسم رسول الله وقال: أما قرأت القرآن؟ «إنا
أنشأناهن أنشاءً فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً»^(٣)

وأنتبه أخرى في حاجة لزوجها فقال لها: ومن زوجك؟ فقالت:
فلان، فقال لها: الذي في عينه بياض؟ فقالت: لا، فقال: بلى، فانصرفت
عجلى إلى زوجها، وجعلت تتأمل عينيه، فقال لها: ماشأئك؟ فقالت:

(١) المرء: الجدال وترى عقرياتهم في المرء في كتاب العلم والأدب
(٢) الحق: (٣) عرب جمع عرب وهي: المرأة الحسناء المنجبة إلى زوجها
المطبعة له، أو العاشقة، أو المغتلة، أو الغنجة. والأترب: الأمثال

أخبرني رسول الله أن في عينيك بياضا ، فقال : أما ترين بياض عيني
أكثر من سوادهما !

وقال صلوات الله عليه لبني كان لأبي طلحة الأنصاري ، وكان له
نغر^(١) فمات : ما قتل النغير يا أبا عمير ؟

وقالوا : الناس في سجين ما لم يمتازحوا .

وقال رجل لأبي عبيدة . المزاح سبة ، فقال : بل سنة لمن يحسنه .

يا ساعتي في مجوني قد طببت فيك وطبت

إني إذا ضاقت صدري قطمت بالشخيف وقي

وقال سعيد بن العاص لابنه : أفتصد في مزاحك فالإفراط فيه يذهب
البهاء ويُجبرئ عليك السفهاء ، وتركه يقيض للأوانسين ويوحش المخالطين

نهيهم عن الغضب في المزاح

قال ابن سيرين : ليس من حسن الخلق الغضب من المزح

الممدوح بأن فيه الجِدَّ والهزل

قال شاعر :

أخو الجِدِّ إن جاددت أرضاك جِدَّه

وذو باطل إن شئت أهلك باطله

وقال أبو تمام :

الجِدُّ شيمته وفيه فُكاهةٌ سُجِّح ولا جد لمن لم يلقب^(٢)

(١) النغر : الببل (٢) السجج : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

✽ وقد يضحك الموتور وهو حزين ✽

وقال آخر :

ورُبَّما ضحك المكروب من عجب السن تضحك والأحشاء تضطرم

نهيهم عن كثرة الضحك

في الآخر : إياك وكثرة الضحك فإنها تميمت القلب وتورث الديان .
وفيه أيضاً : ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ،
ويل له ، ويل له .

وقال عمر بن الخطاب : من كثر ضحكك قلت هيبته
وقال علي : إذا ضحك العالم ضحكة مَجَّ من العلم نجة .
وقالوا : كثرة الضحك تورث الرعونة .

وقيل لأبي العيناء : فلان يضحك منك ! فقال : إن الذين أجزموا
كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وهذا من الأجوبة المسكتة ، وكان
أبو العيناء ذا نواذر .

إيراد جد في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رماني بأصلب من الجندل ، ونشقي بأحر من
الخرذل ، ثم قال إني أمارحك !

لي صاحب ليس يخلو لسانه من جراحى
مجدد تمزيق عرضى على سيل المزاح

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلتين الذميتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتيال وهو : أن يتكلمَ خلفَ إنسانٍ مَسْتُورٍ بِسُوءٍ أو بما يُغْمَرُ لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البُهْتُ والبُهْتَانُ . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكرَ الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُخَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ بِنَمِّهِ وَبِنَمِّهِ نَمًّا : نقله ، والاسمُ النميمة : والنَّعْتُ : نَمَامٌ ، ويقال للنمَّام : القَتَاتُ يقال : قَتَّ : إذا مَشَى بالنميمة ، ويقال له : قَسَامٌ ودَرَّاجٌ وغَمَّازٌ وهَمَّازٌ ومائِئٌ ومِمَّاسٌ .

ذم الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصور لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أن يقطع وجهه وأخشه ، قال الإمام الزنجشیری : وفيه مُبالغات شتى : منها الاستنهام الذي معناه التقرير ، ومنها جدلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالحجة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدم والإشعار بأن أحداً من الأخدين لا يحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، وحتى جعل الأخ ميتاً . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فأكره لحم أخيك وهو حي .

وفي الحديث : « إن الغيبة أشد من الزنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسك أيها الرجل ، فوالله لقد تسلبت بمضغة طالما لفظها الكرام .

وقال علي بن الحسين رضى الله عنه : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار « وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لا تهتكن من مساوى الناس ما سترُوا فيهِتَكَ اللهُ سِترًا من مساويكا
واذكُرْ محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا
وقالوا : الغيبة مرضى اللثام وجهد العاجز .

وقال تعالى « هَمَزَ مَشَاءِ بَنِيمِ »

وقال سيدنا رسول الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرفقن إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يراخ القتات رائحة الجنة . والقتات : النعام ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدّقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .
وقال كُثَيْرُ عَزَّة :

هَيْثُمًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
« خَايَرَهُ الدَّاءُ : خَالِطَ جَوْفَهُ »

وقيل لرجل : فلانُ شَتَمَكَ واغتابَكَ ، فقال : هو في حلّ . ف قيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَتَقُولُ مِزَانُكَ ؟ فقال : لَا أَحِبُّ أَنْ أُنْقَلَ مِيزَانِي
بَأَوْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد رَأَيْتُ مِنْكَ فَاجِعَلْنِي فِي حِلٍّ ، فقال : لَا أَحِلُّ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ . أَمَا مَا كَانَ إِلَّا فَهُوَ لَكَ .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل للحكيم : فلانُ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لو ضَرَبَنِي بِالسَّيَاطِ فِي
الْغَيْبِ لَمْ أَبَالِ بِهِ .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :
حَتَّى ذَرَى الْإِضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبِهِمْ تَحِيَّاتِكَ الْقُرَى فَقَدْ تُرْعِعُ النَّعْلُ
وَأَنْ دَحَسُوا بِاللَّشْرِ فَاعْفُ تَسْكِرْمَا وَإِنْ خَلَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَأَاكَ لَمْ يُقْلُ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخدسوا : أخفوا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه » وقد تقدمت هذه الآيات .
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بقيَ أحدٌ إلا أغتابك !
فقال :

إذا رَضَيْتَ عَنِّي كِرَامَ عَشِيرَتِي فلا زال غضباناً عليَّ لثأمها
وقيل لرجل : فلانٌ يغتابك : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللهُ بذلك ، فمن
أَكْثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللهُ ، وإن بَنَى أُمِّيَّةً مَازَلُوا يَشْتَمُونَ عَلَيَّ
ابن أبي طالب سِتِّينَ سَنَةً فلم يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا رِفْعَةً . وقيل لآخر ذلك فقال :
* وَلَمْ يَمَحْ مِنْ نُورِ النَّبِيِّ أَبُو جَهْلٍ *
وقيل لآخر مثله فقال : لا ضَيْرَ ، إنه أراد أن يَمْتَحِنَ وَدْيَ ...

ذم ناقص يغتاب فاضلاً

قال المتنبي :

وإذا أْتَمَكْ مَدْمَمَتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وقبله يقول أبو تمام :
لقد آسف الأعداءَ فضلُ ابنِ يُوْسُفَ
وذو النِّقْصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ رُوْلَعُ
وقبل أبي تمام يقول مَرْوَانُ بن أبي حفصة :
مَا ضَرَّتْنِي حَسَدُ اللَّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُرُ الْفَقِيرِ
وأصل هذا المعنى من قول الطَّرْمَاحِ بن حَكِيمٍ :
لقد زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ امْرِئٍ غَيْرِ طَائِلٍ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللَّثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ السَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
وبلغ الاحنف بن قيس أن رجلاً يغتابه فقال : عُثَيْثَةُ تَقْرِضُ جِلْدًا
أَمْلَسًا ... « عُثَيْثَةُ تصغير عُثَّةَ وهي دُوبِيَّةٌ تلحس الشباب والصوف وأكبر
ما تكون في الصوف ، وهذا مَثَلٌ قد يضرب للرجل يجتهد أن يُؤَثِّرَ في
الشيء فلا يقدرُ عليه »

وما يتصل بهذا قولهم :

❖ وما زالت الأشرافُ تهجى وتمدحُ ❖

❖ إِنَّمَا الْغِيَةُ تَلْقِيحُ الشَّرَفِ ❖ .
وقولهم :

من رمى غيره بعبيه

من هذا قولهم : رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ بُجَيْرٌ بُجْرَةٌ وَنَسَى بُجَيْرٌ خَبْرَهُ . ، قال المُفَضَّلُ الضُّبِّي :
بُجَيْرٌ وَبُجْرَةٌ كَانَا أَخَوَيْنِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ وَلَهَا رَقْصَةٌ ذَكَرَهَا ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ
بُجَيْرٌ تصغير الأبحر وهو النَّاتِي السُّرَّةَ وَالْمَصْدَرُ : الْبُجْرُ فالمعنى : أَنْ ذَا
بُجَيْرَةٍ فِي سُرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا فِيهِ « وَقَوْلُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مَا مَعْنَاهُ : أَتُبْصِرُ
الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدْعُ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ »

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قلوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لِأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميداني

بِفَضْل عَيْبِهِ . وفي هذا المني يقول الشاعر :
وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادُهُ لَعَمْرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ
وَقَالُوا : أَعَرَفَ النَّاسَ بُعَوَارِ النَّاسِ الْمُعُورِ . « العُور : العيب ،
والمُعُور : ذو العيب القبيح السريرة »

واغتاب رجل آخر عند بعض الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أَوْحَشْتَنَا
مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَّاسْتَنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَلْتَنَا عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا
وقال شاعر :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَظْهَرِ عَيْبٍ عَلَى عَيْبِ الرِّجَالِ ذُؤُوالْعُيُوبِ
يقول : أجزأ الناس على عيب الناس بظهور الغيب هم ذرو العيوب ،
والظهور : ما غاب عنك .

ومما يذكر هنا قول بعض الحكماء : الأشرارُ يَتَّبِعُونَ مَسَارِي النَّاسِ
وَيَتْرَكُونَ مُحَاسِنَهُمْ ، كَالذَّبَابِ يَتَّبِعُ الْمَوَاضِعَ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
الصَّحِيحَةَ .

تشهى الغيبة واستطابتها

قَالُوا فِي ذَلِكَ : الْغَيْبَةُ فَكْهَةٌ النَّسَاكِ وَالْقُرَاءِ ...
وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
فَقَالَ : مَنَعَنِي التَّلَذُّذُ بِالْغَيْبَةِ وَالشُّكْوَى .

وقال رجلٌ لِبَنِيهِ : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثُ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
الْإِغْتِيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعَلُ
وَنَصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرَّغْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَغِلُ !

من اغتاب فاغتيب

قيل : مَنْ رَمَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بَحْثُكَ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بَحْثِهِمْ عَنْ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

تَحَلَّلْتَ بِالسَّبِّ لَمَّا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَغَمَزٍ سَلَكْنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ الْكَذِبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهِدَكَ أَنْ لَا يَعْرِفَكَ ، فَأَشَقَّ
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفُهُ .

وقال عمرو بن عُبيد لرجل يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابُ : وَيَلْكَ ، نَزَّهُ أَذُنَكَ
 عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَا كَمَا نَزَّهُ لِسَانَكَ عَنِ النُّطْقِ بِهِ .

وقالوا : * وَالسَّامِعُ الذَّامُ شَرِيكُ لَهُ *

وقال بعض الْمُتَصَوِّفَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِعُ بِذَلِكَ الْغِيْبَةَ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزُهُ بِجَالِسِهِ عَنِ الْغِيْبَةِ وَمَسَامَعَهُ عَنِ النِّيمَةِ .
 وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْتَفَظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ الْعَوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ

« العوراء : الكلمة القبيحة »

حشهم على التثبت فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ قَالَ : قَدْ أَتَاكَ كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فاعمل به ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِلَبٍّ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، فَقَالَ : صَدَقَتْ .

وَأُبلغ أَحَدُ المُلُوكِ عَنْ رَجُلٍ مَنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي وَمَنْ سَعَى بِي كاذِبٌ يَعْظُمُ وَزْرُكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وَزْرُكَ وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تَرِيدُ ، والعجلة مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلَلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةُ :

وإن جَاءَكَ الوَاشُونَ عَنِي بِكَذِبَةٍ فَرَوْهَا وَلَمْ يَأْتُوا لَهَا بِحَوِيلٍ ^(١)

فَلَا تَعْجَلْ يَا عَزَّ أَنْ تَتَفَهَّمِي بِنُصْحِ أَنِي الوَاشُونَ أَمْ بِحُبُولٍ ^(٢)

وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ مِنْ أَيْتَاتٍ يَعْظُ فِيهَا بَنِيهِ :

وَأَعْصُوا الَّذِي يُزِيحِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ مُتَنَصِّحًا وَهُوَ السَّهَامُ الْمُنْفَعُ ^(٣)

يُزِيحِي عَقَارَبَهُ لِتَبْعَتِ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ ^(٤)

حَرَانٍ لَا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ عَسَلٌ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعَشَعٍ ^(٥)

(١) فروها من القرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزحي : يسوق ، والسهام : السم ، والمنفع : المرزبي

(٤) الأخدع : عرق في العنق في موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لا تأمنوا قوماً يَشِبُّ صِدِّيقُهُمْ بين القبائل بالعداوة يُشْعُ (١)
 إن الذين تُرَوُّهُمْ إِخْوَانُكُمْ يَشْفِي غليلَ صدورهم أن تُصَدَّعُوا (٢)
 فَضَلَّتْ عداوتُهُمْ على أحلامِهِمْ وَأَبَتْ ضبابُ صدورهم لا تُنَزَّعُ (٣)
 قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهم هَدَجُوا قَنَافَةً بالنِّميمةِ تَمَزَّعُ (٤)
 وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال
 الإمام : إن رأيت أن تسأله : أَسِرَّ آتَمَّتْهُ عَلَيْهِ خَفَاةٌ ، أم كَذَبُ افْتِرَاءٍ ؟
 والخائن والكاذب لا يُقْبَلُ قَوْلُهُمَا ...

وَوَشَّى وَاشٍ إِلَى بعض الأمراء وقال : إنَّ فُلَانًا هَجَاكَ ، فأحضره
 وأعلمه ، فقال الرجل : كلا ، فقال : أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ النِّقَّةُ ، فقال : الثقة
 لا يكون نَمَّامًا .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبَغِّضُ السَّعَاةَ ، فإذا أُنَاهُ سَاعٍ يقول :
 إن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبك ، وإن
 شئت أفلناك .

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به
 (٢) هذا البيت من شواهد المسند إليه في علم المعاني والشاهد فيه تنبيه المخاطب
 على الخطأ في ظنه ، إذ في قوله : إن الذين من التنبيه على الخطأ ما ليس في قولك
 إن القوم الفلانيين ، وتروهم : تظنونهم
 (٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل المعبر في الصدر لمعان الضب
 في جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وهدجوا : مشوا مشية الشيوخ الراجفة
 المتقاربة الخطى ، وهو الهدجان برواية المفضليات : هدجوا قال شارحها هدجوا :
 رحلوا : أراد : أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيايل في الشر كما يسهر القنفذ لأنه يسير
 ولا ينام ليله أبجع ، وتمزع ، تسرع

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ ؛ فقال لأصحابه : إذا شئتم ^(١)
فلما تهيأ الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإنني أعرف بنفسى منك
أو تكذبني فإنه لا رأى لكذوب ، أو تسعى بأخيد إلى ، وإن شئت
أن أقيلك أقبلتك ، قال : أقلنى :

وَوَشَى إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَاشٍ فِي أَحَدِ الْكُتَّابِ ، فَرَقَعَ :

أَقِيلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لَايِيكُم

مِنَ اللَّوَمِ أَوْسُدُوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا ^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثلبك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله ولي جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذى قلت لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إِلَى بَصْرَمِ عَزَّةَ نِسْوَةً جَمَلَ الْمَلِكُ خُدُودَهُنَّ نَعَالَهَا ^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه تحصّل لم أجعلها لنفسى فكيف
أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزمه .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شئتم

(٢) للحطية

(٣) لكنير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت ملجياً مسيناً ومُحسناً . فغشيان ماتموى من الأمر أكيس
« ملجياً : ملوماً ، ومسیناً ومحسناً : حالان »

ذم ناقل الغيبة

قالوا : من بلغك فقد شتمك . وفى هذا المعنى يقول شاعر :
لعمرك ما سب الأمير عدوه ولكنما سب الأمير المبلغ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تفحطني بما
استخى الرجل من استقبالي به .

الموصوف بالنميمة

قال سبحانه : (ولا تطع كل حلافٍ مهينٍ هُمَزٍ لَمِيزٍ)
وقال بعضهم لآخر : فلان نم بك ، فقال : إن فلاناً لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بك إليه .

وقال السري الرفاء :

أنم بما استودعت من زُجاجة ترى الشيء فيها ظاهراً وهو باطن
وقال العباس بن الأحنف :

أناسٌ أمِنَّاهم فنموا حديثنا فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلاً ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيراً ما حضرته .

من لا يحرم اغتيا به

قال الحسن البصري : لا غيبة في ثلاثة : فاسقٍ بجاهر ، وإمامٍ جاز ،
وصاحب بدعة .

حشهم على التحرز

بما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصري : من دخل مداخلَ التُّهْمَةِ لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهْمَةِ فلا يلومنَّ مَنْ أساءَ به الظنَّ
واغتابه .

—————

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للودّة ، والكبرُ مَذَرَجَةً للعداوّة ، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتسابُ الودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتسابُ البغض — لما كان ذلك كذلك ألحقنا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقّه فضلهُ ومنزِلتهُ ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أفناء الناس ، لاحتياطٍ درجتهم ، وإنما يَتَبَيَّنُ ذلك في الملوك وأجلاء الناس وعلماهم . وهو من باب التفضّل ، لأنه يتركُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلّ يُزِرُّ به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظنُّ الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاهما من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في الباري تعالى ، وذمّاً في البشر ، وإنما شرفُ المخلوق في إظهارِ العبوديّة كما قال تعالى : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لأَضَعَّة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ، وأقبح كبر ما كان معه بُخْلٌ ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : خَصَمَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الكبر والبخل ، راسِخُ حَسَنَ قول الشاعر :

جَمَعَتِ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا نَفْسُ الْمُلُوكِ وَأَخْلَاقُ الْمَمَالِكِ

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عُصْرِهِ ، ومن تكبر لِقِنْدِيَّتِهِ جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُسْتَرْدَّة ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مَبْدَأَهُ وَمُنْتَهَاهُ وَأَوَاسِطَهُ عرف نفسه وروض كِبَرِهِ ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الثَّلَاجِ وَالتَّرَائِبِ) ^(١) ، وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ) ، وقال : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) ^(٢) ، ثم قال : وأما العِزَّةُ فهي : الترفع بالنفس عما ياحقه منه غَضَاضَةٌ ، والعِزَّةُ منزلة شريفة ، وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ، وفي الحديث : « لَا يَنْبَغِي الْمُؤْمِنُ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ » ولذا قالوا : التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عِزَّةٌ

(١) الترائب موضع الفلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمين الصدر وأربع من يسره وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى المعجب - وترائب المرأة

(٢) الامشاج : الاخلاط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفس ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنى فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه وشطرُ مِرْوَةٍ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حشهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طوبى لمن تواضع في غير مَنَقَصَةٍ ، وذُلٌّ في نفسه في غير مسكنة . » في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُرْزى به ، ويُودى إلى تضييع حق الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تخشع وتذلل وبالع في ذلك ، فقال عمر : ألسنتُ مُسْلِماً ؟ قال بلى ، قال : فارفع رأسك وامتدّ عنقك فإن الإسلام عزيز منيع ؛ أما كلمة طوبى فللعلماء فيها كلام كثير فمن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغاني : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس في كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الحسنى والخير له . وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلاً أعلى للتواضع ، قال أبو أمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَسَكِّناً على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظَّمُ بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد^(١) وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُردف خلفه ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتعظيم المعتاد ، فقبل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُظُرُونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مهنة أهله - خدمتهم - يَفْلِي ثوبه ، وَيَحْلِب شاته ، وَيَرْقَع ثوبه ، وَيَخْصِف نعله ؛ وَيُقِمُّ البيت - يَكْنُسُه وَيَزِيل قمامته - وَيَخْدُم نفسه ، ويعقل البعير - يربطه من رجله بالعقال - ويملف ناضجه - الجمل الذي يُسْتَقَى عليه الماء - ويأكل مع الخادم ، وَيَعِينُ معها ، ويحمل بضاعته في السوق . وأخباره في تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها في كتب الشمايل والحديث .

وفي المثل : تواضع الرجل في مرتبته ذبٌ للشهامة عند سقطته .
وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصايد الشرف ، وفي لفظ :
« سَلَّمَ الشرف »

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ العلماء أكثرهم علماً ، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشي من تركه ضرر كجسارة الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما نهاهم صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة (١) الاطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه وبذلك فسر الحديث وفي معنى الحديث قال الأبرصيري :

دَعَّ مَا دَعَّاهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمُ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمُ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره .

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقليل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرِّياءَ والسُّمعةَ .

وقالوا: التَّوَّاضَعُ نِعْمَةٌ لَا يَفْطِنُ لَهَا الْحَايِدُ .

وقالوا: التَّوَّاضَعُ كَالْوَهْدَةِ يَجْتَمِعُ فِيهَا قَطْرُهَا وَقَطْرُ غَيْرِهَا .

وقال عمر: أريدُ رجلاً إذا كان في القوم وهو أميرهم كان كـبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فسكانه أميرهم .

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بعض السَّراةِ مُبْتَدِلًا لِأَصْحَابِهِ: هَذَا رَجُلٌ يَفِرُّ مِنَ الشَّرَفِ وَالشَّرَفُ يَتَّبِعُهُ .

وقد مدح الشعراء المتواضعين فن ذلك قولُ أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبْجَلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ وَالنَّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو النَّبَادَةِ بِالنَّبَاهَةِ يَلْبُلُ

وقال البحتري:

دَنَوْتَ تَوَاضِعًا وَعَلَوْتَ بَجْدًا فَشَأْنَاكَ انْحِدَارٌ وَارْتِفَاعٌ
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَاسَى وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضَعْ لِمَا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلْ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :

عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرَ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كَسْبُ

ذَمُّهُمْ التَّكْبِيرُ

قال الله تعالى : إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَّكِبٍ جبار . وقال : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

ودخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتَبَخَّرُ في مُشِيَّتِهِ ، فقال له يحيى : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَهْلَ مع التَّوَاضُّعِ ، أَزِينُ بِالرَّجُلِ مِنَ الْكِبَرِ مع السَّخَاءِ وَالْعِلْمِ ، فَيَا هَا مِنْ حَسَنَةِ غَطَّتْ عَلَى عَيْنَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، وَيَا هَا مِنْ سَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، ثُمَّ أَوَمَّ إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ وَقَالَ : احْفَظْهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَدَبٌ كَبِيرٌ أَخَذَنَاهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَاضُّعَ مع السَّخَاءِ وَالْبُخْلَ أَخَذَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْكِبَرِ مع الْإِدَبِ وَالسَّخَاءِ ، فَأَنْبَلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأَقْبَحُ بِسَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ !

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً وَهُوَ غَدًا جِيْفَةً . وقال بعض الشعراء :

يَا مُظْهِرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ أَنْظُرْ خَلَامَكَ إِنْ النَّئِنِ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْعَرَ الْكِبَرُ شُبَّانًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَلْفِ مَسْرُوبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكٌ وَالْعَيْنُ مُرْمَصَةٌ وَاللِّغْزُ مَلْعُوبٌ
يَابِنَ الشَّرَابِ وَمَا كَوْلَ التَّرَابِ غَدًا أَقْصِرْ فَإِنَّكَ مَا كَوْلَ وَمَشْرُوبٌ
وَقَالُوا : دَعِ التَّكَبُّرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الثُّبُلِ لَمْ يَضُرْكِ التَّبَدُّلُ ، وَمَتَى
لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ التَّنْبُلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : مَا تَكْبَرُ أَحَدٌ إِلَّا لِنَقْصٍ وَجَدَهُ فِي نَفْسِهِ .
وقال جكيم : مَا تَعَاظَمَ أَحَدٌ عَلَى مَنْ دُونَهُ إِلَّا تَصَاغَرَ لِمَنْ فَوْقَهُ
وَقَالُوا : مَا تَأْتِ إِلَّا وَضِيعٌ ، وَلَا فَاخَرَ إِلَّا سَقِيطٌ ، وَلَا تَعَظَّمَ إِلَّا
لَقِيطٌ . « السقيط : الأحمق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذي يُوجَدُ
مَرْمِيًّا عَلَى الطَّرْقِ لَا يُعْرِفُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ »
وقال يحيى بن خالد بن برمك : كُنْتُ تَرَى أَحَدًا تَكْبَرُ فِي إِمَارَتِهِ
إِلَّا وَهُوَ يَسْلَمُ أَنَّ الَّذِي نَالَ هُوَ فَوْقَ قَدْرِهِ ، وَلَسْتُ تَرَى أَحَدًا يَضَعُ
نَفْسَهُ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَ .
وقيل لِبَعْضِهِمْ : فَلَانٌ غَيْرَتُهُ الْإِمَارَةُ فَقَالَ : إِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ
وَلَايَةً فَرَأَاهَا أَكْثَرَ مِنْهُ تَغَيَّرَ ، وَإِذَا وَلِيَ وَلَايَةً يَرَى أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهَا
لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وَقَالُوا : مَنْ نَالَ مَنَزَلَةً فَأَبْطَرَتْهُ دَلَّ عَلَى رِدَاءَةِ أَصْلِهِ وَعُصْرِهِ .
وقال بعض المتصوفة : اللثام إِذَا تَمَوَّلُوا اسْتَطَالُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا انْوَضَعُوا
وَالْكَرَامُ إِذَا تَمَوَّلُوا تَوَاضَعُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا اسْتَطَالُوا .
وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

الْقِلَّةَ وَالذِّلَّةَ مَانِعَتَانِ مِنْ ظَهْوَرِ كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الْوَضْعَاءِ أَدْنَى قُدْرَةِ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلَا مَنْ دُونَهُ إِلَّا وَهُوَ
يَبْدُلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوزَنِهِ ...

متكبر ذنى أو فقير

قالوا : أبغض الناس ذُو عُسْرٍ يَخْطُرُ فِي رِداءِ كِبَرٍ .
ومن قولهم في ذلك : أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَنْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب : لَنْ يَمْلِكَ امرؤ عَرَفَ قَدْرَهُ .

وقال المتنبي :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

وقال سيدنا رسول الله : ثَلَاثٌ مَهْلَكَاتٌ : شَحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ،

وإعجاب المرء بنفسه .

وقالوا : عَجِبُ الْمَرءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل معجب بنفسه : يُسْرِنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ

فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، مَعْنًا فِي الصَّلَافِ ،

رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِمُسْلِمِهِ : آسِقْنِي مَاءً ، فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّمَا يَقُولُ « نَعَمْ »

من يقدر على أن يقول «لا» وأمر بضربه ... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استنظاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة السكرية النيلة المحترمة عمارة بن حمزة^(١)، روى: أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدي قد أعد له ليهنئ به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَنِي ضَيْعَتِي ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عُمارة وأكثرها خَرَجًا ، فقال المهدي لعُمارة : قُمْ فَاجْلِسْ مع خَصَمِكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بخَصَمٍ ، إن كانت الضيعةُ له ، فلستُ أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفني به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عُمارة عن صفة الرجل ، وما كان لباسه ، وأين كان موضع جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أدون من ذلك ...

ومن المفرطين في الكبر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كثرَ الله فينا مثلك ، فقال : لقد كلفتمُ الله شَطَطًا ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرفة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
أُيَعِجِبُكُمْ ما أقول ؟ قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحقُّ أن أُعَجَّبَ به ...
وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبَرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصَالِي ما استفاق من الكبر
وقال رجل لبعض المزهّوين : ما أعظمك في نفسك ! فقال : است
بعظيمي ، ولكنني عزيز ، لقوله تعالى : والله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين . وفي
هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزُهوٌّ ولكنني فتى أبتَ لِي نَفْسٌ حُرَّةٌ أن أذيلها
« أذيلها : أهينا » وهذا من قبيل قول القائل :
وأُكْرِمُ نفسي أنى إن أهنتها وحقك لم تَكْرُم على أحدٍ بعدى
ولمثل هذا المعنى باب سلسلوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سُئِلَ الحسن البصري عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء
« يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في ما لهم أو جاههم »
وأنشد المبرد :

إذا تاة الصديقُ عليك كبرا فتَهْ كِبْرًا على ذاك الصديق

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفتنة ، ولأه عمر بن عبد العزيز قضاء
البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإنجابُ الحقوق إغير راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضييعِ الحقوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ماتاه أحدٌ قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاة مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لو كيع بن الأسود : سَوَّ عَلَى ثِيَابِي ،
فقال : * ذَكَرْتُ الطعنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا * ^(١) فِي خَفِي ضَيْقٍ فَلْيَمُدَّهُ الْأَمِيرُ حَتَّى
أَنْزِعَهُ ، فقال له عدى : إن المجلسَ لَيْلِي من جلسه أكثر من هذا ، فقال
ياعدى ، إذا عُرِلْتَ عَنَّا فَكَلِّفْنَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، أَمَا وَأَنْتَ تَرَى لَكَ عَلَيْنَا
بَسْطَةً فَلَا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَاضِعِ مَا يَضَعُ
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِيمُ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ سَيِّدِ أَهْلِ الْوَبَرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقته ،
وكان في يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الددش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل :
ألقِ الرمح ، فقال الآخر . وأن معي رمحا لا أشعربه؟ ذكرني الطعن ... المثل وحل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكّر الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أناكم كريم قوم فأكرموه .
وروى أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
من تحته وسادةً حشوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحده ، فلما نهض
قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن
جبريل يأمرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
يأخذ بركابه ، فقال : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
أن نفعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخذها وقبّلها ، وقال : هكذا
سرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحى ، وجامع القرآن فى عهد أبى بكر
وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهملك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجلة
الفراض — علماء المواريث — مات فى عهد مروان بن الحكم
(٢) ورد أن النبى صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية فى إحدى الغزوات
وأمره على الجيس فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيها وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهور والجبن .
وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .
وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِيلةٌ نفس أبيّة .
وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .
وقال بعض المجريين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس الذي يَشُدُّ إذا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى البراز والمجيب داعيته ،

والبطل : الحامى لظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صف لي الشجاعة والجهن والجود والبخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائع ركبتي في الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن الشجاع يقاتل عن لا يعرفه ، والجهن يفر عن عرسه — زوجه — وأن الجواد يعطي من لا يلزمه وأن البخل يمسك عن نفسه .

الأسباب المشجعة :

قال الجاحظ : الأسباب المشجعة قد تكون عن الغضب ، والشراب^(١) والهوج^(٢) ، والغيرة ، والحمية ، وقد تكون مرقوة النفج^(٣) وحب الأحدث : وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسخي ، والبخل ، والجزوع والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يبلغ الرجل للدين ما لم يشيعة بعض ما تقدم ، لأن الدين مجتلب مكتسب ، ولا يكاد يبلغ الطبيعة . وقالوا : لا يصدق القتال إلا ثلاثة : متدين ، وعيران ، ومتمعض من ذل .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حثهم على الثبات والإقدام

ونهيهم عن الإحجام والفسكر في العواقب

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تؤاؤهم الأديبار) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف : الجيش الكثير الذي يرى لكثرتته كأنه يزحف ، : أى يدب ديباً ، من زحف الصبي : إذا دب على آسته قليلاً قليلاً ؛ سُمي بالمصدر ، والجمع : زحوف ، والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير متوافرون وأنتم قليل فلا تفروا ، فضلاً أن تدأؤهم في العدد ، أو تساؤهم » ... وقال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ... « إذا لقيتم فئة : إذا حاربتم جماعة ، فاثبتوا : لا تفروا ، واذكروا الله كثيراً : اذكروه سبحانه في مواطن الحرب ، مستظهريين بذكره مسترقيين لنصره ، وفي هذا إشعار بأن على الإنسان أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون همّاً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره ، وفشل يفشل : ضعف وجبن وذَهَبَتْ قُوَاهُ ؛ يقول سبحانه : إذا اختلفتم ضعفتُم وإذا انفقتم كنتم أضياء ، والريح : الدولة ، شَبَّهَتْ في نفوذ أمرها وتمشييه بالريح وهبوبها ، ومن ذا يقال : هَبَّتْ ريح فلان : إذا دالت له الدولة ونفذ أمره »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوَهِّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَسَّكَرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجُعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْجَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول الدرب : الشَّجَاعُ مُوقَى . «أَيَّ تَنْهَيْبِهِ الْأَقْرَانُ فِي تَحَامُونِهِ

فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةً لَهُ»

وَأَسْتَشِيرُ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبِ أَرَادُوهَا فَقَالَ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ

لَا مَرَأِيَكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصِّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، وَالْمَرءُ يَعْجِزُ لِمَحَالَةٍ^(١)

وَادْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلَّيْلِ .

وقال هانئ بن مسعود الشيباني يَوْمَ ذِي قَارٍ يُحَذِّرُ قُوَّةَهُ : إِنْ الْحَذَرَ

لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ ، وَالصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ الظُّفْرِ ، وَالْتِمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالُ

الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنُ فِي نُفَرِ النُّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْيَازِ

وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مَعْدُورٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ...

وقال أبو مسلم الخراساني لبعض قَوَّادِهِ : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعُكَ

فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ،

فَإِنَّهُ أَدْرَكَكَ لِلنَّارِ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الخنساء :

نُهِنَ النُّفُوسَ وَهَوُنَ النُّفُوسُ سِيسَ يَوْمَ الْكَرِيهِتِ أَوْقَى لَهَا

وَقِيلَ لِلْمَهْلَبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ : إِنَّكَ كَلْتَلَقَى نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فَقَالَ :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَتْرِعًا ، أَتَانِي مُسْتَعِجِلًا ، إِنِّي لَسْتُ آتِيَ الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لَا تَضِيقِ الْحَيْلَ وَمَخَارِجَ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى الْعَاجِزِ ، وَالْمَحَالَةِ :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْخَصَيْنِ بْنِ الْحُثَامِ الْمُرِّي^(١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِيَ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ أَيْبَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَاءُ
نُفَلِّقُ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمًا
« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْتُ : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي
جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَى ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلَ
إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعَ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أُنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
الْمَعْنَى : أَحْبَبْتُ مُسْتَبْقِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْأَحْدَوْتَةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّقَدُّمِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا
عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْتُ : نَحْنُ لَا نُؤَلِّي فَنُجَرِّحَ فِي ظُهُورِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا
عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسَكُنَّا نَسْتَقْبِلُ السِّیُوفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنْ أَصَابَتْنَا جَرَّاحٌ
تَقَطَّرَتْ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ نَفَلِّقُ هَامًا ... أَلْبَيْتُ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،
وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : نُشَقِّقُ هَامَاتٍ مِنْ رِجَالٍ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مِنَّا
وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَى الرَّحِمَ كَمَا يُقَالُ : قَطَعَهَا .
يُقَالُ الْكَلْحَبَةُ الْيَرْبُوعَى — شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشَ الْكَرْبِيَّةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَئِيِّ بِالْفَتَى أَنْ تَقْطَعَا
« الْغُشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكَرْبِيَّةُ . الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شِدَّتُهَا ، وَقِيلَ
الْنازِلَةُ ١ وَأَوْشَكَتْ : قَارَبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبُ ،
اسْتَعْيِرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالْهُوَئِيُّ : الْخَفِضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضمير

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا، أو بمعنى عن فيتعلني بها بعدما
وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير حيال ،
وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء ولكنه
عدل عن المضممر والمظهر إلى انظر آخر لأنه أشبه المضممر ، وقال ابن
رشيق : قوله بالفتى حشر وكان الواجب أن يقول : به لأن ذكر المرء قد
تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأطنوزة — السخرية — فإنه
محتمل . وهذا تخيل دقيق من ابن رشيق ،

المبادر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتَرِيُّ :

تسرع حتى قال مَنْ شَهِدَ الْوَعَى لِقَاءَ أَعَادٍ أَمْ لِقَاءَ حَبَائِبِ

وقالوا : أشجع بيت قالته العرب قول العباس بن مرداس :

أشدُّ على الكَتِيبَةِ لا أباي أَحْتَنِي كان فيها أم سواها

ووصف أعرابي قوماً فقال : ما سألوا قط كم القوم ؟ وإنما يسألون :

أين هم ؟

وسأل رجل يزيد بن المهلب فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت

أحداً إلا ظننت أن رُوْحَهُ في يدي ...

ولما بلغ فتية بن مسلم حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد

الترك ، والحوادث بين أجنحة الدهر تُقْمِلُ وتُدِيرُ ! فقال : بشقي بنصر

الله أوغلت ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة ، فقال الرجل : أسلك حيث

شدت ، فهذا عزم لا يفله إلا الله ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيه : لا تَدْعُونَ أَحَدًا إِلَى المِبارزة ،
وَلَا يُدْعَوُكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَجَبْتَهُ ، فالداعي باغ ، والباغي مصروع .
وقال طَرَفَةُ بْنُ العَبْدِ :
إِذَا القَوْمُ قالُوا : مَنْ فَتَى ؟ خِلْتُ أَنِّي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ ^(١)
وقال بِشَّامَةُ بْنُ خَزْنِ النَّهْشَلِي - شاعر إسلامي - :
إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفَنَى أَوَائِلَهُمْ قَوْلُ السَّكَاةِ : أَلَا ابْنَ الْمُحَامُونَا ؟
لو كان في الألفِ مِنَّا واحدٌ فَدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ خالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح هَرِمًا :
لَيْثٌ بِمَثَرٍ يَصْطَادُ اللَّيْثَ إِذَا
مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
يَطْفَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا أَطْمَسُوا

ضَارِبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا أَعْتَقًا
« عَثَرَ : » وضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كَذَّبَ
أى لم يصدق الجملة ، يقال : كَذَّبَ الرجلُ عن كذا : إذا رجع عنه ،

(١) من معلقته ، يقول : إِذَا القَوْمُ قالُوا : مَنْ فَتَى يَكْفِي مَهْمَا أُوْدِفَعَ شَرًّا ؟ خِلْتُ
أَنِّي المراد بقولهم ، فلم أَكْسَلْ في كفاية المهم ودفع الشر ، ولم أَتَبَلَّدْ فيهما .

يقول : إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يصدق الحلة عليه فهذا الممدوح
يصدقها . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل
دخل هو تحت الرمي فجعل يطاعنهم ، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف ،
فإذا تضاربوا بالسيف اعتق قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم في كل
حال من أحوال الحرب »

صدر من عبقرياتهم فى الصبر

من أحسن ما قيل فى الصبر يوم اللقاء قول نهشل بن حرمي بن
ضمرة (١) :

ويوم كأن المصطلين بحره - وإن لم تكن نار - قيام على الجمر
صبرنا له حتى يبوخ وإنما نفرج أيام الكربة بالصبر
« باخت الحرب والنار تبوخ بوخا وبوخا وبوخا : سكنت وفترت
وكذلك الحر والغضب والحمى »
وقال من لا أذكر اسمه :

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا مُطلاً كإطلال السحاب إذا اكفهر
فقلت له : لا تبك عينك إنما يكون غداً حسن الشئ لمن صبر
فأخّر الإحجام يوماً ممجلاً ولا عجل الإقدام ما أخّر القدر

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع على فى
حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني
دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حزة ، قال النعمان :
تسمع بالمعدي لا أن تراها فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ،
إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجهنم الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَسَى وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتَبْثَهُمُ الْوَرْدُ وَالصَّدْرُ
وَكَثُرَ حِفَظًا تَخْشِيَةً الْعَارَ بَعْدَمَا رَأَى الْمَوْتَ مَعْرُوضًا عَلَى مِنْهَجِ الْمَكْرَرِ
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ: (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا مِنْ الْأَبْطَالِ: وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ إِنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبَطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمُنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

«أقول لها ، أى للنفس ، والشعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة
في الفرع ، وإن تراعى من الروح ، وهو : الفرع . يَذْكُرُ تَشْجِيْعَهُ نَفْسَهُ
وتعريفه إياها — بعد ما اسْتَشْعَرَتْ الْفَرْعَ — أَنَّ الْأَجَلَ مُقَدَّرٌ وَأَنَّ الزِّيَادَةَ
لا تلحقه كما بين ذلك في البيت التالي . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع :
الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي ذِلَّةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، والبراع :
القصبة التى لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ،
فوضع البراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير علة
يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ شَابًّا مَاتَ هَرَمًا ، وبسأم : أى يسأم ما يعتريه من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة في الإسلام ، كان رأساً من رؤس
الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولا بُدَّ أَنْ تُسَلِّمَهُ الْمُنُونُ يوماً إِلَى الانْقِطَاعِ ، أَى لَابِدٍ فِي النِّهَايَةِ
مِنَ الْمَوْتِ .

وَقَالَ تَحْمُزُ بْنُ الْإِطْنَابَةِ - شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ ، وَالْإِطْنَابَةُ : أُمَةٌ - :

أَبْتُ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَدَّ بِالشَّعْنِ الرِّيحِ (١)

وَأَقْدَامِي عَلَى الْمُسْكُورَةِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَةً الْبَطْلَ الْمُشِيعِ (٢)

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي (٣)

لِإِدْفَاقٍ عَنْ مَأْثَرِ صَالِحَاتٍ وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عَرِضِ صَحِيحٍ

يُرَوِّى أَنَّ مَعَارِيَةَ قَالَ : اجْعَلُوا الشَّعْرَ أَكْبَرَ هَمِّكُمْ وَأَكْثَرَ آدَابِكُمْ فَإِنَّ

فِيهِ مَأْثَرُ أَسْلَافِكُمْ وَمَوَاضِعُ إِرْشَادِكُمْ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي لَيْلَةَ الْهَرِيرِ وَقَدْ عَزَمْتُ

عَلَى الْفِرَارِ فَمَا رَدَّنِي إِلَّا قَوْلُ ابْنِ الْإِطْنَابَةِ ، وَأَنْشِدِ الْآيَاتِ .

وَقِيلَ لِبَعْضِ بَنِي الْمَهْلَبِ : بِمَ نَلِئْتُمْ مَا نَلِئْتُمْ ؟ قَالَ : بِصَبْرِ سَاعَةٍ

(١) بِلَائِي : بَأْسِي فِي الْحُرُوبِ ، وَاسْتِعَارَ الثَّمَنَ لِمَا يَنْزِلُهُ فِي الْمَكَارِمِ عَلَى طَرِيقِ

التَّصْرِيحِ ، وَالرِّيحُ الرَّائِدُ مِنْهُ

(٢) وَأَقْدَامِي يُرَوِّى : وَإِجْشَامِي ، وَيُرَوِّى بِدَلِّ هَذَا السُّطْرِ

« وَإِعْطَانِي عَلَى الْإِعْدَامِ مَالِي »

وَالْهَامَةُ : الرَّأْسُ ، وَالْمُشِيعُ : الْمُبَادِرُ الْمُنْكَشِ الْجَادُّ فِي الْقِتَالِ ،

(٣) وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشْتُ يُرَوِّى « وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَّاتُ لِنَفْسِي »

وَهِيَ رَوَايَةٌ جَيِّدَةٌ وَمَعْنَى : جَشَّاتُ وَجَاشْتُ : كُلَّمَا تَطَلَّعْتُ وَنَهَضْتُ جُزْأً وَفُزْعًا وَعَنْ

بَعْضِهِمْ : جَاشَتْ نَفْسُهُ : غَشَّتْ أَوْ دَارَتْ لِلْغَيْبَانِ : فَإِنْ أُرِدْتُ أَنَّهَا ارْتَفَعَتْ مِنْ حُزْنٍ

أَوْ فُزْعٍ قُلْتُ جَشَّاتُ . وَمَكَانَكَ اسْمُ فِعْلِ أَى : الزَّمَى يَنْفُسَ مَكَانَكَ يَحْمَدُكَ النَّاسُ

أَنْ ظَفَرْتُ أَوْ تَسْتَرِيحِي إِنْ مِتُّ

الخدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خَدْعَةٌ وَخُدْعَةٌ ، والفتح أفصح ، وخُدْعَةٌ مثل هَمْزَةٍ ، قال علماءنا : ورُويَ عن النبي صلى الله عليه وسلم : خَدْعَةٌ ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خَدْعَةٌ فَرَلَتْ قَدَمُهُ وَعَطِبَ فُلَيْسَ لَهَا إِقَالَةٌ ؛ قال ابن الأثير : وَخُدْعَةٌ . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدْعَةٌ أَرَادَ . هِيَ تُخْدَعُ ، كما يقال : رَجُلٌ لُعْنَةٌ : يُلْعَنُ كَثِيرًا ، وإذا خَدَعَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ فِي الْحَرْبِ فَكَأَنَّمَا خُدِعَتْ ؛ ومن قال : خُدْعَةٌ أَرَادَ أَنَّهَا تُخْدَعُ أَهْلُهَا ، كما قال عمرو بن مَعْدِيكَرِب ^(١)

الْحَرْبُ أَوْلَ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ تَسْعَى بِزِيْلَتِهَا لِكُلِّ جَهْوَلٍ
حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَّتْ وَشَبَّ ضَرَامُهَا

عادت عجوزا غيرة ذات خليل
شمطاء جَزَتْ رَاسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْيِيلِ
وقالوا : إِذَا لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلُبْ « أَى إِذَا أَعْيَاكَ الْأَمْرُ بُغَالِبَةً فَاطْلُبْهُ
تُخَادَعَةُ » .

وقال بعضهم : كُنْ بِحِيلَتِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِشِدَّتِكَ ، وَبِحَذْرِكَ أَفْرَحَ
مِنْكَ بِبُجْدَتِكَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ حَرْبٌ لِلْمُتَهَوَّرِ وَغَنِيمَةٌ لِلْمَتَحَدِّرِ
وقالوا : حَازِمٌ فِي الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ فَارِسٍ ، لِأَنَّ الْفَارِسَ يَقْتُلُ
عَشْرَةَ وَعَشْرِينَ ، وَالْحَازِمَ قَدْ يَقْتُلُ جَيْشًا بِحَوْزِهِ وَتَدْبِيرِهِ .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو
صاحب رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحكمة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وحنن الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكائد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الأخبار ، وإظهار السرور ، وإمالة الفرق — الخوف —
والاحتراش من البطانة ، من غير إفشاء المستنصح ولا استنصاح
المستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنصلي وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصنف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالغداة درت كذا : فيتفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الأمر بعين عقله لم يقع سيف حياته إلا على مقاتله
والثبت يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .
« وبعد ، فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكائد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعليه بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأء الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأء الجيوش قول لقيط
ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقِلٌّ - كان كاتباً في ديوان
كسرى سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على
سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع
على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إيادهم ،
فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة
جداً يقول فيها :

أبلغ إياداً وخللٌ في سرائرهم إن أرى الرأي إن لم أعص قد نصعاً^(١)
يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعاً
إنني أراكم وأرضاً تعجبون بها مثل السفينة تغشى الوعث والطبيعة^(٢)
ألا تخافون قوماً لا أبالكم أمسوا إليكم كأمثال الدبا سراً^(٣)

(١) خلل في سرائرهم : خصص يقال : خلل في دعائه ، أى خصص ، قال :

كأنك لم تسمع ولم تك شاهداً غداة دعى الداعي فعم وخللا

والسراة جمع سرى ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء وهم الأشراف أو لولا
المروءة ، ونصعاً : وضع من نصع اللون نصوعاً ونصاعة : اشتد بياضه

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
السيف من الصدا ، استعاره لما يعلو الماء من الغطاء والزبد ، شبه سرورهم وهم
بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدب : الجراد قبل أن يطير ؛ وسرعاً : مصدر سماعي لسرع سراعة وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حَقِّي لا يشعرون أضلَّ الله أم نَقَعاً^(١)
أحرارُ فارسِ أبناءُ الملوكِ لهم من الجوعِ جوعٌ تَزْدَهِى القلَعُ^(٢)
إلى أن يقول :

خَزُرُ عِيُونُهُمْ كَأَنَّ كَحَظَّهُمْ حَرِيقُ غَابٍ تَرَى مِنْهُ السَّنَا قَطَعاً^(٣)
لا الحَرْثُ يُشغَلُهُمْ بل لا يرونَ لهم من دونِ بِيضَتِكُمْ رِيّاً ولا شِبَعاً^(٤)
وَأَنْتُمْ تَحْرُثُونَ الْأَرْضَ عَنْ سَفَهٍ فِي كُلِّ مُعْتَمِلٍ تَبْغُونَ مُزْدَرَعاً^(٥)
وَتَلْبَسُونَ ثِيَابَ الْأَمْنِ ضَاحِيَةً لَا تَفْزَعُونَ وَهَذَا اللَّيْثُ قَدْ جَمَعَ^(٦)

إذا عجل ، يريد : أَمْسُوا مَسْرِعِينَ

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآيأت بوزن تفاعلته ، وتآيأت به - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تَزْدَهِى : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تنقلع عن الجبل

(٣) خَزُر عِيُونُهُمْ من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهى . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنا : ضوء النار وللعان البرق

(٤) بِيضَتِكُمْ : مجتمعتكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلبت سلم ما فيها من طعم أو فرخ ، وفى الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستبيح بيضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استنصاها

(٥) معتمِل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمِل إن لم يجد يوماً على من يتكل
و أراد من يتكل عليه فحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أى أنه يعتمِل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالى أراكم نيباءاً فى بُلْهَنْيَةِ ۖ وقد تَرَوْنَ شِهَابَ الحَرْبِ قد سَطَعَا ^(١)
 فاشْفُوا غَلِيلِي برَأْيٍ مِنْكُمْ حَصِيدٍ ۖ يُصْبِحُ نَوَادِي لَهُ رِيَانٌ قد نَقَعَا ^(٢)
 وَلَا تَكُونُوا كَمَنْ قَدْ بَاتَ مُكْتَنِعَا ۖ إِذَا يُقَالُ لَهُ : افْرُجْ عُثْمَةً كُنْعَنَا ^(٣)
 يَسْعَى وَيَحْسَبُ أَنَّ المَالَ يُخْلِدُهُ ۖ إِذَا اسْتَفَادَ طَرِيفاً زَادَهُ طَمَعَا ^(٤)
 فَاقْتُوا جِيَادَكُمْ وَاحْمُوا ذِمَارَكُمْ

وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ لَا تَسْتَشْعِرُوا الجُرْعَا ^(٥)

إلى أن قال :

لَا تُهْلِكُمْ إِبِلٌ لَيْسَتْ لَكُمْ إِبِلٌ ۖ إِنَّ العَدُوَّ بِعَظَمٍ مِنْكُمْ قَرَعَا ^(٦)
 لَا تُثْمِرُوا المَالَ الأَعْدَاءِ إِنْهُمْ ۖ إِنَّ يَطْهَرُوا يَحْتَوُواكم وَالبِلَادَ مَعَا

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل فى الاصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته
 وحصد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصد - بالنحرىك - وهو فى الاصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة فى الاتار والدروع ، وكذلك رأى حصيدو مستحصد ،
 ونقع الماء العطش : أذهب وسكته ، بحثهم على توحيد الرأى لا تختلف بهم الالهواء
 (٣) مكتنعا : منقبضا مجتمعا ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الاثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد
 والتلاد والتالد ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقوا جيادكم : الزموها ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل
 وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 فى أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى
 بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبد
يا قوم إن لكم من إرث أولكم
ماذا يرُد عليكم عز أولكم
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيبراً
يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
ثم قال يصف أمير الجيش — وهو شاهدنا — :
وقلُّوا أمركم الله دَرُّكم رَحَبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلَعاً^(٥)

- (١) غير - بضمين - جمع غيور ، من الغيرة وهي : الحمية والانفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً ، والأزلم الجذع في الأصل : الوعل ، وهو تيس
الجليل ، وذلك أن له زمتين . وهما هنتان معلقتان في حلقه ، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن . استعير ذلك للدهر الشديد ، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه فتي لم تسقط له سن ، ومن كلاهما :
أودى به الأزلم الجذع يريدون : أهلكه الدهر
(٣) يجتث أصلكم : يقتله ويستأصله ، ومعنى اجتث في اللغة : أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي : سلاميات ظهر القدم ، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع ، وقوله : ثم افزعوا يريد : هبوا
وانتبهوا كما يفزع النائم ، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذي يهب وينتبه لا يخلو
من فزع ما
(٥) رَحَبَ الذَّرَاعِ كناية عن إطاقته وسعة قوته ، ومضطلع مفتعل من الضلعة
وهي قوة الاضلاع ، وقد اضطلع بحمله : قوى عليه ونهض به

لا مُتَرَفًّا إِنْ رَعَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ ولا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعَا^(١)
 لا يَطْعَمُ النَّوْمُ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلَعَا^(٢)
 مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَغْنِيهِ أُمُورُكُمْ يرومُ منها إلى الأعداءِ مُطْلَعَا
 مازال يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعَا^(٣)
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْرٍ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لَا قَهْمًا وَلَا ضَرَعَا^(٤)
 وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُشْعِرُهُ عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْنِي لَهُ الرِّفْعَا
 إلى أن قال :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه
 الهم الماضي ، والشبا جمع شبة وهي حد كل شيء وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل
 أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالفاء - وهو أن ينصدع الشيء من غير أن يبين
 خلاف القصم - بالقاف - وهو كسر الشيء الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان
 وهي : مخنية الجنب

(٣) يحلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعنى أنه مر به خبره وشبهه
 وشدته ورخاؤه : تشبيهاً يحلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفل وداراً
 وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قدامان وآخران كأنه حلب القادمين
 وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين
 كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعا طورا ومتبعا ، أى قد
 اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه : قد ألنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور
 الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ما طال واشتد فتله والجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت
 والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزمته ، والقهم : الكبير
 المسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَذَلْتُ لَكُمْ نَفْسِي بَلَا دَخَلٍ . فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ . لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا
 وَلِمَا أَوْفَدَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْجَرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِّهِ الْأَصْغَرَ وَأُجْلِيَ قَطْرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كِرْمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسَفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارِبَةُ الْمُهَلَّبِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثُ ، ^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَةُ ^(٢) رَاغَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ ، وَإِذَا مَادَّهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَرِيبِ
 وَلَهُ مَنَا طَاعَةُ الْوَلَدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَفْلَنَكُمْ قَطْرِيَّ ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذُ عُمْدَةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِّهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آثَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْفَلِّ ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : أَكُنْتَ أَعْدَدْتَ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حُثُّهُمْ عَلَى التَّفَكِيرِ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

قَالُوا : مَنْ قَاتَلَ بِغَيْرِ نَجْدَةٍ ، وَخَاصَمَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ ، وَصَارَعَ بِغَيْرِ قُوَّةٍ
 فَقَدْ أَعْظَمَ الْخَطَرَ ، وَأَكْبَرَ الْفَرَرِ ... الْفَرَرُ : الْخَطَرُ ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يربد جند العدو

(٣) الفل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فاذرعه كله وقسه قِياس الثوبِ قبل التَّمْدِيمِ
لعلك تنجو سالماً من ندامة فلا خير في أمرٍ أتى بالتندم

من يؤثر الموت في العز

على الحياة في الذل

قال المتنبي :

عش عزيزاً أومتُ وأنت كريمٌ بين طعنِ القنا وخفقِ البنودِ
فروؤسُ الرِّماحِ أذهبُ للغيةِ يظِ وأشقى لغلٍّ صدرِ الحقودِ
لا كما قد حيتَ غير حميدٍ وإذا مُتَّ مُتٌ غير فقيدٍ
فاطلبِ العِزَّ في لظى ودِّرِ الذلَّ لو كان في جنانِ الخلودِ

وقال أبو تمام :

يرى العلقم المأدوم بالعز أريّةً يمانيةً والآري بالضم علقماً^(١)
ونظر عبد الله بن علي العباسي إلى قتي عليه أبهة الشرف وهو يقاتل
مُستبسلًا^(٢) ، فناداهُ : يا قتي ، لك الأمانُ ولو كنتَ مروان بن محمد - آخر
الدولة الأموية - فقال : إلا أكنه ، فليست يدونه ، قال : فلك الأمانُ
من كنت ؛ فأطرق ثم قال :

(١) المأدوم : المخلوط ، والآرية : واحد الآري ، وهو : العسل ، وقلبا تستعمل
واحدة ، ووصفها باليانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي بالين
(٢) المستبسل الذي يطرح نفسه في الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُذِلَّ الحَيَاةَ وَكُرُّةَ المَمَاتِ وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ؛ قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ لَمْسَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مَرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل
وحثهم على تصور الموت
وتمدحهم بذلك

قِيلَ لَعَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ : أُتْقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ بِالْغَدَاةِ وَتَظْهَرُ بِالْعَشِيِّ .
فِي ثَوْبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقَالَ : أَبِالمَوْتِ أَخْوَفُ ! وَاللَّهِ ، مَا أَبَالِي أَسَقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى ! وَكَثِيرًا مَا كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْزَرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرَ (١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الأبيات :

إِنَّ أَخَوَالِي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ كَبِسُوا لِي نَعْمَسًا جِلْدَ النَّمِيرِ
تَحْتَوُوا أَثْلَتَنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرْهَبُوا غِبَّ الوَبَالِ المُسْتَعْرِ
فَلَيْتَ طَأْطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَى عِظَامِي عَنْ عُفْرِ
وَلَيْتَ غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةٍ لِأَصِيرَ نُهْزَةَ الذَّنْبِ القَفِيرِ
وَلَيْتَ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَوْهَنْتَنِي لِتُصِيبَنِي بِقُسْرِ

، وأورد ابن هشام وغيره هذا البيت هكذا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِي الْخَذَرُ
وقال المتنبي :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرِّفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
« يقول : إذا حاولت الشرف وخاطرت بنفسك في سبيل الحصول
عليه فلا تقنع بما دون أعلاه ، ولا ترضَ باليسير منه ، فإن طعم
الموت في الأمر الهين كطعمه في الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للغامر
إلا أن يقصِدَ إلى أسمى الأمور »
وقال :

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجَزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

في أي يومى من الموت أفر أَيْوَمَ لَمْ يُقَدَّرَ أَمْ يَوْمَ تُدْرُ
بفتح راء يقدر شاهد على أن لم قد ينصب بها المضارع في لغة أورد ابن هشام كلاماً لاثمة
النحاة في تخريج البيت على نصب يقدر « راجعه في المغنى في الكلام على لم ، وفي اللسان
مادة قدر ، والآل للشرح هذه الآيات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا لى عسماً جلد
النمر ، فالعس : الشدة يقول : أبطنوا لى العداوة ، وأثلة كل شيء : أصله ، ويقال :
فلان ينحت أثلتا : إذا قال في حربه قبيحاً ، وطأطأ في قتالهم : أسرع واشتد ، وقوله
* لتهاضن عظامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوال لانهم وإن كانوا أقرباء فليسوا في القرب مثل الأعمام ، والورطة
الامر تقع فيه من هلكه وغيرها أو هى الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفى الأصل :
اسم للشئ الذى هو لك معروض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال :
نهزة المختلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب القفر : المنسوب إلى القفر - المفازة
لانبات بها ولا ماء - وقوله : لتصيبني بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر
أى : صارت الشدة في قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت
بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت في الموضع الذى ينبغي

وقال : من قطعة جيدة نوردها كُلَّها لبراعتها :
 صَحِبَ النَّاسَ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانِ وَعَنَّاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَّا
 وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانًا
 رَبَّمَا يُنْحَسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ وَلَكِنْ تُسَكِّدُ الْإِحْسَانَ
 وَكَأَنَّمْ يَرْضَ فِينَا بَرِيبَ الدَّهْرِ رَحَى أَعَانِهِ مِنْ أَعَانَا (١)
 كُلَّمَا أَتَيْتَ الزَّمانُ قَنَاطَةً رَكَبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاطَةِ سِنَانًا (٢)
 وَمُرَادُ النَّفْوِسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَتَفَانَا
 غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يَلَاقِي الْمَنَازِلَ كَالْحِلَاحِ وَلَا يُبَلِّغُ الْهَوَانَ (٣)
 وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلَلْنَا الشُّجْعَانَ (٤)
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا (٥)

(١) في د يرض ، ضمير هو فاعل يرض يفسره د من أَعَانَا ، وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن د من أَعَانَا ، فاعل يرض وأَعَانَهُ على التنازع ، يقول : هذا الذي أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ كَأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ بِمَا يَصِيبُنِي مِنْ مَحَنِهِ حَتَّى أَعَانَهُ عَلَى كَمَا قَالَ الْآخَرُ :

أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكَةٌ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَلَّمَتْهُ بِي كَافِيَا
 د البرك : كمثل البعير و صدره الذي يدرك به الشيء تحته ،

(٢) القنطة : عود الرمح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإسائة بما جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصدته نحوك ، فجعل القنطة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
 (٣) كالحلحاح : عابسات .

(٤ و ٥) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعنى أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء . ثم أكد هذا بالبيت التالى يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كُلُّ مَالٍ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْإِنْفِ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثت بنو حنيفة بالفند الزماني ^(٢) حين طلبت بكر بن وائل إليهم
يستنصروهم ، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغد وبرزوا حمل على ألف فارس مُردِّف فانتظمتهم ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبر ثان ويكن تامة وكذا دكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحرئى :

لَعَمْرُكَ مَا الْمَسْكُورُهُ إِلَّا ارْتِقَابُهُ وَأَبْرَحُ يَمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ

(٢) الفند الزماني - واسمه شهل بن شيان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلي قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة ، قالها في حرب البسوس وإنما لنوردها
هنا على شهرتها :

صفحنا عن بني ذهل	وقلنا : القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع	بن قوماً كالذي كانوا
فلما صرح الشر	فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدو	بن دنأهم كما دانوا
مسينا مشية الليث	غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين	وتخضع وإقران
وطعن كغم الزق	غدا والزق ملان
وبعض الحلم عند الجهم	ل للذلة إذعان

.....

وفي الشر نجاسةٌ حـ ين لا يُنجيك إحسانُ

و الصفح : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحتنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحتنا عنهم للرحم فعسى أن تردهم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التواتر . وصرح البشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أى بين وقيل : صرح : خلص ، شبهه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان : أى منكشف لا ستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها فى مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلنا بهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحتنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقربة بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

• شدنا شدة الليث • وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفهين من الوهن وهو الضعف ، وتخضع تفهين من الخضوع وهو الذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للبضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والاجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويتر العظم مثلاً فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضع من الخضعة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضْرَبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْنَانٌ

أى يفجع الأخ بالأخ والولد بالوالد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغدا بالذال المعجمة : سال وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من قم القربة

الجود بالنفس

وحب الموت فى الوغى
وأنفقَهُم من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يَسْتَعِدُّونَ مَنَائِمَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَأْسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

وقال :

وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ نَحْتِ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبَتْهُمْ لَمْ يَحْسَبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُنْخَاقُ
أَنْظَرُ بِحَيْثُ تَرَى السُّيُوفَ لَوَائِمًا أَبَدًا وَفَوْقَ رُؤُسِهِمْ تَتَأَقُّ
وقال بشامة بن حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمَنِ أَغْلَيْنَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروح تقدمنا للقضاء ، فإن ذهبنا ذهبنا رخيصة
لأننا بذلناها بالاندام ولم نمنعها بالإحجام ، وإكبتها يوم الأمان غالية ، والالاف فى
وأغلياء : للاطلاق ، والزون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم
مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

نُعَرِّضُ لِلسُّيُوفِ إِذَا التَّقَيْنَا نَفُوسًا لَا نُعَرِّضُ لِلسَّبَابِ
وكما قال الأجدع والدمسوق للفقير .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
ولائي من قوم كأن أنفسهم بها أتت أن تسكن اللحم والدم
وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي — شاعر إسلامي — : ^(١)
ومامات منا سيد حنف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل ^(٢)

لقد عيّلت نسوان ممداناً أذا
لهنّ غداة الرّوع غيرُ بدول
وأبدل في الهيجاء وجهي ولاني له في سوى الهيجاء غيرُ بدول
(١) تروى هذه الآيات للسّمؤال بن عاديّا اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسّمؤال - فتروى :
• ومامات منا سيد في فراشه •
أي بدل • ومامات منا سيد حنف أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
وسلم هو أول من قال : مات حنف أنفه
(٢) قلنا : إن أول من قال : حنف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لأفقه فات ، والحنف : الهلاك ، قال : كانوا
يتخيّلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة
غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حنف أنفه
— ويقال : مات حنف أنفه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
أيضاً : مات حنف فيه ، ومن قال : حنف أنفه أراد سمي أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزي :
والمعنى : كان حنفة - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالأنفاس التي خرجت من أنفه عند
نزول الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الأنف بذلك لأنه من جهته
يتقضى الرّمق وقوله :

• ولا طل يوماً حيث كان قتيل •

فانه يقال : طل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسُنَا وَكَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ^(١)
وقال عَنَتَرَةُ :

بِكَّرْتُ مُتَخَوِّفِي الْخُتُوفِ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْخُتُوفِ بِمَعْزِلِ
فَأَجِبْتُهَا : إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ لَا بُدَّ أَنْ أُنْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهْلِ
فَأَنَّنِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرُؤُ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مُثَلَّتٌ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضْنِكَ الْمَنْزِلِ
« الختوف : المكارة والمتآلف ، و « عن عرض » أى ما يعرض منها
وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله :
فَأَنَّنِي حَيَاءُكَ ، أى احفظيه ولا تضعيه ، والضنك : الضيق يقول : إن
المنية لو حُلِقَتْ مِثَالًا لكانت فى مِثْلِ صورتي ... »



وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لقد كَيْتُ كَذَا وكَذَا
زَحْفًا ، وما فى جسدِي مَوْضِعُ شِبْرِ إِلَّا وَفِيهِ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ ،
ثم ما أنا ذا أَمُوتُ عَلَى فَرَأْسِي حَتْفَ أَنْفِي ! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبَنَاءِ ...
« وقد تقدم ذلك »

وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لأموت ولكن نقتل ، ودم القتل منالايبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هَلِ الْجُودُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بَأَنْفُسٍ عَلَى كُلِّ مَاضٍ الشَّفَرَتَيْنِ قِصِيدٍ
وَمَنْ هَرَّ أَطْرَافَ الْقَنَاخَشِيَّةِ الرَّذَى فَلَيْسَ لِمَجْدٍ صَالِحٍ بِكَسُوبٍ
وماهى إلا رَقْدَةٌ تُورِثُ الْعُلَى لِرَهْطِكَ مَاخَنَتْ رَوَائِمُ نَيْبٍ
« هر أطراف القناخشة يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هراً
وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أى كرهها قال
عنتره :

حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْخَيْلُ تُرْدِي بِنَامِعًا نُزَايِلُكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا^(١)
عَوَالِي زُرْقًا مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَةٍ هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَقِينَ الْأَفَاعِيَا
وقوله : وماهى إلا رقدة ... البيت قال المبرد : مأخوذ من قول
أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقر ، وهو اليوم الذى
قُتِلَ فِيهِ - : قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْأَشْعَثِ - عبد الرحمن بن الأشعث -
مَا كَانَ عَلَيْهِ لَوْ غَمَضَ عَيْنَيْهِ سَاعَةً لِلْبُوتِ وَلَمْ يَكُنْ قَتِيلَ نَفْسِهِ ... وذلك
أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ قَامَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ فِي سَطْحٍ لِلْبُولِ ، فزعموا أَنَّهُ رَدَى
نَفْسَهُ ، وَغَيْرُ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُونَ : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بِسَنَةِ النَّوْمِ . وقوله
تُورِثُ الْعُلَى لِرَهْطِكَ ، فالمعنى : تورث العلى رهطك ؛ ومثله قوله تعالى :
(إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْبَا تَعْبُرُونَ) والنَّيْبُ جَمْعُ نَابٍ وَهِيَ : الْمُسْتَهْ مِنْ الْإِبْلِ
تَسْمُوها بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظُمَ ، وَالرَّوَائِمُ : الْعَاطِفَاتُ عَلَى أَوْلَادِهَا »

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرجم الفرس الأرض رجماً بحوافره
من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أى لا نزايلكم خذف لا على
حد قولهم نالته أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : ما زايلته : أى
ما بارحتة ، والعوالى جمع عالة : الرمح رهى مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب لا بُدَّ أن يُوطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظَنَّ مَنْ يُلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظَنَّ عجزاً
وقالوا : * إِنَّ الشجاعة مقرون بها العَطَبُ * ^(١)
وقال تأبط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسه :
ومن يُغَرَّ بالاعداء لا بُدَّ أنه سَيَلْقَى بهم من مَضْرَعِ الموت مَضْرَعاً

في القتل حياة

قال المهلب بن أبي صفرة : ليس شيء أنتمى من سيف ! ولقد صدق
فما نال السيف أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج
لا امرأة من الخوارج : والله لا حصدنكم حصداً ، فقالت : أنت تحصد
والله يزرع ، فانظر أين قُدرة المخلوق مع قدرة الخالق !
ومما يصح أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشجِّعني هندٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العَطَبُ
لا والذي مَنَعَ الأبصارَ رُؤْيَتَهُ ما يَفْتَتِي الموت عندي من له أَرْبُ
لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللهُ سَبِيلَهُمْ إِذَا دَعَتْهم إلى نيرانها وثبوا
ولمستُ منهم ولا أبغى فَعَالَهُمْ لا القتلُ يُعْجِبُنِي منها ولا السلبُ

في القصاص حياة يا أولى الألباب ،^(١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بِمَ غَلَبْتَ الأقران ؟ قال : بِتَمَكُّنِ هَيْبَتِي فِي قُلُوبِهِمْ ... وَبَعَثَ أَمِيرٌ فِي طَلَبِ قَوْمِ رَجُلًا ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِرَجُلٍ أَطْوَلَ مَا يَكُونُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَمَكَّنْتَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : وَقَعَ فِي قَلْبِي أَنْ أَخْذَهُ ، وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ مَا خَرِذَ ، فَنَصَرَنِي عَلَيْهِ خَوْفُهُ وَجُرْأَتِي ... وَنَظَرَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ شَتَّى العِسْكَرَ ، فَقَالَ : قَدْ عَمِلْتُ أَنْ مَلَكَ المَوْتُ فِي الجَانِبِ الَّذِي فِيهِ عَلِيٌّ .

وَمِنَ المَأْثُورِ عَنِ المِصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » ... قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ : كَانَ أَعْدَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الخَوْفَ مِنْهُ ، فَإِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ هَابُوهُ وَفَزِعُوا مِنْهُ .

(١) قَالَ الزَّيْطُونِيُّ : كَلَامُ فَصِيحٍ لَمَّا فِيهِ مِنَ الغَرَابَةِ ، وَهُوَ أَنَّ القَصَاصَ قَتَلَ وَتَفَوَّيْتُ لِلْحَيَاةِ وَقَدْ جَعَلَ مَكَانًا وَظَرْفًا لِلْحَيَاةِ ، وَمِنْ إِصَابَةِ عَجْزِ البَسْلَاغَةِ بِتَعْرِيفِ القَصَاصِ وَتَسْكِينِ الْحَيَاةِ لِأَنَّ المَعْنَى : وَلَكُمْ فِي هَذَا الجُنْسِ مِنَ الحُكْمِ الَّذِي هُوَ القَصَاصُ حَيَاةٌ عَظِيمَةٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ بِالوَاحِدِ الجَمَاعَةَ ، وَكَمْ قَتَلَ مَهْلَهْلُ بِأَخِيهِ كَلِيبَ حَتَّى كَادَ يَفْنَى بِكَرْبَنٍ وَائِلٍ وَكَانَ يَقْتُلُ بِالمَقْتُولِ غَيْرَ قَاتِلِهِ فَتَشَوَّرَ الفِتْنَةُ وَيَقَعُ بَيْنَهُمُ التَّنَاحَرُ ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلَامُ شَرَعَ القَصَاصَ كَانَتْ فِيهِ حَيَاةٌ أَى حَيَاةٌ ، أَوْ نَوْعٌ مِنَ الْحَيَاةِ وَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَاصِلَةُ بِالْإِرْتِدَاعِ عَنِ القَتْلِ لَوْ قُوعَ الْعِلْمُ بِالْإِقْتِصَاصِ مِنَ الْقَاتِلِ ، لِأَنَّهُ إِذَا هُمُ بِالْقَتْلِ فَعَلِمَ أَنَّهُ يَقْتَصُ مِنْهُ فَارْتَدَعَ سَلْمٌ صَاحِبُهُ مِنَ القَتْلِ وَسَلْمٌ هُوَ مِنَ الْقَوْدِ فَكَانَ القَصَاصُ سَبَبَ حَيَاةِ نَفْسَيْنِ ...

وقال المتنبي : * وَيَسْتَعْظُمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ خَادِمُهُ *

وقال سلم الخاسر : * كَأَنَّ الْمَنَايَا جَارِيَاتُ بِأَمْرِهِ *

وقال الفرزدق :

تَسْلَطُ السَّيْفُ مِنْ شَمُوقٍ إِلَى أَنْسٍ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِفْدَارُ تَلْتَظِرُ

أَظْلَهُ مِنْكَ حَتْفٌ قَدْ تَجَلَّلَهُ حَتَّى يُؤَامِرَ فِيهِ رَأْيُكَ الْقَدْرُ (١)

وقيل الأسكندر : إِنَّ فِي عَسْكَرٍ دَارًا أَلْفَ مُقَاتِلٍ ، فَقَالَ : إِنَّ الْقَتَابَ

الْحَاقِذُ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا لَا يَهُولُهُ كَثْرَةُ الْغَنَمِ ... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَالْأَلْفِ بِأَسَا وَنَجْدَةٍ وَالْفُهُمُ لِلْعُجْمِ وَالْعَرَبِ قَاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرمصة :

لَقِيْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبَدٌ (٢)

فِي مَوْقِفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزَّوَامُ بِهِ

فَالْمَجْدُ يَوْجَدُ وَالْأَرْوَاحُ تُفْتَقَدُ (٣)

مُسْتَصْحِبًا نِيَّةً قَدْ طَالَمَا ضَمِنْتَ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْفَتْ بِالذِّى تَعِدُ

وَرُحْبَ صَدْرِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كَوُسْعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ (٤)

صَدَعَتْ جَرِيَّتُهُمْ فِي عُصْبَةِ قُلُلٍ

قَدْ صَرَحَ الْمَاءُ عَنْهَا وَأَنْجَلَى الزُّبْدُ

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَغٍ تَرْتَاغِ الْمَنُونُ لَهُ
 إِذَا تَجَرَّدَ، لَا نِيْكَسْ وَلَا جَجِدُ^(١)
 يَكَادُ حِينَ يُبْلَقُ الْقُرْنُ مِنْ حَقَقِ
 قَبْلَ السَّيْنَانِ عَلَى حَوْبَانِهِ يَرِدُ^(٢)
 قَمَلُوا وَلَسَكَنَهُمْ طَابُوا فَأَنْجَدَهُمْ
 جَيْشٌ مِنَ الصَّبْرِ لَا يُحْصَى لَهُ عَدَدُ

المتهبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وفرسانها^(٣)
 يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَأَحُوا
 وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسه وبعده :

(١) النيكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوباء : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لي فيه ولا جمل فعرض سعد في هذا الشعر بعودة الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها الممدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قَرَّبَا مَرْبِطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنِ حِيَالِ

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني ممن وضعته ! — يشير إلى قول سعد : التي وضعت أراهط — قال سعد : لا ، ولكن لا نجأ لعطر بعد عروس ، ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحِمَا حِمِّهَا التَّخْيِيلُ والمِرَاحُ
إِلا الْفَتَى الصَّبَّارُ فِي النَّجَّدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ
الْمَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا قَصْرَ وَلَا عَنْهُ جِحَّاحُ
وَكَأَنَّمَا وِرْدُ الْمَنِيِّ بِنُورٍ عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصله : يا بُؤْسَ الحرب ، فَأُفْحِمَتِ اللام
بين المتضايقين ، يدعو على الحرب وَيُذَمُّ نكباتها سخرية ؛ ومعنى وضعت
أراهمط : حَطَّتهم وأسقطتهم فلم يكن لهم ذكر ولا شرف في هذه الحرب
فاستراحوا من مكابذها كاللساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع
المكازم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أبالي أَهْجِيتُ أُمَّ مُدِخَتْ ،
فقال : استرحتَ من حيث آوَيْتَ الكرام ، وأراهمط إما جمع أَرُهمط جمع
رهمط وإما جمع رهمط على خلاف القياس ، والردط : نفر من ثلاثة إلى
عشرة ، والجاحم : المكان الشديد الحر ، من جَحَمَتِ النار فهي جاحمة :
إذا اضطربت ، ومنه الجحيم ، والتخييل : التكبر ، من الخيلاء . يقول :
إنما لا تُبْقَى على نخوة المنخو ، وذلك أن أولى الغناء يتكرمون عن
الخيلاء . ويختال المغرور فإذا جُرِّبَ فلم يُحَمَّدَ أَفْتَضَحَ وسقط ، أو تقول
مَنْ كَانَ ذَا خَيْلَاءٍ ومرح ثم بُلِيَ بالحرب شَغَلَتْهُ عَنْ خَيْلَائِهِ ومرحه .
والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكف حدة البطر النشط ، وهذا
تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خيلاء ومرح . والصبار مبالغة صابر
والنجدة : الشدة والبأس في الحرب ، والوقاح : الفرس الذى حافره صُلْبٌ
شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابن قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت
وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا براح حال مؤكدة
لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح
مصدر براح الشيء براحاً : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا قصرُ هناك
ولا جحاح فالقصر . الحبس ، والجحاح مصدر جمع : إذا انفكت وهرب يريد :
لا يمكن حبس نفس عن الموت ولا مهرب عنه . والورد : الورد وهو دخول
الماء ، وقيل : حضوره وإن لم تدخله .
وقال شاعر :

ماذا قَ هَمّاً كالشَّجَاعِ وَلَا خَلَا بِمَسَرَّةٍ كَالْعَاجِزِ الْمُتَوَانِي

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

وَالصَّبْرُ بِالْأَرْوَاحِ يُعْرَفُ فَضْلُهُ صَبْرُ الْمُلُوكِ وَلَيْسَ بِالْأَجْسَامِ
وقال شاعر :

وإِنِّي لَلْقَوَى عَلَى الْمَعَالَى وَمَا أَنَا بِالْقَوَى عَلَى الصَّرَاعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان فى الشبان شيء إلا وكان فى منه
مُسْتَمْتَعٌ ، إلا أنى لم أكن نُكَّحَةً وَلَا صُرْعَةً . « رَجُلٌ نُكَّحَةٌ : كثير
النكاح — الوطء — ورجل صُرْعَةٌ : يصرع الناس »

وأورد أبو تمام فى حماسه لبعض الشعراء :

لَا قُوَّتِي قُوَّةُ الرَّاعِي قَلَائِصُهُ يَاوِي فَيَاوِي إِلَيْهِ الْكَلْبُ وَالرُّبْعُ
مِنَّا الْإِنَاءُ وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَحْسَبُنَا أَنَا بِطَاءٌ وَفِي إِبْطَانِنَا سَرَعُ

« يقول : ليس غنائى فى المِهْمَاتِ غَنَاءَ الرعاء الذين سعيهم مقصور على ضم القلاص وحفظها فى مراعيها فإذا أوى إلى موضع أوى إليه كلبه الذى يحرسه ورُبعه ، وهو ما تُنتج فى الربيع ، والسرعة : السُرعة »

القصء إلى العءى بجاهرة

قال السرى الرفاء : من أبياء يمدح بها سيف الدولة بن حمدان :
ويجعلُ بشره نُذْرَ الأءاءى فيبعثه جنوباً أو شمألاً
ولم يُنذِرْهم مِقَّةً ولمكن ترفع أن يصيبهم اغتيالاً^(١)
وأشار على الإسكندر المقدونى أصحابه أن يبيت الفرس^(٢) ، فقال :
ليس من الإنصاف أن أجعل غلبتى سرقة ...

المقاتل عن حريمه

ليم الإسكندر على مباشرته الحروب بنفسه ، فقال : ليس من الإنصاف
أن يقتل قومى عنى وأترك القتال عنهم وعن أهلى ونفسى ...
وقيل للحسن البصرى : يا أبا سعيد ، إنا نكون فى هذه البعوث
والسرايا فنصيب المرأة من العدو ، وهى ذات زوج ، أفتحل لنا من قبل
أن يطلقها زوجها ؟ وكان الفرزدق حاضراً ، فقال الفرزدق : قد قلت أنا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبيت العدو : أن يقصد فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، والاسم :
البيات ، وأما قولهم : بيت الأمر فمعناه : دبره بليل قال تعالى : إذ يبيتون ما لا يرضى
من القول ، قال الزجاج : كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت ، يقال : هذا
أمر دبر بليل وبيت بليل ، بمعنى واحد .

في مثل هذا شعراً ، وأنشد :

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رَمَاحُنَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطَلَّنِي ^(١)
فَقَالَ الْحَسَنُ : أَصَبْتَ ، كُنْتُ أَرَى أَنَّكَ أَشْعَرُ مِنِّي فَإِذَا أَنْتَ أَفْقَهُ
قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعَمْدَةِ : وَمَا أَظُنُّ الْفَرَزْدَقَ إِلَّا أَرَادَ مَذْهَبَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي
التَّبَايَا ...

وَقَالَ زِيَادُ الْأَعْجَمُ مِنْ كَلِمَتِهِ الَّتِي يَرْتِي بِهَا الْمَغِيرَةَ بْنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ
أَبِي صُفْرَةَ :

صَمْنَانٍ مُحْتَلِفَانِ حِينَ تَلَقَّيَا أَبَا بَوَّحٍ مُطَلَّقِي أَوْ نَكِيحِ

المستنكف من السلب

قَالَ أَبُو نَمَامٍ مِنْ بَائِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَمْنَى فِيهَا الْمُعْتَصِمُ بِفَتْحِ عَمْرِيَّةٍ :
إِنَّ الْأُسُودَ أَسُودَ الْغَابِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرْبَةِ فِي الْمُسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
وَقَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرَادَ قَنْبَرُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْبَهُ ،
فَقَالَ : يَا غَلَامَ ، لَا تُعَرِّ فَرَائِي ... وَقَالَ عَنُتْرَةَ فِي مَعْلَقَتِهِ :

هَلَّا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي ^(٢)
يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَغَشَى الْوَعْيَ وَأَعْفَى الْمُنْعَمِ

• جَهِارًا بِأَيْدِينَا وَلَمَّا تَطْلُقْ

(١) يَرُوى الْعَجَزُ هَكَذَا :

(٢) الْحَيْلُ يَرِيدُ : الْفَرْسَانُ

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لَاغْزَوَنَّكَ بِمُرْدٍ عَلَى جُرْدٍ ^(١) ، فقال له : لَا لَقَيْنَكَ
بكهول على خُفول .
وقال المتنبي :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّشَمُّوا مُرْدٌ ^(٢)
يَقَالُ إِذَا لَا قَوْا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا
كثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُذُّوا ^(٣)
وَطَمَنٍ كَانَ الطَّمَنَ لَا طَمَنَ عِنْدَهُ
وَضَرْبٍ كَانَ النَّارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدٌ ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والأجرد من الخيل : السباق .

(٢) يقول : سأطلب حقي بالرماح وبصحب لي لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، واللثام في الحرب عادة العرب لئلا تسقط عمائمهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايع عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محنكون مجربون ولذلك جمعاهم مشايخ

(٣) مراده بكونهم ثقالا : شدة وطأتهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالخفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قلتهم في العدد يغنون غناء الدواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير في عنده يعود إلى الطعن الاول يقول : وأطلب حقي بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شيء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِئْتُ حَقَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ

رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدٌ^(١)

وهم يفضلون الشُّبَّانَ عَلَى السَّكُهُولِ فِي الْحُرُوبِ ، وَقَدْ أوردَ الرَّاعِبُ فِي مُحَاضِرَاتِهِ أَيْبَاتًا عَزَاهَا إِلَى طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فِي هَذَا الْمَعْنَى^(٢) ، وَالْأَيْبَاتُ وَإِنْ كَانَتْ فِي مَعْنَاهَا نَدَ أَسَابِتِ مَقْطَعِ الْحَقِّ وَالسَّدَادِ بَيِّنَةٌ أَنَّ مَعْنَاهَا لَيْسَ مِنَ الْجَمَالِ فِي شَيْءٍ وَمِنْ تَمِّمٍ اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُنْشُرَهَا وَنُورِدَهَا عَلَيْكَ مَشُورَةً بِالْفَاطِنَا مَعَ الْحَافِظَةِ عَلَى الْمَعْنَى ، وَهَآكِهَآ : مِنْ صَائِبِ الرَّأْيِ أَنْ تَنْتَظِرَ فِي تَدْبِيرِ حَرْبِكَ بِالشَّيُوخِ الْمُتَحَنِّكِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالْأَيَّامِ حُلُولِهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ نَفَعْنِي آرَاؤُهُمْ غَنَاءَ الْعَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْشَى الْوَعْيَ إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ السَّكُهُولَ الَّذِينَ تَنْفَسُ بِهِمُ الْعُمَرُ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَازِلِ الْمَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ الْمَوْتَ أَبَدًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَزَاءِ ذَلِكَ يُحِبُّونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأوًا بَعِيدًا يُرِيدُهُ ، وَأَمَّا لَا عِرَاضًا بِحَاوِلِ تَحْقِيقِهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بِعَيْدٍ مُرْتَقَى الْهَمَّةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

- (١) فِي فَمِهَا أَرَادَ : فِي أَفْوَاهِهَا فَأَرْقِعِ الْوَاحِدَ مَوْقِعَ الْجَمَاعَةِ ، وَالسَّابِجُ : الْفَرَسُ السَّرِيعُ الْجَرَى كَأَنَّهُ يَسْبِجُ
- (٢) هُوَ وَالِدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْوَانِ الْمَأْمُونِ وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى مُحَارَبَةَ الْأَمِينِ حَتَّى قَتَلَهُ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ أَدِيبًا يُحِبُّ الشَّعْرَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ لَهُ شَعْرٌ فَلَعَلَّ هُنَاكَ تَحْرِيفًا فِي الْمَحَاضِرَاتِ وَلَعَلَّ الْأَيْبَاتُ لَا بَنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ الَّذِي كَانَ لَهُ شَعْرٌ مَلِيحٌ .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَعْدَاؤُهُ وليس يَأْسُو فَتَقَهُ آسَى ^(١)
فالنَّاسُ جِسْمُهُ وَإِمَامُ الْهَدَى رَأْسُهُ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ
وَقَالَ السُّكْمَيْتُ :

لَا يَهْدِيُمُ النَّاسُ مَا تَبْنَى أَكْفَهُهُمْ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَبْنُونَ مَا هَدَمُوا ^(٢)
وَقَالَ أَشْجَعُ الثَّلَاجِيِّ مِنْ قَصِيدَةِ يَمْدَحُهَا جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى الْبَرْمَكِيُّ وَزِيرُ
الرَّشِيدِ :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَنْ حَطَّهُ وَلَا يَضُمُونَ الَّذِي يَرْفَعُ
وَابْعَدَهُ :

تَرِيدُ الْمَلُوكَ مَسَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ
وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :
وَلَمْ يَلِكْ أَكْثَرَ الْفَتَيَانِ مَا لَا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعَا

(١) الرتق ضد الفتق وهو : لأم الفتق وإصلاحه ، ويأسو فتقه مجاز من أسا الجرح يأسوه : داواه . والآسى : الطبيب المداوى
(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يجبرُ الناسَ عَظْماً أَنْتَ كاسِرُهُ ولا يهَيِّضونَ عَظْماً أَنْتَ جابِرُهُ^(١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أولُ من وَصَفَ المحارِبَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رُفْقَةً بانتصارِهِ ،
وبالشَّجَعِ من فرائِسِهِ : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسَّان بالشام :

إذا ما غَزَوْا بالجيشِ حَلَقَ فوقَهُم عصائبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
يُصَاحِبُهُمْ حَتَّى يُغَرْنَ مُغَارَهُمْ مِنَ الضارياتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْراً عِيُونُهَا جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ قَيْسِلَهُ إِذَا مَا أَلْتَمَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
لَهُنَّ عَلَيْهِمْ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَهَا إِذَا عَرَّضَ الْخَطَى فَوْقَ الْمَكْوَاثِبِ

«العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبهم يقول : تسير جماعاتُ
الطير معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخُزْر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتحدّد النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقع على أعلى الأرض والهضاب
كأنها في ريشها ووقوفها وتحديد النظر تترقب القتلى جالسة جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأَكْسِيَةِ المَرَانِبِ يحدّدون النظر إلى شيء بعيد ، والمَرَانِبِ

(١) هاض العظم : كسره بعد الجور

جمع مَرَبَّاتَانِي ، وهو الثوب المبطن بفراء الارانب . وجوانح : مائلات للوقوع . والخطي : أى القنا المنسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب — بالشاء المثانة — جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت السكاهل . إلى الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يضع الفارس عليها رُحْمَهُ مُسْتَعْرِضًا ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضت على الكواثب كان ذلك لِرِزْقٍ يُساق إليها . »

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَلَتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضَحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ^(١)
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تُفَارِقِلِ
وَقَالَتْ جَنْوَبُ أُخْتُ عَمْرِو ذِي السَّكَبِ تَرْيِيهِ :

تَمْشِي الثُّورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْغَذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبُ
« الْجَلَابِيبُ : ثَوْبٌ أَوْسَعُ مِنَ الْخِمَارِ دُونَ الرِّدَاءِ تُغَطِّي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا وَقِيلَ : الْمَلَأَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ : أَنَّ الثُّورَ آمَنَةٌ مِنْهُ لَا تَفَرِّقُهُ لِكَوْنِهِ مَيْتًا فَهِيَ تَمْشِي إِلَيْهِ مَشَى الْغَذَارَى ، وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَرْئِيَّةُ :

كُلُّ امْرِئٍ يَطْوَالِ الْعَيْشِ مَكْذُوبٌ
وَكُلُّ مَنْ غَابَ الْإِيَّامُ مَغْلُوبٌ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً : سباع الطير .

تَرَكْتَ جَمَاعَهُمْ فِي النَّقَا . وَمَا يَتَخَلَّصَنَّ لِلنَّاحِلِ ^(١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رِبْعَ السَّبَاعِ فَأَنْبَتَ يَا حَسَانُكَ الشَّامِلِ

وقال :

سحابٌ مِنَ الْعِثْمَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سحابٌ إِذَا امْتَدَّتْ سَقَتُهَا صَوَارِمُهُ
وقال في صفة جيش وقد ألمَّ بهذا المعنى :
وَذَى لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بَنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ ^(٢)
تَمَرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ ^(٣)
إِذَا ضَوْؤُهَا لَا قِيَّ مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةٌ
تَدَوَّرُ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ ^(٤)

وقال :

يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَانِهِمْ تَقَعُ

-
- (١) النقا : الكتيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطاحتها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال في البيت التالي : تركتهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكانت أنبت لها ربيعاً فلو قدرت السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك
- (٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمثار : الذي أثاره الخوف من مكنه يقول إذا طار ذو الجناح وسأيره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش ، وإن ثار وحش أخذ
- (٢) القشاعم : النور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة عقبانها التي تخيم عليه وتبعه ولا ينفذ ضوءها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في البيت التالي
- (٤) البيض جمع بيضة وهي : الخوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوقه بالدرهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَمَيَّأَ الطَّيْرُ عُذْرَتَهُ رِقَّةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزَرِهِ
« تَأْيَأُ الشَّيْءُ : قَصْدُ آيَتِهِ ، أَيْ شَخْصِهِ . وَالْجَزَرُ : قِطْعُ اللَّحْمِ »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته ويقينه عنها

قال أبو تمام في المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلْبَنَائِي عَارِضًا لَبُّسُوا مِنْ الْيَقِينِ دُرُوعًا مَالَهَا زَرَدُ
وَسُسَيْلَ بَعْضِ الْأَبْطَالِ : فِي أَيْ الْجُنَيْنِ تُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ ؟
قَالَ : فِي أَجَلٍ مُسْتَأْخِرٍ ... وَقِيلَ لِآخِرٍ : لَوْ احْتَرَسْتَ ! فَقَالَ : كَفَى
بِالْأَجَلِ حَارِسًا ...

ومما يؤثر في كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن
الوليد من قصيدته التي يمدح بها يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخى معن
ابن زائدة :

تَرَاهُ فِي الْأَمْنِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

وبعده :

لَا يَتَّبِقُ الطَّيْبُ حُدَيْدَهُ وَمُفْرِقَهُ وَلَا يُسَّحُّ عَمَلِيهِ مِنَ السَّكَلِ
يُرَوَّى أَنَّ عَمَّهُ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكَ مَا تَبْسُطِينَ بِهِ عَذْرَى ، يَا غَلَامَ ، اذْهَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى أَتَى عَلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ لَمْ لَمْشُوا

أن جاؤا في الغلائل المَطْيِيَّة والنَّعال السُّنْدِيَّة ، وذلك بعد هُدَاةٍ من الليل ، فسَلُّوْا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، يا غلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجَلًا وعليه سلاحُه ، فوضع رُفْحَه بباب المجلس ، ثم دخلَ ، فقال مَعْنُ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسولُ الأمير فسبق وَهَمِي إلى أنه يُريدني لِهُمْ فَلَبِستُ سلاحِي وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غيرُ ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خَرَجُوا قالت زوجته قد تَبَيَّنَ لي عُذْرُكَ ، فَأُشِدُّ مُتَمَثِّلًا :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلَّتَهُ الْكَرُّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا مُهَامَا

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويُروى : أن مُسْلِمًا لما انْتَهَى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هَلَّا قُلْتَ كما قال أَعَشَى بكر بن وائل في مدحه قيس بن معديكرب ^(١) وإذا تَجَيَّءُ كَتِيبَةٌ مَلْبُومَةٌ شَهَبَاءُ تَجْتَلِبُ الْكُمَاةُ زَوَاهَا ^(٢) كنت الْمُقَدَّمُ غير لَابِسِ جُنَّةٍ بالسيف تُضْرِبُ مُعَلِّيًا أَبْطَالَهَا ^(٣)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملبومة : مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكمأة : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولي أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحُرِّقِ وأنا وصفته بالحزم . ويُروى مثل هذا لعبد الملك بن مروان مع كُثَيِّرِ عَزَّة ...

تحريم الملاهي على المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَا ذُقْتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِحْمًا وَلَا حَلْوَاءً بَلْ أَقْتَصَرْتُ عَلَى الْخُبْزِ حَتَّى فَرَّغْتُ .

وكتبَ عَامِلُ الْيَمَنِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ، وَلَمْ يَرِ مِثْلُهَا قَطُّ ، فَلَمَّا دُخِلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهَهَا جَمِيلًا وَخَلْقًا نَدِيمًا ، فَأَتَى إِلَيْهَا قَضِييَا كَانَ فِي يَدِهِ فَتَنَكَّسَتْ لِتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جَسْمًا قَدْ بَهَّرَهُ ، فَلَمَّا تَمَّ بِهَا أَعْلَبَهُ الْأَذِنُ أَنْ رَسُولَ الْحِجَابِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَنَحَى الْجَارِيَةَ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةِ وَيَقُولُ : مَا أَفْذْتُ فَائِدَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَتَقُولُ : فَا بِالْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ أَلَأَمَ الْعَرَبِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ غَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قُتِلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، قَوْلُ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي وأيام صفين : أيام الحرب بين علي بن أبي طالب وبين معاوية وكانت مدتها مائة يوم وعشرة أيام وكانت وقائعها تسعين وقعة وكانت في سنة ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يحتبها في طهرها وهو الوقت الذى يستقيم له غشيانها فيه
 وفي هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هودّة بن على الحننى :
 وفي كلّ عام أنت جاشم غزوة تشدّ لأنصاها عزيمة عوائكا
 مورتة مالا وفي الحى رفعة لماضع فيها من قروء نسا نكا
 « جاشم اسم فاعل جشيم الأمر - بالكسر - تكلفه على مشقة ،
 والعزيم كالعزيمة مصدر عزم على الأمر : جدّ فى عمله ، والعزاء : الصبر
 يقول الأعشى : أنت فى كل عام تُكلف نفسك الغزو واتحام مكارهه
 تشدّ وتوثق عزيمة صبرك لأنصاها ، أى أبعدىها وأعلاها ، أو غايتها
 ومُنْتَهَاها ، وهذه الغزوات تُورثك مالا كثيراً بغنائها ، ورفعة لك فى
 الحى . والقروء جمع قرء وهو : الطهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلقات
 يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء اختلف العلماء فقال الحجازيون القروء :
 الأطهار ، وقال أهل العراق الحيض ، أما فى قول الأعشى فالقروء : الأطهار
 لا الحيض لأن النساء إنما يُؤتىن فى أطهارهنّ لافى حيضهنّ فإنما ضاع
 بغزوه وغلبته عنهن أطهارهنّ . هذا واللام فى قوله : لماضع فيها لام
 العاقبة مثلها مثل اللام فى قوله تعالى : وما خلقت الجن والإنس إلا
 ليعبدون ، وقوله تعالى : ليكون لهم عدواً وحزناً . هذا وقوله تعالى ثلاثة
 قروء قال الأصمى : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثلاثة أقروء ولا
 يجوز أن يقال : ثلاثة فلوس ، إنما يقال : ثلاثة أدلس فإذا أكثرت فهى
 الفلوس ، ولا يقال : ثلاثة رجال إنما هى ثلاثة رجلة ، ولا يقال ثلاثة
 كلاب إنما هى ثلاثة أكلب . وقال النحويون : فى قوله تعالى : ثلاثة قروء
 أراد : ثلاثة من القروء »

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا . » التلح : الصلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكر وتوث ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . » نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعْفِ والنَّعَالِ ، والجمع في اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا »

ومن كلامهم : الحرب صعبة مرة ، والصلح آمن ومسرّة ومنه : إياك والمعادة ، فإنك لن تعدم مكرّ حليم ، أو مفاجأة لئيم . ومنه : لا تستثيروا السباع من مرايضها فتندموا ، وداروا الناس في جميع الأحوال

ومنه : الفتنة نائمة ، فمن أيقظها فهو طعامها ، الفتنة هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب .

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما عايستم وذُقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضرّ يئموها فتضرم
فتعرككم عرك الرّحى يئفأها وتلتح كشافاً ثم تلتج فتسهم

فَتُنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَنْحَرِ عَادٍ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِمَ.
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغِلُّ لِأَهْلِهَا قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِينٍ وَدِرْهَمٍ.
إِنْ أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الزَّحَاجِرِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتٌ كُلٌّ لَهُدَمٍ
« المرجع من الحديث : المَقُولُ بطريق الظَّنِّ لا عن تحقيق ، يقول :
وما حدثني عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المُفَسَّرِ ، وإنما أنتم قد
علمتم ويلات الحرب وذقتموها فلا تقرّبوها ؛ وَضَرِي يَضْرِي : اشتد حرّصه
والنضرية : الحمل على الضراوة . وَضَرِمَتِ النَّارُ تَضْرَمُ : التَّهَيَّتِ يقول :
متى تهيجوا الحرب تهيجوها مدمومة ، أَيْ تُذْمُونَ على إثارتها ، وَيَشْتَدُ
حَرِّصَهَا إِذَا حَمَلْتُمُوهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَرْصِ فَيَشْتَدُ حَرُّهَا وَتَلْتَهَبُ نَارُهَا ، يُحْتَمُّهُمْ
عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْأَصْلَاحِ وَيَنْذَرُهُمْ بِسُوءِ عَاقِبَةِ إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ . وَقَوْلُهُ : فَتَعْرَكُكُمْ
أَلْبَيْتَ ، فَالْعَرَكُ : الدَّلْكُ ، وَالثِّغَالُ : الْجِلْدُ أَوْ الْحِرْقَةُ تَوْضَعُ تَحْتَ الرَّحَى
لِيَقَعَ عَلَيْهَا الطَّحِينَ ، وَالبَاءُ فِي « بِشْفَالِهَا » بِمَعْنَى مَعَ ، وَاللَّقَاحُ : تَحْمِلُ الْوَلَدِ
يُقَالُ : لَقِحَتْ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إِذَا حَمَلَتْ ، وَتَلْقَحُ كِشَافًا : أَيْ تَلْقَحُ لِقَاحًا
كِشَافًا ، بَأَن تَحْمِلَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ، وَتُتِمُّ : أَيْ تَأْتِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
بِتَوْنَيْنِ ، يَقُولُ : إِذَا هَجَمَ الْحَرْبُ طَخَنَتْكُمْ طَحْنُ الرَّحَى الْحَبُّ مَعَ نِفَالِهَا
وَتَطُولُ شِدَّتُهَا وَوَيَلَاتُهَا وَتَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِهَا صَنُوفٌ وَضُرُوبٌ مِنَ الْأَهْوَالِ
وَالشُّرُورِ ، وَمِثْلُهَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ النَّاقَةِ تَحْمِلُ خَلِينَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ثُمَّ
لَا تَلِدُ إِلَّا تَوْنَيْنِ ، جَعَلَ إِفْنَاءَ الْحَرْبِ إِيَّاهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبِّ
وَجَعَلَ صَنُوفَ الشَّرِّ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ الْأَوْلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأُمَمَاتِ
وَبَالِغِ فِي وَصْفِهَا بِاسْتِتْبَاعِ الشَّرِّ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا جَعَلَهُ إِيَّاهَا لَاقِحَةً كِشَافًا ،

والآخر إناهما . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعـل ، أو صفة
 لمخزوف ، واحمر عاد : لقب لعافر ناقة صالح عليه السلام نبيّ ثمود وأسمه
 قِدَار ، وكان عقره لهذه الناقة إشيؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توئها
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها
 وشُرورها وتلتج لكم غلبان شؤم أو غلبان أب أشأم شؤم قidar
 عافر الناقة ، ثم تعيش هذه الغلبان فتترضعهم الحرب وتقطعهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... ألبيت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضرباً من الغلات ليست
 كغلات قري العراق من الحب الذي يكال بالففيز ، أو من ثمن الغلة وهي
 الدراهم ، يعنى : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القري ، وكل هذا حدث منه لهم على الاعتصام بعري الصلح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التي تلك أذاعياها وأهواها . وقوله : ومن يعص ...
 ألبيت فالزجاج جمع زجاج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح ، واللهزم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالى الرماح التي ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبى الصلح ذلته الحرب وليئته ، وكانت
 العرب إذا التقت إثنان منهم سدّدت كل طائفة منهما نجو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون في الصلح ، فإن أبنا إلا التادى في القتال قلبت كل
 واحدة منهما الرماح واقتلتا بالأسنة . ، وقال كثير :

رَمَيْتَ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفِيقْ من الجهلِ حَتَّى كَلَّمْتَهُ نِصَالُهَا
 وَحَطَبَ بَعْضُهُمْ خُطْبَةً طَوِيلَةً أَصْلَحَ أُمَّةٌ ، إِنْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ : أَنْتَ مُدْ
 الْيَوْمَ تَرَعَى فِي غَيْرِ مَرَعَاكَ ... أَفَلَا أُدْلِكُ عَلَى الْمَقَالِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ :

«أما بعد» فإن الصالح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلما سمع القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سلم بن قتيبة بن مسلم إلى سعيد المهلبى لما تحاربا بالبصرة:
تخذوا حظكم من سلبنا إن حزننا

إذا زلزلته الحرب: نارٌ تسعر^(١)

وإني وإياكم على ما يسوءكم لعلانٍ أو أنتم إلى الصلح أفقر
وقال حكيم: دارفـع بالحرب ما أمكن، فإن النفقة في كل شيء من
الأموال، إلا الحرب، فإن النفقة فيها من الأرواح، علامة على
الأموال.

وقال النابغة الجعدي:

وتستلب المال الذي كان ربها ضليلاً به والحرب فيها الخرائب
وقد تبعه أبو تمام فقال:

والحرب مشتقة المعنى من الحرب *

«الحرب: أن يسلب الرجل ماله»

وقال شاعر يسمى حنبل بن قيس الكِنَانِي^(٢)

دعاني أشب الحرب بيني وبينه فقلت: لا، بل هلم إلى السلم
ومهلاً عن الحرب التي لا أديمها صحيج وما تنفك تأتي على سقم
فإن يظفر الحزب الذي أنت منهم وآبوا يدهم من سباء ومن غنم

(١) زلزلته: دفعته وصدمته، وحرب زبون: شديدة يدفع بعضها بعضاً من

الكثرة. (٢) هذه الأبيات تراها كاملة في حاشية البحري

فَلَا بُدَّ مِنْ قَتْلِي لَعَلَّكَ فِيهِمْ وَإِلَّا فَجُرْحٌ لَيْسَ يَكْنِي عَنِ الْعَظَمِ^(١)
 فَلَمَّا أَبَى أَرْسَلْتُ فَضْلَةَ أَوْبِهِ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِعِزِّمْ وَلَا حِزْمِ
 فَلَمَّا رَمَانِيَا رَمَيْتُ سَوَادَهُ وَلَا بُدَّ أَنْ تَرِي سَوَادَ الَّذِي يَرْمِي
 فَيَنْتَنَّا عَلَى لَحْمٍ مِنَ الْقَوْمِ غَوْدِرَتْ أَسْنَدُنَا فِيهِ وَبَاتُوا عَلَى لَحْمِ
 وَكَانَ صَرِيحَ الْجَهْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ فَبُعْدًا لَهُ مُخْتَارَ جَهْلٍ عَلَى عِلْمِ

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب عَشُومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .

وتقول : * وليس يَصْلَى بنارِ الحربِ جانبيها *

* وَأَصْبَحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ فِيهَا كَذَى الذَّنْبِ *

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبَا مَرِيطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِيتُ حَرْبَ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ
 لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلِمَ اللَّهِ وَلَمَّا يَحْرُهَا الْيَوْمَ صَالِ
 قَرَّبَاهَا إِنْ كَفَى رَهْمُنْ أَنْ تَزُولَ الْجِبَالُ قَبْلَ الرِّجَالِ
 « العامة : فَرَسُهُ ، وَلَقِيتُ : حَمَلْتُ ، وَحَرْبٌ لَا يَحْ : مَثَلٌ بِالْأَنْثَى الْحَامِلِ ،
 وَعَنْ حِيَالٍ : بَعْدَ حِيَالٍ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَحْمِلْ ، وَصَلَى بِالنَّارِ : قَاتَى حَرْهَا
 أَوْ احْتَرَقَ بِهَا »

وقال ابن الرومي :

رَأَيْتُ جُنَاةَ الْحَرْبِ غَيْرَ كُفَاتِهَا إِذَا اخْتَلَفَتْ فِيهَا الرَّمَا حُ الشَّوَا جِرُ

(١) ليس يكنى عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زناد النار عنها بنجوةً ولكننا يصلي صلاتها المساعِرُ
« المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرك به النار من خشب ونحوه ، ومسعرُ
الحرب : موقدها »

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم ، كان في الجاهلية مقيماً في أخواله
بنى تغلب بالجزيرة ، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عتبة بن أبي معيط
في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان
نصرانياً ، والاكثر على أنه مات على نصرانيته — :

بعثوا حربنا إليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء
ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كرية الصلاء
طلبوا صلحنا ولات أوان فأتجنا أن ليس حين بقاء
فلما الله طالب الصلح منا ما أطفأ الميس بالدهناء

« لو أبصروا فلو للتمنى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذرت يقال :
تشذر فلان إذا تمياً للقتال ، وتشذر القوم في الحرب : أى تناولوا
واشربوا ، وأنافت : زادت ، وتصلوا : من صلى النار صلاً ، من باب
تعب : قاسى حرها ، والصلاء ككتاب : حر النار ، وطلبوا صلحنا :
جواب لما ، وقوله : ولات أوان فللنحويين في تخريجها كلام كثير
وأوجهها أن أصلها : ولات أوان صلح ، أخذت الجملة وبني أوان
على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحين حين بقاء ، والبقاء :
اسم من قولهم أقيمت على فلان إبقاء : إذا رحمته وتلطفت به ، والمشهور

أن الاسم منه : البقيةاء والبقوى ، ولحا الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف :
فما مُصْدَرِية ظرفية ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبَشِّ
حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل من أَبَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا
والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم »

وقال الزُّبْرَقَان :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرَسٍ وَأَشْتَدَّ قَبْضًا عَلَى الْأَسْيَافِ إِبْهَامِي

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤْلاً

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

أَصْرَمَ عَنِّي وَدَّ بَكْرٍ بَنٍ وَائِلٍ وَمَا كَادَ عَنِّي وَدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
قَوَارِصُ تَأْتِيَنِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ يَمْلَأُ الْفَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذَرُوا الْأَمْرَ الصَّغِيرَ وَزَمِّلُوهُ فَتَلْقِيحُ الْجَلِيلِ مِنَ الدَّقِيقِ
« زَمِّلُوهُ : أخفوه »

وقال آخر :

قَدْ يَحْقِرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرُكِبُهُ حَتَّى يَكُونَ إِلَى تَوْرِيظِهِ سَبِيحًا

وقال آخر :

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا رِمَا يَهْبِجُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم : مَنْ الْحَبَّةُ تَنْبَتُ الشَّجَرَةَ الْعَمِيمَةَ ؛ وَمِنْ الْجُرَّةِ تَكُونُ
النَّارُ الْعَظِيمَةُ . وَالتَّمْرَةُ إِلَى التَّمَرَةِ تَمْرٌ ، وَالذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إِبِلٌ .

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *
و * كَمْ يَذِي الْأَثْلُ دَوْحَةً مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم : الصَّدَقُ يُبْنِي عَنْكَ لَا الْوَعْدُ ، أَيْ : إِنَّمَا يُبْنِي عُدُوكَ
عَنْكَ أَنْ تَصْدُقَهُ فِي الْفِتْنَالِ ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفِذَ مَا تُوَعِدُهُ بِهِ «

وقالوا : من علامات العاقل ترك التهديد قبل إمكان الفُرْصِ ، وعند
إمكانها الوُثُوبُ مع الثَّقة بِالظَّفَرِ .

وقالوا : * إِنَّ أَنْوَعِدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَيِّ *
« الْحَقُّ : الْأَحَقُّ »

وقالوا : * إِنْ الْكَتَائِبَ لَا يُهْزَمَنَّ بِالْكَتُبِ *
من يتهدد بظهور الغيب ولا يغني غناءً

قال عنتره في معلقته :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي صَمُصَمِرَ

الشامتى عِرْضى ولم أَشْتِهُمَا والناذرين إذا لمْ أَلْقَهُمَا دى
 « الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
 شر إلى خير ، ثم استعملت فى المكروهة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة .
 والسوء يقال : عليهم دائرة السوء ، وفى الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
 أى الدولة بالغلبة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربص بكم الدوائر . قيل :
 الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
 دى إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما فى حال حضوره
 فلا يتجاسران على ذلك ،
 وقال القرمطى :

تَتَمَنَّانِ إِذَا لَمْ تَرَنِ فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ الْقَنْطَرَةَ
 يَا بَنَى الْعَبَّاسِ مَنْ يَنْصُرُكُمْ أَصْبَى أَمْ خَصَى أَمْ مَرَّةً
 وقال آخر :

كَأَصْدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طَالَبْتَهُ لَمْ يَسْتَبِينَ
 « الصدا : ما يُجِيبُكَ من صوت الجبل ونحوه بمثل صوتك »

من لا يبالى بتهديده

قال جرير :

زَعِمَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا
 أَبْشِرْ بِطُولِ سِلَاحِهِ يَامِرْبَعُ
 وقال مقاتل بن مِسْمَعٍ لِعَبَّادِ بْنِ الْحَصَنِ : لَوْ لَا شَيْءٌ لَأَخَذْتُ رَأْسَكَ
 فقال : أَجَلٌ ، ذَلِكَ الشَّيْءُ سَيَفِي ...

وقال ابن أبي عيينة :

فَدَعِ الوَعِيدَ فما وَعِيدُكَ ضَارِي أَطِينُ أَجْنَحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلَ أَهْجَوْتَهُمَا أُمُّ بُلْتٍ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ

وَأَبْرَقَ رَجُلٌ لآخر وَأَرْعَدَ فَلَمَّا زَادَ أَنْشَدَ :

قَدِ هَبَّتِ الرِّيحُ طُولَ الدَّهْرِ واخْتَلَفَتْ عَلَى الْجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِيهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يبقى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُنْتَمِعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : إن يَنْفَعِ النَّاسَ الْفِرَارُ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ خَشْفِ أَنْفٍ أَوْ قَتْلِ فِي وَقْتٍ مَعَيَّنٍ سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ وَجَرَى عَلَيْهِ الْقَلَمُ ، ثُمَّ قَالَ جل شأنه : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمَتَّعْتُمْ بِالتَّأْخِيرِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ التَّمَتُّعُ إِلَّا تَمْتِيعًا وَزَمَانًا قَلِيلًا . وقال سبحانه : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمُشَيِّدَةُ المرتفعة » .

وقال عليُّ يوم الجمل : إِنْ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ ، لَا يُعْجِزُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يَفُوتُهُ الْهَارِبُ ، وَإِنْ لَمْ تُقْتَلُوا تَمُوتُوا ، وَإِنْ أَمُتَرَفَ الْمَوْتُ الْقَتْلُ . ومن أمثال العرب : فَلَانٌ أَجْرَأُ مِنْ فَارِسٍ خَصَافٍ . « وَخَصَافٍ كَقَطَايِمِ فَرَسٍ قَالَ التَّسَابُونُ : كَانَ مَالِكُ بْنُ عَمْرِو النَّسَائِيُّ يَقَالُ لَهُ : فَارِسٌ خَصَافٌ ، وَكَانَ مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ ، فَغَزَا يَوْمًا ، فَأَقْبَلَ سَهْمٌ حَتَّى وَقَعَ

عند حافرٍ فريسه فانغرزَ في الأرض وجعل يَهْتَزّ حيناً فقال : إن لهذا السهم سبباً يَنْجُئُهُ — يُحَرِّكُهُ — فاخترقني عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يَرْبُوع فأصاب رأسه ، فتحرك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في جوفِ جُحْرٍ جاءه سهمٌ فَقَتَلَهُ ، وأنا ظاهرٌ على فارسٍ ما المرءُ في شيء ولا اليربوع ، ولا أَقْتُلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأُنْكِى في القوم ، فكان بعد ذلك من أشجع الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أَكَلَتِ الْجَبَانُ يَرَى أَنَّهُ سَيُقْتَلُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ
فَقَدْ تُدْرِكُ الْحَادِثَاتُ الْجَبَانَ وَيَسْلُمُ مِنْهَا الشَّجَاعُ الْبَاطِلُ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقْرَاطُ لرجل هَرَبَ من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقْرَاطُ : الحياة إذا كانت صالحة فمُسَلِّمٌ ، وإذا كانت رَدِيئَةً فالموت أفضلُ منها .
ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحكائه : لِمَ مَنَعْتُمُ الْمَلِكَ من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذُلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :
أَبَوْا أَنْ يَفِرُّوا وَالْقَنَا فِي نُحُورِهِمْ وَلَمْ يَبْتَغُوا مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سُلَامًا
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكَانُوا أَعِزَّةً وَلَكِنْ رَأَوْا صَبْرًا عَلَى الْمَوْتِ أَكْرَمًا
« ولم يبتغوا يروى : ولم يرتقوا ،

المعير بانهزامه

من كلام الحجاج : وَلَيْسَ كَالِإِبْلِ السَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازع إلى
أعطائها ، لا يلوى الشيخ على بنيه ، ولا يسأل المرء عن أخيه ... وقال
أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية :
وانهزام ملك الروم :

وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةِ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبٍ ^(١)
أَحَذَى قَرَابِيئَهُ صَرْفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ ^(٢)
مُوكَلَّأً بِيَفْسَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِفَّةِ الْخَوْفِ لَا مِنْ خِفَّةِ الطَّارِبِ ^(٣)
وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَحْطَى حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبَ وَجْهِهِ لِيَمْنَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْذُلُ الْقُرْبُ
وَلَوْ كَانَ حُرَّ النَّفْسِ وَالْعَيْشِ مُدْبِرٌ لِمَاتِ وَطْئُ الْمَوْتِ فِي إِفْهِ عَذْبُ
وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَصْحَابِي
إِقْدَامًا ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوههم ، فإنى لم أرَ إلا أقداءهم ...

وقال ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر :
قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سِيْذْنَفُهُ
لَا يَعْرِفُ الْقَرْنَ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسَخٍ فَيَعْرِفُهُ
وقال المتنبي لما أوقع سيف الدولة بنى عقيل وقشير وبنى العجلان

(١) ولَى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقه : أخرسه السيف
(٢) أحذى : أعطى ، وقرايينه : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك
الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للبوت وفر على أحسن مطاياها
وأنجمها . (٣) البفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلمه

وبنى كلاب ويذكر إجفأهم من بين يديه :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءُ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِشَارُ

« لَزَهُ إِلَى الشَّيْءِ : الْجَسَاءُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَحْوَجُهُمْ طَرَادُكَ
لِيَاثِهِمْ إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرْبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنَ الْقَتْلِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُونَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تُسَابِقُ الرَّؤُوسَ وَالرُّؤُوسُ
تُسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرَّؤُوسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرَّؤُوسُ
الْإِسْرَاعَ فَتُثَمِّنُهَا الْأَرْجُلُ ، .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغَضَّبًا :
مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذُلًّا ، وَتَمَثَّلَ :

شَرَّدَهُ الْخُوفُ فَأُزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

« شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأُزْرَى بِهِ :
قُصِّرَ بِهِ وَحَقِرَ وَهَوَّنَ ، وَحَرَ الْجِلَادَ : شَدَّتْهُ ، وَالْجِلَادُ : الْقِتَالُ بِالسَّيْفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أنت رجل مُحَرَّبٌ وَتَرْكُ بُغْيَةٍ ، فَلَوْ اتَّخَذْتَ
الْحَيْلَ ! فَقَالَ : أَنَا لَا أُفِرُّ مِنْ كَرٍّ وَلَا أَكُرُّ عَلَى مَنْ فَرَّ . « مُحَرَّبٌ
شَدِيدُ الْحَرْبِ مُشْجَاعٌ ، وَكَرَّ عَلَى الْعَدُوِّ يَكُرُّ : عَظَفَ ،
وَأَوْصَى الْإِسْكَندَرُ صَاحِبَ جَيْشِهِ لَهْ فَقَالَ : حَبِّبْ إِلَى أَعْدَائِكَ الْهَرْبَ .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا يُجَدَّ في قتالهم وإذا انهزموا لا تَتَّبِعَهُمْ .
وعاتبَ الحجاج المهلبَ بن أبي صُفْرة في تركه اتِّباعَ الخوارج . لما
انهزموا ، فكتب إليه : أما عَلِمْتَ أَنَّ الكلب إذا أُنْجِرَ عَقَرَ ...
« أُنْجِرَ : دخل الجُر » ،

الفارّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقرّه فهو سُجَّاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ الناسُ أَنَّ الخيل لا تجرى بمثلٍ ، فكيف
قال النجاشي : (١)

ونجى ابن حربٍ سابقٍ ذو عِلالةٍ أَجَشُّ هَزِيمٍ والرَّماحُ دَوَانِي (٢)
فقال عمرو بن العاص له : لقد أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ أَجَبَانُ أَنْتَ أَمْ
سُجَّاع ؟ فقال :

سُجَّاعٌ إِذَا مَا أُمْسَكْتَنِي فُرْصَةٌ وَإِلَّا تَكُنْ لِي فُرْصَةٌ لِفَجَانٍ
وقال المهلبُ بن أبي صُفْرة : الإقدامُ على الهَلَكَةِ أَضْيَعُ ، كما أَنَّ

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على رضى الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، فضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلاوة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشريك في رمضان ، ولأن
ولدانا صيام وأنت مفطر . وبَيْتُهُ هَذَا مِنْ أَيْتَاتِ تَرَاهَا فِي بَعْضَةِ الْمَعَانِي طَبَعَ الْجَوَانِبِ
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بدايته وللذى يكون بعده : علالته و فرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمى في الخيل . والهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لَأَفَرِّقُ من لسانك !
فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللئيم ذو وقاحة وإقدام .
وقال الشاعر :

أَفَاتِلُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأُنْجُو إِذَا غَمَّ الْجَبَانُ مِنَ السَّكْرِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتج لانزاعه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : أَلَا تَغْزُو فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْذَرَكَ ؟ فقال : والله إني لأبغض
الموتَ على فراشي فكيف أُنْضِي إِلَيْهِ رَكُضًا !
ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَنَزِّهَاتِهِ أَسَدًا ، فنظر إلى
رجل أعجبه زِينُهُ وَقَوَامُهُ وَسِلَاحُهُ فقال له : أُوَيْفِكَ خَيْرٌ ؟ فَعَلِمَ الرَّجُلُ
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لَا قَبَّحَ اللَّهُ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ بِرَجُلٍ قَدْ اسْتَقَلَّ بِشَجَرَةٍ وَأَلْقَى
سِلَاحَهُ وَرَبَطَ دَابَّتَهُ فَقَالَ لَهُ : يَأْنِئْ ، نَحْنُ فِي الْحَرْبِ وَأَنْتَ بِهَذِهِ الْحَالَةِ !
فقال : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّمَا بَلَغْتَ هَذِهِ السَّنَّ بِالتَّوَقُّي ، فقال : زِهِ ،
رَأْعُظَاهُ مَا لَا ...

وقيل لرجل : لِمَ انْزَعْتَ ؟ قَالَ : نَحْضُ الْأَمِيرِ عَلَيَّ وَأَنَا حَتَّى خَيْرٌ مِنْ
أَنْ يَرْضَى وَأَنَا مَيِّتٌ .
وقال أبو دلامة :

قَالُوا : تَقْدِمُ قُلْتَ : لَسْتُ بِفَاعِلٍ أَخَافُ عَلَى فَنَاحَتِي أَنْ تَحْطَأَ

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنّه رأسٌ إذا زالَ أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السُّوقِ مثله فقلتُ ولم أحفـل بأن أتقدّمَا
وقال :

يقول لي الأميرُ بغير نُصحٍ : تقدّم حين جدّ بنا الرأسُ
ومالي إن أطعْتُكَ من حياةٍ ومالي بعدَ هذا الرأسِ رأسُ
وقيل لجبان : لم لا تُقاتِل ؟ فقال : عند النّطاحِ يُغلبُ الكبشُ الأجمُ
« الأجم » : الذي لا قرَن له ، وهذا مثل يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّه له «
وقالوا : الشُّجاع مُلقًى والجبانُ مُوقٍ ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَهما كالشُّجاع ولا خلا بمسرةٍ كالعاجِزِ المتّواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون فقيـل له : قُلْ لَنْ ينفَعَكُم
الفرارُ إن فررْتُم من الموتِ أو القتلِ وإذا لا تُتمتّعون إلا قليلا . فقال
ذلك القليلُ تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فرّ يوم مَرَجِ راهط عن رفيقه :
أينذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيتامى وحسنِ بَلائِيا
فلَمْ تُرَ مِنِّي زَلَّةٌ قبلَ هذه فرارى وتركي صاحبي ورأيا
وقديماً قال عمرو بنُ معديكرب — وكان قد فرّ من بني عبس :
وليسَ يُعابُ المرءُ من جُبنِ يومه إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس
وقد تقدّم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي رَهْنَدُ فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطَبُ
لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْإِبْصَارَ رُؤْيَاهُ مَا يَشْتَهَى الْمَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَبِيلَهُمْ إِذَا دَعَتْهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَتَبُّوا
وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعِجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ : إِنَّ الْحَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بُدًّا مِنْهُ ،
لِأَنَّ النَّفَقَةَ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
يَقُولُ أَبُو تَمَّامَ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا تَفَقَّاتُهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ أَنْفُسًا

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَفِرُّ مِنْ عَرْسِهِ ، وَالْجَوَادُ
يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
يَفِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
وَيُرْزَقُ مَعْرُوفُ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُحْرَمُ مَعْرُوفُ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْقِرُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ حِينَ
فَرَّ يَوْمَ بَدْرَ :

إِنَّ كُنْتُ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَتَجَوَّزَ مَنَجِيُّ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
تَرَكَ الْأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَلِجَامٍ
مَسَلَتْ بِهِ الْفَرَجَيْنِ فَارْمَدَتْ بِهِ وَتَوَسَّى أَحِبَّتُهُ بَشَرٌ مُقَامِ
« الطَّمْرَةِ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرَى ، وَالْفَرَجَانِ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
وَمَلَأْنَاهُمَا : مَلَأْتُهُمَا جَرْيَا . وَارْمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَتَوَسَّى : أَقَامَ »

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الْخُرَمِيِّ :

ونجا ابنُ خائنةِ البُعولةِ لو نجا بِمُهْفَهْفِ الكَشْحَيْنِ والآطالِ
تركُ الأحبَّةَ سائِلًا لا ناسِيًا عُدْرُ الدَّسِيِّ خِلافُ عُدْرِ السَّالِي
« خائنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحان : جانبا البسطن من
ظاهر وباطن ، والمهفف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع لاطل وإطل كإبل
ولإبل : الخاصرة ، والدسي : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا دؤف ويذكر هزيمة بابك
الْخُرَمِيِّ كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهَجِّجًا إِمَّا يُمَادُّ وَإِمَّا تُرَّةٌ خُسُفًا
مِنْ مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَاطِلٌ وَوَاهِلٍ دُمُهُ لِلرُّعْبِ قَدْ نُزِفَا
فَذَلِكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعًا وَذَلِكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُظْفًا
« من صَفِّهِ : من صف بابك ، والمهج جمع هجة : دُم القاب ، والشماذ :
الماء القليل ، والترة : من قولهم : عينُ ترّة : كثيرة الماء ، والخُسف
جمع خَسِيف وخسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جدًا ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إِمَّا قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مُشرق ويكون دمه فاعل مُشرق
وقوله : فذاك ... ألبيت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذي دمه في
وجهه سَقَيْتَ الرماح منه جُرْعًا ، أى كثيرًا ، والجبان الذي طار دمه من
(١٨ - ٢)

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وتد يدير عن الكثير بالنطفة فيكون :
 الأولُ مراداً به الجبان والثاني مراداً به البطل ،
 وقيل لرجل تعرّض له الأسد فأفقت منه : كيف حالك ؟ قال :
 تسليتُ غير أن الأسد تحراً في سراويلي ...
 وقالت امرأة من بنى المهلب :
 فإن ثبّتوا فعمّرهم قصيرٌ وإن هربوا فويلهم طويلٌ

تسليّة المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه
 قلّ للدمستقي إنّ المسلمين لكم خاؤوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
 وجدتموهم زبائنًا في دِمَائِكُمْ كأنّ قتلاكم إياهم فجمّعوا
 لا تحسبوا من أسرتهم كان ذا رَمَقٍ
 فليس يأكل إلا النَمِيتَ الضُّبُعُ
 وإنما عرّض الله الجُودَ بكم لستى يكونوا بلا قُسلٍ إذا رجّعوا
 فكلُّ غزو إليكم بعدَ ذا فله وكلُّ غازٍ لسيف الدولة التَّبَعُ
 « الدمستقي : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمين — بفتح السلام — :
 الذين أسلّهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه ، وقوله : وجدتموهم ... البيت
 هو بيان لما صنعوا ، وقوله : في دِمَائِكُمْ : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم
 تخلّلوا قتلى الروم فملطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً
 من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون
 لهم ، وقوله : لا تحسبوا من أسرتهم ... البيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ — بقيّة حياة — وإنما هم
أموات، من الجبن والخوف، وأنتم إِيحْسَيْتُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا
على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميّتة. وقوله: وإنما
عَرَّضَ الله... ألبيت يقول: إنما خذله الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم
عرضة ليظهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال
ليس فيهم فُسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم... ألبيت يقول
فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدياء من جنوده قد
أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سيّد
الغزاة..

ولما انهزم بعض القوّاد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمد
لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تقدّمت للشهادة بجَهْلِكَ
ولكن عَلِمَ اللهُ حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى: يَحْسُبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو...
وقالت عائشة رضى الله عنها: إنَّ الله خَلَقَ قُلُوبَهُمْ كَقُلُوبِ الطَّيْرِ،
كَلِمَا خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ، معها، نَأْفٍ لِلْجُبْنَاءِ، أَفٍ لِلْجُبْنَاءِ.
ومما قيلَ في الجبن من الشعر القديم قول القائل:
ولو أنها عَصْفُورَةٌ لِحَسْبَتِهَا مُسَوِّمَةٌ تدعو عُبيدًا وأرثمًا
«يقول لورأيت عصفورة لحسبتّها من جُبْنِكَ خيلا مُسَوِّمَةً؛ وعبيد
وأرثم: قبيلتان،

ومثله قول عروة بن الورد :

رَأَيْتُكُمْ قَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فَوَجَدْتُهُمْ يخافونَ خُطْفَ الطير من كلِّ جانبٍ
وقال الآخر :

مَلَزِمْتُ تَحَسُّبَ كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خيلاً تَكُرُّ عليهم ورجالا
وقال ابن الرومي :

وفارس أجبن من صفرد يحول أو يغور من صفرة
لو صاح في الليل به صاحح لكنت الأرض له طافرة
يرحمه الرحمن من جبينه فيرزق الجنده به النصرة
« الصفرد : طائر جبان يقال له : أبو المليح ،
وقال أبو تمام :

حيرانٌ يحسبُ ينحفُ النقع من دَهَشِ

طُوداً يُحَاذِرُ أَنْ يَنْقُضَ أَوْ جُرُفَا

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :
جانب الجبل الأملس »

وقال دُعبل :

كَأَنَّ نَفْسَهُ مِنْ طُولِ حَيْرَتِهَا منها على نفسه يومَ الوغَى رَصْدُ
وأنى الحجاجُ برجلي من أصحاب ابن الأشعثِ ، فقال للحجاج : أسألك
أنْ تَقْتُلَنِي وَتُخَلِّصَنِي ، فقال له الحجاج : لِمَ ؟ فقال : إني أرى كل ليلة
في المنام أنك تقتلني ، وقِتْلَةٌ واحدةٌ خير ، فضحك وختل سبيله .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتعلب في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دُعبل :

أسودُّ إذا ما كان يومُ كريمةٍ ولمكنهم يوم اللقاعِ ثمالبُ

وقال :

غيرُ رأى أسدَّ العرينِ فراعهُ حتى إذا ولي تولى ينهئُ

وقال آخر :

يفرُّ بحيثُ تختلفُ العوالى وإن يأتى فذر كبروتيه

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كان الأفقُ محفوفٌ بنارٍ وتحت النارِ أسادٌ كزير^(١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالى صفين :

الليلُ داجٍ والكباشُ تلتطّيحُ نطاحَ أسدٍ ما أراها تَصْطَلِحُ

فمن يُقاتِلُ في رعاها مانجا ومن نجا برأسه فمقد رينج^(٢)

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزير ويزار : صاح وغضب
(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل في ليالى صفين ثم

وكان يزيد بن عُمَرَ بن هُبَيْرَة والى العراقين من قِبَلِ بَنِي أُمَيَّة لَا يُعِيذُ
نَصْرَ بَنِي سَيَّارٍ والى خُرَّاسَانَ مِنْ قِبَلِهِ بِالرُّجَالِ ، وَلَا يَرْفَعُ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ
مِنْ أَخْبَارِ خُرَّاسَانَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ آخِرِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، فَلَمَّا كَثُرَ
ذَلِكَ عَلَى نَصْرِ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا فِيهِ هَذِهِ الْأَيَّاتُ :

أَرَى تَحَالَ الرَّمَادِ وَمِضَرَ الْجَمْرِ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضَرَامٌ ^(١)
فَإِنَّ النَّارَ بِالْمُؤَدِّينِ تُنْذَكِّي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ ^(٢)
فَإِنْ لَمْ يُطْفِئْهَا عُقْلَاءُ قَوْمٍ يَكُونُ رَفُودَهَا جُبَّتٌ وَهَامٌ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعْجِبِ لَيْتَ شِعْرِي أَأَيْقَاطُ أُمَيَّةٌ أَمْ نِيَامٌ
« قَوْلُهُ : وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ نَحْوُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّ الْفِتْنَةَ تُتْلَحُّ
بِالنَّجْوَى وَتُنْتَجَحُ بِالشَّكْوَى ... »

وَمِمَّا قَبِلَ فِي كَثْرَةِ الْجَيْشِ مِنْ قَدِيمِ الشَّعْرِ قَوْلُ الْأَخْضَسِ بْنِ شُهَابِ
التَّغْلِبِيِّ وَهُوَ مِمَّنْ حَضَرَ حَرْبَ الْبُسُوسِ :

يَبْجَاوَاءَ يَنْفِي وَرُدُّهَا سَرَعَانَهَا كَأَنَّ وَمِضَرَ الْبَرْقِ فِيهَا كَوَاكِبُ
« الْجَاوَاءُ : السَّكَنِيَّةُ يُضْرَبُ لَوْنُهَا إِلَى الْكُلْفَةِ — اللَّوْنُ السَّكِرُ —
وَذَلِكَ مِنْ صَدَأِ الْحَدِيدِ ، وَالسَّرْعَانُ : الْأَوَائِلُ ، يَقُولُ : إِنَّ الْمَيَاةَ لَا تَسْمُوهُمْ
وَالْأَمَّا كُنْ تَضِيقُ بِهِمْ فَكَلَّمَا نَزَلَتْ فَرَقَهُ مِنْهُمْ رَحَلَ مِنْ تَقَدَّتِهِمْ ،
وَقَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

قال : وقوله « ومن نجا برأسه فقد ربح »
هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .
(١) خلل الرماد : خلاله
(٢) تذكى : تلهب وتضرم

تري الأرض منا بالفضاء مريضة

معضلة منا بجمع عزمهم

« عضلت الأرض بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم ! وعضلت المرأة بولدها تعصيلا : إذا كثر الولد فخرج بعضه ولم يخرج بعض فبقى معترضا ، وقال أبو نواس :

أمام خميس أذجوان كأنه قميص تحوك من قنأ وحياد

« الأذجوان : الأسود ، واشتقاقه من الذجي ، وبروي : أرجوان ،

وهو : الأحمر .

وقال ابن الرومي :

فلو حصبتهم بالفضاء سخابة لظل عليهم خصبها يتدحرج

وهو من قول قيس بن الخطيم :

لو أنك تلقى حنظلا فوق بيضنا تدحرج عن ذى سامه المتقارب

« البيض جمع بيضة : الخوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، والحنظل ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جدا ويضرب المثل بمرارته ، وقوله : عن ذى سامه ، أى على ذى سامه ، فمن فيه بمعنى على والهاء فى سامه يرجع إلى البيض الممّوه به ، أى البيض الممّوه بالسام ، والسام : عروق الذهب والفضة ، وهو هنا الطرائق المذهبة فى البيض ، قال الإمام ثعلب : معناه : أنهم تراصوا فى الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض ،

وقال أبو عمرو بن العلاء : أحسن ما قيل فى صفه الجيش قول النابغة :

إنى لأخشى عليكم أن يكون لكم من أجل بنضائكم يوم كأيام

أو تَزْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْطِطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ نُورًا بِنُورٍ وَإِظْلَامًا بِإِظْلَامٍ
« أو تَزْجُرُوا عطف على ما قبله ، والمكفهر : الجيش العظيم ، ولا
كِفَاءَ لَهُ : لا نظير له ، ويخطط أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ إما جعلته صفة لليل والأصرام
جمع صريم وهو الليل المظلم فيكون المعنى يخطط مُظْلَمًا بِمُظْلِمٍ ، وإما جعلته
صفة للجيش فيكون المعنى : يخطط كلّ حَيٍّ بقيلته خوفا من الإغارة عليه ،
وقوله : تبدو كواكبه ... البيت يريد : شدة الحول والكرب ، وهذا كما
تقول العامة : أريته النجوم وَسَطَ النَّهَارِ .

قال الفرزدق : * أُرِيكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسَ حَيَّةً *
وقال طرفة : * وَتُرِيكَ النُّجُومَ يَجْرِي بِالنَّظْهَرِ *
وفي هذا المعنى يقول جرير :

والشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا
يقول : إِنَّ الشَّمْسَ طَالِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ نَجُومَ اللَّيْلِ ، لشدة الغم
والكرب الذي فيه الناس ، فنَجَرَمَ مفعول كاسفة ،

قالوا : وأحسن من قول النابغة قول زيد الخيل :

بَنِي عَامِرٍ دَلَّ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا أَبُو مَسْكَتَنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ
يَجْشِ تَضَلُّ الْبُلُقَى فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأُكُومَ مِنْهُ سُجُودًا لِلْحَوَارِ
وَجَمْعَ كَمَثَلِ اللَّيْلِ مُرْتَجِسٍ الْوَعَى كَثِيرٍ تَوَالِيهِ سَرِيعِ الْبَوَادِرِ
« قوله : قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ أراد : شَدَّ دَوَابِرَ الْبَيْضَةِ — أَيْ
مَآخِرِهَا — بِالذَّرْعِ لئلا تَسْقُطَ إِذَا رَكَضَ الْفَارَسُ : وقوله : تَضَلُّ الْبُلُقَى
فِي حَجَرَاتِهِ فَجَرَاتِهِ : نَوَاحِيهِ جَمْعُ حَجَرَةٍ يَقُولُ لِكُتْرَتِهِ لَا يُدْرِي بِهِ إِلَّا الْبُلُقَى

والأبلق مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد واليباض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تينم عليهم فيقتصدوا بشرّ، وقوله : ترى الآكم منه سجّداً للحرافر يقول : لكثرة الجيش يطحن الآكم حتى يابصقها بالارض : * يدع الآكام كأنهنّ صحارى * وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمة يكاد سواده لكثرتّه يسدّ الأفق ، والوغي : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق «

ومن بارع ما قيل في السكيد في الحرب قول أبي تمام :
هزّزت له سيفاً من السكيد إنما تجدّ به الأعناق ما لم يجرد
يسرّ الذي يسطو به وهو مغمّد ويفضّح من يسطو به غير مغمّد
« يقول : إن أخفيت السكيد ظفرت وسررت ، وإن أظهرته انتضحت وخبت ، وقال يصف أفاعيل رُح الممدوح في أعدائه :

أنهبت أرواحه الأرماع إذ شرّعت فما تردّ لرب الدهر عنه يد^(١)
كانها وهي في الأوداج والغّة وفي السكلى تجد الغيظ الذي تجد
من كلّ أزرق نظار بلا نظير إلى المقاتل ما في ممتنه أود^(٢)
كانه كان خدن الحبّ منذ زمن فليس يعجزه قلب ولا كيد

(١) أرواحه : أرواح بابك الخرمي ومن معه ، وقوله فما ترد الدهر عنه يد^(١) الخرمي يعد هذه الواقعة وما نزل به من أفاعيلك ستنتولى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لرب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلّوا

ومن خطبة لعل بن أبى طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه :^(١)
 أن خيلا لمأوية^(٢) وردت الأنبار فقتلوا عاملا له يُسمى حسان بن
 حسان ، فخرج مُغضباً يجر ثوبه حتى أتى الأخيـلة^(٣) ، واتبه الناس فرقى رbare من
 الأرض^(٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألـبسه
 الله الذلّ ، ويسمى الخسف ، ودُيـث بالصغار ، وقد دعوتكم إلى حرب
 هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً وإعلـانا وقلت لكم : أغزوه من قبل أن
 يغزوكم فالذى نفسى بيده : ماغزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلّوا ، فتخاذلتم
 وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى شئت عليكم
 الغارات ، هذا آخر غامد قد وردت خيـله الأنبار وقتلوا حسان بن
 حسان ورجالا منهم كثيرا ونساء ، والذى نفسى بيده : لقد بلغت أنى كان
 يدخل على المرأة المسلمة والمعاودة^(٥) فتتنزع أحجـالهما ورعتهما ثم أنصرفوا

- (١) أنها إلى عالج من الأنبار ، وكان على يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه
 عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيم (٢) بروى أنه وجه سفيان بن عوف
 ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن ينحدر إلى دـهيت ، ثم إلى الأنبار ،
 فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب على حسان عامله عليها وثلاثين رجلا واحتمل ما فيها
 من الأموال ؛ وديت — بكسر الهماء — بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة
 بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ
 (٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالروبة
 (٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤقرين لم يُسكِّمَ منهم أحدَ كَلَمًا ، فلو أن امرأً مُسِيلًا مات من دون
هذا أسفًا ما كان فيه مَلُومًا بل كان به عندي جديرًا . يا عجباً كلَّ العجب ،
عجَّبُ يُميت القلبَ وَيَشغَلُ القَومَ وَيَكثيرُ الأحزانَ ، من تضافرٍ هؤلاء
القوم على باطلهم وفشلهم عن حَقِّكم حتى صبحتم غَرَضًا تُرءون ولا تُرْمون ،
وَبُغَارُ عليكم ولا تُغيرون ، ويُعصى الله عن وجلِّ فيكم ولا ترضون ، إذا
قلتُ لكم : اغزوم في الشتاء قاتم : هذا أو أن قُر وِضِر ، وإن قلتُ لكم :
اغزوم في الصيف قاتم : هذه سخارة القيظ أنظرنا ينصيرُ الحرُّ عنا ،
فإذا كنتم من الحر والبرد تفرُّون فأنتم والله من السيف أفرُّ : يا أشباه
الرجال ولا رجال ، ويا طغاة الأحلام ، ويا عقول ربات الحِجال ، والله
لقد أفسدتم على رأي بالعصيان ، ولقد ملأتم جوف غيظًا ، حتى قالت
قريش : ابنُ أبي طالب رجل شجاعٌ ولكن لا رأي له في الحرب ! الله
دَرهم ، ومن ذا يكونُ أعلمَ بها مِنِّي أو أشدَّ لها مِراسًا ! فوالله لقد
نَهَضْتُ فيها وما بلغتُ العشرين : ولقد نَيْفَتُ اليوم على السَّتين ولكن
لا رأي لمن لا يُطاع ... » وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ،
قوله : وسيم الخسف معناه : كُلفَ وألزم وجُشِّمَ قال تعالى : يُسومونكم
سوءَ العذاب . أى يُجشِّمونكم أشدَّ العذاب ، فسيم : كُلفَ وألزم ، والخسف :
الذل والهوان ، وأصله أن تُحبَسَ الدَّابة على غير علف ثم استعير فوضع
موضع الهوان : ودَيْت : ذُلَّ . ومنه اشتقاق الدُّيوت وهو :
الرجل الذى لا غيرة له . وقوله : فى عُقر دارهم : أى فى أصل دارهم ،
والعقر : أصل كلِّ شيء ومن ثم قيل . لفلان عَقَّارٌ : أى أصل مالٍ يعتمد
عليه من منزل وضيعة ونخيل ونحو ذلك . وقوله : وتواكلتم يقال : وكَلْتُ

الأمر إليك ورَكَكْتَهُ أَنْتَ إِلَى : أَى لَمْ يَتَوَلَّهِ وَاحِدٌ مِنَّا دُونَ صَاحِبِهِ
وَلَمَّا كَانَ أَحَالَ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا عَلَى الْآخِرِ : وَقَوْلُهُ : وَانْخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظَهْرِيًّا : أَى رَمَيْتُمْ بِهِ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ، أَى لَمْ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ ، وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ :
لَا تَجْعَلْ حَاجَتِي مِنْكَ يَظْهَرُ : أَى لَا تَطْرَحْهَا غَيْرَ نَازِلٍ إِلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ : حَتَّى
شُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ : أَى صُدَّتْ وَبُدَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ . وَقَوْلُهُ :
فَتَنْزِعَ أَحْبَابُهَا يَعْنِي : الْخَلَائِلَ وَاحِدَهَا حِجْلٌ . وَالرَّعْتُ : جَمْعُ رَعَاةٍ
جَمْعُ رَعِيَّةٍ وَالرَّعِيَّةُ : الشَّنْفُ أَى الْقَرْطُ الَّذِي يُوضَعُ فِي الْأُذُنِ : وَقَوْلُهُ :
وَانصَرَفُوا مُوَفَّرِينَ أَى : لَمْ يُرْزَوْا ، أَى لَمْ يُصَابُوا وَلَمْ يُنَلَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
فِي بَدَنِهِ وَلَا مَالِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَى لَمْ يُخَدِّشْ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَدِشًا .
وَكُلُّ جُرْحٍ صَغَرٍ أَوْ كَبُرَ فَهُوَ كَلِمٌ . وَقَوْلُهُ : مَاتَ مِنْ دُونِ هَذَا أَسْفَاكَ يَرِيدُ :
تَحْشُرًا . وَقَوْلُهُ : مَنْ تَصَافَرُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ أَى : مَنْ تَعَاوَنَهُمْ
وَتَظَاهَرَهُمْ . وَيُقَالُ : فَشَلَ فُلَانٌ عَنْ كَذَا : إِذَا هَابَهُ جُبِينًا وَفَزَعَا فَأُحْجِمَ
عَنْهُ وَامْتَنَعَ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ . وَالْقَرَّ — بَضْمُ الْقَافِ — الْبَرْدُ أَمَا الْقَرَّ
— بِالْفَتْحِ — فَهُوَ الْيَوْمُ الْبَارِدُ . وَالصَّرَّ — بِكَسْرِ الصَّادِ — شِدَّةُ الْبَرْدِ
قَالَ تَعَالَى : كَثِيلٌ يَرْجَحُ فِيهَا صِرٌّ . وَالْقَيْظُ : الصَّيْفُ ، وَخَمَارَتُهُ : اشْتِدَادُ حَرِّهِ
وَاحْتِدَامُهُ . وَالطَّغَامُ : مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ . وَقَوْلُهُ : وَيَا عَقُولَ
رَبَّاتِ الْحِجَالِ : فَالْحِجَالُ جَمْعُ الْحَجَلَةِ وَهِيَ كَالْقُبَّةِ وَبَيْتُ الدَّرُوسِ يُزَيْنُ بِالشَّيَابِ
وَالسُّتُورِ ، يُنْسَبُ لَهُمْ إِلَى ضَعْفِ النِّسَاءِ «

وَمِنْ رَائِعِ الشَّعْرِ الْقَدِيمِ فِي بَابِ الْحَثِّ عَلَى الْإِفْدَامِ وَالذُّودِ عَنِ الدَّمَارِ
وَوَصْفِ الْأَبْطَالِ وَالْمُتَخَذِلِينَ الْمُتَبَاظِينَ قَوْلُ شَاعِرٍ مِنْ بَنِي الْعَنْبَرِ اسْمُهُ

قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناس من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازن تميم فركب معه نفر فاطرّدوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الآيات التي افتتح بها أبو تمام حماسته :

لو كنت من مازن لم تستنج لمبلى	بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لؤثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في الثابتات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كان ربك لم يخلق لحشيتيه	سواءهم من جميع الناس إنسانا
فأيت لي بهم قوما إذا ركبوا	شئوا الإغارة فرسانا وركبانا

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبوها كانوا سيارة مردة ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شياؤها ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباح لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يراذ به امتناع الجانب وإباء الضم . ورجل ذو لؤثة : بطيء متمكث ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لو لم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم لمبلى لكان لي منهم من ينصرني عليهم ويأخذ بحق انتصاراً منهم »

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيًّا وَلَمْ يَحْمَرْ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَهْتِيجُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِتِّقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأِلَى ذِمَّتِهِمْ ، وَالْحَفِيزَةُ : الْغَضَبُ وَالْحِمَاةُ وَالْمَنْعُ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمُ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَمْ يَأْبِدْ الشَّرَّ نَوَاجِذَهُ مِثْلُ لِسِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّبُوحَ إِذَا صَالَ أَوْ سَدَّ كَثَّرَ عَنْ أَنْبَايِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ سِدَّتِهِ ، وَطَارَوْا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوُحْدَانَا جَمْعٌ وَاحِدٌ كِرَاكِبٌ وَرُكْبَانٌ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لِمَنْهُمْ لِلْجَرِصِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبُّهُمْ لِيَاةٍ لَا يَلْتَمِظُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا بِذِكْرِ الْحَرْبِ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيِّ الصَّحَابِيِّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيخُ رَأَيْتَهُمْ مَا بَيْنَ مُلْجِمٍ مُهْرَةٍ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ... أَلَيْتَ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَنْ دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعْلَلُ بِذَلِكَ قِتْبَاطًا عَنِ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ قَدِرْعُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرْعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَاتَتِهِ أَجَبْنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّينَ ، وَالظَّنُوبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعَ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنُوبُهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وبروى نفع : أى ارتفع والصريخ : الصياح أو بمعنى الصارخ ويروى
 إذا سمعوا الصريخ . وسافع : أخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعا بالناصية ،
 يقول : هم قوم إذا ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليه فتراهم دائرين بين ملجم مهرة
 وقابض بناصية مهرة يجذبونه إليه بسرعة .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدُوِّ ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤْزِرُونَ السَّلامَةَ وَالْعَفْوَ عَنِ الْجُنَاةِ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَرُوا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يَرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَتِّهِمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَا إِذَا كَانَ يَرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُبْنِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يِقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعُ ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .



وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِمَايَتِهِ وَالْمُبَرَّدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتٍ قَالَ الْمُبَرَّدُ : إِنَّهَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَامٍ
إِلَى الْهُذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ — وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنَادِيًا — أَيْ عَقِدَ لَهُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبْتَئِنْ بِهَا — فَنَزَلَ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهُمْ ، فَمَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي إِسْرَافَةٍ ، فَقَالَتْ لَهُنَّ :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأَعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

تَقُولُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا : أَبَعْلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَعَالَى إِذَا تَفَقَّتْ عَلَى الْقَوَارِسِ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ

وَفِيهِ سَبْنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَارُوسٍ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِّي : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمِلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأَمْسِرِي
 خُلُوفَ الْمَنَابِإِ حِينَ فَرَّ الْمُغَامِسُ
 وَأَقْرِى الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَاءَةً
 إِذَا كَكُرْتِ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا خَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّمْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيَّاهَا الْأَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيْكَ الْخَيْرِ إِنِّي لَخَادِمٌ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
 وَإِنِّي لِأَشْرِى الْجِدَّةِ أَبْغَى رَبَاحَهُ
 وَأَتْرُكُ رَقْرَنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخولُ الظهرِ وخروجُ الصدرِ ، وهو نقيضُ الحدَبِ ،
 وقولُ المرأةِ : أَبْغَى هَذَا ؟ إشارةٌ تحقيرٍ ، تُعْجَبُ بِمَا رَأَتْ ، وقوله : بِالرَّحَى
 الْمُتْقَاعَسُ فَإِنَّ « بِالرَّحَى » تَبْيِينٌ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ كَلِمَةَ « الْمُتْقَاعَسُ » تُدَلُّ عَلَى
 أَنَّ هُنَاكَ تَقَاعَسًا وَلَمَّا قَالَ بِالرَّحَى دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ التَّقَاعَسَ حَدَثَ
 بِالرَّحَى ، وَلَمْ يُرَدَّ أَنْ يُعْمَلَ الْمُتْقَاعَسَ فِي قَوْلِهِ بِالرَّحَى لِأَنَّ ذَلِكَ عَلَى
 مَا قَالَ النِّجَاحَةُ مَمْنُوعٌ ، لِأَنَّ أَلَّ فِي الْمُتْقَاعَسِ اسْمُ مَوْصُولٍ كَالَّذِي وَبِالرَّحَى
 صَلَةٌ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَقَدَّمَ الصَّلَةُ عَلَى الْمَوْصُولِ . وقوله : أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ
 يَرْكَبُ رَدْعَهُ ، فَالْقِرْنُ : مَنْ يَقَاوِمُكَ فِي قِتَالٍ ، وقوله : يَرْكَبُ رَدْعَهُ ،
 قِيلَ : الرَّدْعُ هَهُنَا : الدَّمُ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ بِرَدْعِ الزَّعْفَرَانِ ، وَمَعْنَى رَكُوبِهِ
 دَمَهُ : أَنَّهُ جُرِحَ فَسَالَ دَمُهُ فَسَقَطَ فَوْقَهُ مُتَشَجِّجًا بِهِ ، وَقِيلَ : الرَّدْعُ : الْعُنُقُ
 أَيْ سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ فَأَنْدَقَّتْ عُنُقُهُ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : صُرِعَ مَنْكُوسًا رَأْسَهُ

أَسْقَلَهُ ، مِنْ ارْتَدَعَ السَّهْمُ : إِذَا رَجَعَ النُّصْلُ مُتَأَخِّرًا فِي السَّنَخِ .
 وَذُو غِرَارَيْنِ : ذُو حَدَّيْنِ ، وَنَارِئُسُ : مُضْطَرِبٌ ، مِنْ نَاسٍ يَنُوسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرْوَى : يَابَسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرٌ لَا تَأْنِيثَ فِيهِ .
 وَالْأَوْقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِثِقَلِهِ ، وَوصفه بِالثَّقِيلِ مَبَالِغَةً .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خِلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمَّا تَرَاوُهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَنْجِزُ خَبِيثَاتِ الْمَنَآيَا
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُدْهَشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخُطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمُغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمَسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمْرَمِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلْبَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ الْفَسْ بِهَا . وَخَامٌ : جَبُنٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَخِيمُ
 خَيْمًا وَخِيَانًا : جَبُنٌ . وَالْحِمَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخُصُومَةِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَلْثَمُ عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ يَقَالُ : دَعَسَهُ بِالرَّحِّ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرَّيَّاحُ مَصْدَرُ كَالرَّيْحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قِرْنِي الْخَ يَقُولُ : أَهْيَنُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَنَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَنْتَمَتُهُ : أَيِ قَتَلْتُهُ .

وَقَالَتْ لَيْلُ الْأَخْيَلِيَّةِ وَهِيَ مِنْ آيَاتِ الْحَامِسَةِ :
 لَا تَغْزُوْنَ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمُ رَبَاطِ الْخَيْلِ وَسَطَ بَيْوتِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرْقٍ تُخَالُ نَجُومًا
 وَتُخَرِّقُ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسَطَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمًا
 (٢-١٩)

حتى إذا رُفِعَ اللَّوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللَّوَاءِ عَلَى الْخَيْسِ زَعِيمًا
 « قَوْلُهَا : لَا تَغْزُونَ بِرُؤْيَ لَا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلُهَا : لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 تَرِيدُ : لَا بُتْدِيًّا لَهُمْ بِالْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحَارِبُوكَ وَلَا مُنْتَقِمًا مِنْهُمْ إِنْ
 حَارِبُوكَ ، لِأَنَّهُمْ أُولُوا بِأَسْ شَدِيدٍ لَا يَطْفُونَ عَلَى أَنْ حَالًا : وَيُرْوَى :
 « لَا ظَالِمًا فِيهِمْ وَلَا مَظْلُومًا »

قال البكري شارح الأملی : وهذه الرواية هي حيدة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسناً ، لأنه قد يكون ظالماً أو مظلوماً من غيرهم فيستجیرُ
 بهم لرد ظلامته ، أو لاستدفاع مكروه عقوبته فلا بدَّ لهم من إجارته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لَا تَقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أَبَدًا ، فصار
 حشواً لا يُفيد معنى ، وقولها : قومٌ رِبَاطُ الخيل ... ألبت تقول : إنهم
 أصحابُ خيل ورماح مستعدون أبداً لدفع الأعداء والذود عن حياضهم ،
 وأسنه زُرُق : صافيةٌ لا معةٌ كأنها نجوم في الصفاء واللبان ، وقولها :
 وَتُحَرِّقُ عَنْهُ الْقَمِيصَ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ ذَلِكَ إِمَارَةٌ إِلَى جَذْبِ
 الْعَفَاقِ لَهُ ، وَالثَانِي : أَنَّهُ يُؤْثِرُ بِجِدِّ ثِيَابِهِ فَيَكْسُوهَا وَيَكْتَفِي بِمَعَاوِزِهَا
 — أَيْ الثِيَابِ الْبَالِيَةِ مِنْهَا لِأَنَّهَا ثِيَابُ الْمُعْزِزِينَ — وَقَوْلُهَا : تَخَالَهُ مِنَ الْحَيَاءِ
 سَقِيماً تَرِيدُ أَنَّهُ لِإِمْعَانِهِ فِي الْكُرْمِ وَالسَّخَاءِ تَظَنُّهُ سَقِيماً مِنَ الْحَيَاءِ خَشْيَةً أَنْ
 لَا يَكُونَ قَدْ بَلَغَ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَا يَنْبَغِي ، تَمَدُّحُهُ بِالْجُودِ كَمَا تَمَدُّحُهُ
 بِالشَّجَاعَةِ . وَالْخَيْسُ : الْجَيْشُ ، وَالزَّعِيمُ : الْكَفِيلُ وَالرَّئِيسُ . «

وقال بعضُ بني مازن :

وقد علموا بأن الحربَ ليست لأصحابِ المجامرِ والخلوقِ
 ضربناكم على الإسلامِ حتى أقنناكم على وَضَحِ الطريقِ

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبخور لِتُبَخَّرَ بها
وَيُطَيَّبَ ، والخلوق : طيبٌ معروف يُتخذ من ألوانِ شَتَّى من الطيب ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسي التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمرُ
فليس لعَيْنٍ لم يَفِضْ مأوئها عُذر

قال :

قَتَّى ماتَ بين الطعنِ والضربِ مَيَّةً
تقوم مقام النصرِ إذ فاته النصرُ
وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا السُّمُرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فَرَدَّهُ
إليه الحِفاظُ المرُّ والخلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف العارَ حتَّى كأنما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرُّوعِ أو دونه الكُفْرُ
فأُثْبِتَتْ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلُهُ
وقال لها : من تحت أَخْصِكَ الحُشْرُ

غدا عُذْوَةٌ والحمدُ تُسجُّ رداً فلم يَنْصَرِفْ إلا وكفاهه الأجرُ
تَرَدَّى ثياب الموتِ حُمراً فادجاً لها الليلُ إلا وهى من سُندسٍ خضرُ
« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتلَ قِتْلَةً بطل شجاع ، إذ لم يُقْتَلْ
حتَّى تُشْلَمَ حَدُّ سَيْفِهِ من شِدَّةِ ما ضَرَبَ به وحتى تَقَصَّصَتِ الرماح فى يديه

كما قال في البيت التالي ، قال نقدة الشعر : إن أبا تمام نظر في هذا المعنى إلى قول عروة بن الورد :

ومن بك مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِرًا من المالِ يطرَحُ نفسه كلَّ مَطْرَحٍ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيْبَةً ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَهَا مثلُ مُنْجِحٍ

قالوا : إن عروة جعل اجتهدَه في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموتَ في الحرب الذي هو أَفْصَى اجتهد المجتهد في لقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حُدّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السُمُرُ بمعنى اعتلال القنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالبِ همته من الصمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجنّعت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحفاظ : الحمية والغضبُ محافظة على الحرمة وكل ما يجب على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تُعَاتِبُنِي فَيَا تَرَى مِنْ شِرَاسْتِي وَشِدَّةِ نَفْسِي أُمُّ سَعْدٍ وَمَا تَدْرِي
فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ الْكَرِيمَ وَإِنْ حَلَا لِيُوجِدُ أَحْيَانًا أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في مُسْتَنْقِعِ الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للبوتِ مُسْتَنْقِعًا كَمُسْتَنْقِعِ الماء ، وهو : مُجْتَمِعُهُ في بطن الوادي ، وأُنْحِصُ القدم : مالا يُصِيب الأرض من باطنها يقول : إنَّه لشجاعته قد صَمَد للبوت فلا تتحول رِجلُه إلى أن يموتَ حتى كأن الحشر — يوم يُحْشَرُ الناس إلى ربهم يوم القيامة — من

تحت أنخصه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً ومات مشوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه ارتدى الثياب المظلمة بالدم فلم ينقضى يوم قتله ولم يدخل في إيلته إلا وقد صارت الثياب خضراً من سندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا البيت الطباق المسمى بالتدريج ، وهو أن يذكر الشاعر أو النثر في معنى من المدح أو غيره ألواناً لقصد الكناية أو التورية ، ويسمى تدبيح الكناية أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحررة والحضرة والمراد من الأول الكناية عن القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،



وقال البحتري :

مَمَشَرُ أَهْسَكْتُ حُلُومُهُمُ الْأَرْضَ ضَاكَ وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ ، كَانُوا غَيْرِنَا وَإِذَا التَّنْعُ نَارَ تَارُوا أَسْوَدَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْـ حَرْبٍ كَرِنُوا حِجَارَةً أَوْ حَبِيدَا

وقال مسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَدِينَةً مِنْ أَيْمِهِمْ كَانُوا بَنَى جَبْرِيلَا
قَوْراً إِذَا حَجَّى الْوَيْطِيسُ لَدَيْهِمْ جَعَلُوا الْجَاهِجَ لِلْسَيْوِفِ مَقِيلَا
وَقِيلَ لِلدَّهْلَبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ : إِنَّكَ لَتَلْقَى نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ! فَقَالَ :
إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرَسِلاً ، أَنَا نِي مُسْتَعْجِلاً ، إِنِّي لَسْتُ آتِي الْمَوْتَ مِنْ
حُبِّهِ ، وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ نُغْضِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصَنِ بْنِ الْحَمَامِ :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ تَقْدَمَا

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشقَةٌ له إذا زارها فدَّتُهُ بالخيل والرجل
« المراد بالخيل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يُقتل
ولا يُقتل فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتته وأفنت من سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجال بلا أرضٍ أكثرتهم تركت جمعتهم أرضاً بلا رجل
ما زال طرفك يجرى في دماؤهم حتى مشى بك مشى الشارب النمل
« قوله : وكم رجال ... ألبت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تغيب الأرض من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجال بلا أرض
فقتلتهم وأفنيتهم حتى خليت أرضهم فبقيت ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :
ملاً الملاً عصباً فكاد بأن يرى لا خلف فيه ولا له قدام
وقوله : ما زال طرفك ... ألبت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والنمل
السكران ، يقول ما زلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعثر بالقتل وأمالته
دماؤهم عن سنن جزيه وأزلقته حتى مشى بك مشى السكران ،
وقال الشاب الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

ومعشرٍ لم تزل للحرب بيضهم
حمر الخدود وما من شأنها الخجل^(١)

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء

إِذَا انْتَضَرُّمَا بُرُوقًا صُيِّرَتْ سُحُبًا

يَسِيلُ مِنْ جَانِبَيْهَا عَارِضٌ هَاطِلٌ^(١)

يُثْنِي حَدِيثُ الرَّغَى أَعْطَافَهُمْ طَرَبًا

كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَنَايَا بَيْنَهُمْ غَزَلٌ^(٢)

كَمْ نَارٍ حَرَبَ بِهِمْ تُشَبِّتَ وَهُمْ سُحُبٌ

وَأَرْضٍ قَوْمٍ فَاضَتْ وَهُمْ شُعْلٌ^(٣)

وقال الشاعر أبو الفرج البَغَاء شاعر اليتيمة :

يَسْعَى إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَنَاءِ قَصْدُهُ وَخَيْلُهُ بِالرُّؤُوسِ تَنْتَمِلُ

كَأَنَّهُ وَائِقٌ بِأَنَّ لَهُ عُمْرًا مُقِيمًا وَمَالَهُ أَجَلٌ

« وَالْقَنَاءُ قَصْدٌ : أَيْ قَطْعٌ ، وَالْمَفْرَدُ : تَفْصِدَةٌ وَهِيَ : الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ »

إِذَا انْكَسَرَ ،

وقال آخر :

كَأَنَّ سَيُوفَهُ صِيغَتْ عَقُودًا تَجُولُ عَلَى التَّرَائِبِ وَالنُّجُورِ

وَتُسَمَّرَ رِمَاحِهِ جُعِلَتْ هُمُومًا فَمَا يَخْطُرْنَ إِلَّا فِي صَمِيرِ

ومن كلام علي بن أبي طالب : رَبِّ حَيَاةٍ سَبَبُهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ ،

وَرَبِّ مَمْنُونَةٍ سَبَبُهَا طَلَبُ الْحَيَاةِ .

« وَبِمَدِّ » فَإِنَّ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالتَّمَدُّحِ بِهَا لَا تَكَادُ تُحْصَى كَثْرَةً ،

وَإِنَّ النَّازِلَ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَلَا سِيَّامَا الْمَنْظُومِ مِنْهُ يَتَحَقَّقُ مِنْ أَنَّ الشَّجَاعَةَ

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحب أى فى الكرم ، وهم شعل أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكون أحد شطري ما يتمدحون به ويتوهمون بفضلها ،
أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم ، وبحبك بهاتين الخلقتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قطراً من بحر ،

صدر من عبقرياتهم في وصف آلات الحرب

قال البُحرى يصف السيف :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ الْبَعِيدَ مَنَالُهُ عَفْوًا ، وَيَفْتَحُ فِي الْقَضَاءِ الْمُقْفَلَ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تَمُضْهُ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى الْوَعْيَ فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالذَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُضْغٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا تَضَى لَمْ يَغْدِلِ
مُتَأَلِّقٌ بِنُفْرِي بَأْوَلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهَا فِي يَدُ بِلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَعْتِزِ يَصِفُهُ :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَایَا كَوَامِنٌ فَمَا يُنْتَضِي إِلَّا لِسَفْكِ دِمَائِهِ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنَدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ (١)
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِي :

خَيْرُ مَا اسْتَعَصَمْتُ بِهِ السَّكْتُ عَضْبُ ذَكَرٍ هَزَهُ أُنَيْثُ الْمَهْزُ (٢)

(١) فرند الشيف : وشية

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه
لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأْتَلَتْهُ بَعِينِكَ إِلَّا أُرْعِدَتْ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَزٍّ
مِثْلُهُ أَفْزَعَ الشُّجَاعَ إِلَى الدَّرِّ عَ فَعَالَى بِهَا عَلَى كُلِّ بَزٍّ ^(١)
مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفَرَتَاهُ فِي مَحْزٍ أَمْ حَادَّتَا عَنْ مَحْزٍ
وَلَمَّا صَارَ الصَّمَامَةُ سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرْبَ إِلَى مَوْسَى الْهَادِي
أَذِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصِفُوهُ ، فَبَدَأَهُمْ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَمَامَةَ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُوسَى الْأَمِينُ
سَيْفُ عَمْرُو وَكَانَ فِيمَا سَمِعْنَا خَيْرَ مَا أُعْجِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
أُخْضَرَ الْمَتْنُ بَيْنَ حَدِيدِهِ نُورٌ مِنْ فِرْنَنْدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَارِعُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الذُّعَافُ الْقُيُونُ ^(٢)
فَبَإِذَا مَا سَأَلْتَهُ بَهَرَ الشَّمْسَ ضِيَاءً فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَعِينُ
بِاسْتِطِيرِ الْأَبْصَارِ كَالْقَبَسِ الْمُشْمَلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
وَكَانَ الْفِرْنَنْدُ وَالرُّوْنَقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
وَكَانَ الْمُنُونُ نَيْطَتْ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَارِنِيهِ مَنُونُ
مَا يُبَالِي مَنْ اتَّضَاءُ لَضَرْبِ أَشْمَالٍ سَطَتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ
قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْدِيدُهُ
السَّيْفَ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّاهُ دَرَجَاتٍ ... ^(٣) ،

وَالْمُنَاسِبَةُ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرْبَ وَصَمَامَتُهُ يُرْوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
بَعَثَ إِلَى عَمْرُو أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِسَيْفِهِ الصَّمَامَةَ هَذَا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِهِ ، فَلَمَّا

(١) يَقُولُ : إِنَّ هَذَا السَّيْفَ يُلْجِئُ الشُّجَاعَ إِلَى أَنْ يَتَّقِيَهُ بِأَجُودِ الدَّرُوعِ ، وَالْبَزِ :
السَّلاحِ يَدْخُلُ فِيهِ الدَّرْعُ وَالْمُغْفَرُ وَالسَّيْفُ (٢) الذُّعَافُ : السَّمُ الَّذِي يَقْتُلُ مِنْ
سَاعَتِهِ ، وَالْقُيُونُ جَمْعُ قَيْنَ وَهُوَ الْحَدَادُ وَكُلُّ صَانِعٍ (٣) الْقَبَسُ : الْجَذْوَةُ مِنَ النَّارِ

ضرب به وجده دون ما بلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابته يقول :
 إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذي يضرب به .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ما تقول في الرمح ؟ قال : أخوك
 وربما خانتك فانقصه ؛ قال : فما تقول في السُّرْس ؟ قال : هو الحجن
 وعليه تدور الدوائر ، قال : فالنبيل ؟ قال : منايا تُخَطِّطُ وتُصَيَّبُ ، قال :
 فما تقول في الدرع ؟ قال : مُمَقَّلَةٌ للراجل مَشْغَلَةٌ للراكب ، وإنما لحِصْنُ
 حصين ؛ قال : فما تقول في السيف ؟ قال : هُنَا لك قَارَعَتُكَ أُمُّك عن
 الشُّكْلِ^(١) ؛ قال : بَلْ أُمُّكَ اِقَالَ : بَلْ أُمُّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَعَلَاهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 بِالذِّرَّةِ ، وقيل : بَلْ قَالَ لَهُ — لَمَّا قَالَ عَمْرُ بَلْ أُمُّكَ — قال : أُمِّي
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ « الْحُمَّى أَضْرَعَتْنِي لَكَ » أراد : أن الإسلام قِيدَنِي ، ولو
 كنت في الجاهلية لم تُكَلِّمْنِي بهذا الكلام ، وهو مُشَبَّهٌ بِضَرْبِهِ الْعَرَبُ إِذَا
 اضْطُرَّتْ لِلْخُضُوعِ .

ومثل ذلك قول الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يَا بُنَيَّ ، كُنْ يَدًا لِأَصْحَابِكَ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُمْ ، وَإِيَّاكَ وَالسَّيْفَ
 فَإِنَّ ظِلَّ الْمَوْتِ ، وَاتَّقِ الرُّمْحَ فَإِنَّهُ رِشَاءُ الْمَنِيَّةِ ، وَلَا تَقْرَبِ النَّهْمَ فَإِنَّهَا
 رُسُلٌ تَغْصِي وَتُطَيِّعُ ، قال : فِيمَ أَقَاتِلُ ؟ قال : بِمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

جَلَامِيدُ أُمْلَاءِ الْأَكْمَفِ كَانَهَا رُؤُوسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ فِي الْمَوَاسِمِ

(١) الشكل : الفقد ، ولعله يريد : أن يصف السيف بأنه أفنك أنواع الأسلحة
 وأروعها فـلـك إلى ذلك سبيل الكناية فعبر بجملة لازمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة
 إذ يقول : هُنَا لك — أَى إِذَا ذَكَرَ السَّيْفَ أَرْتَقَارَعْتَ السُّيُوفَ ، قَارَعَتَهُ أُمُّكَ وَدَافَعَتَهُ
 عَنِ الشُّكْلِ وَالْهَلَاكِ إِشْفَاقًا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْإِشْفَاقَ أَعْظَمُ مَا يَكُونُ عَلَى الْمَنَازِلِ إِذَا كَانَ
 السَّيْفُ ، لِأَنَّ ضَرْبَانَهُ صَائِبَةٌ قَاتِلَةٌ

فعليك بها وأصقها بالأعقاب والسوق . و قوله : جلاميد أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوردها المبرد وهي :

تُغَطِّي ثُمَيْرٌ بالعمائم أَوَّهًا وكيف يُغَطِّي الثُّومَ طَىَّ العمام
فإنْ تَضْرِبُونَا بالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرْبُنَاكُمْ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وإنْ تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فَإِنَّا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمِ وَالْغَلَّاصِمِ
وإنْ تَمْنَعُوا مِنَّا السِّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالدَّرَاهِمِ
جَلَامِيدُ أَمَلَاءُ الْآكُفِّ كَأَنَّمَا رُؤُسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

و قوله : حلقنا رؤسا : يريد أنزلناها بالسيوف ، واللهأ بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحمه مُشرقة على عَكَّة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
الحمة بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدراهم ،

وقال المعري :

كَأَنَّ أَرَاقِمًا نَفَثَتْ سِمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبَيَضًّا نَحِيلًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حَمَّةُ الْإِفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ فَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيلًا
كَأَنَّ فِرْنَدَةَ وَالْيَوْمُ خَمْتُ أَفَاضَ بِصَفْحِهِ تَجَلًّا تَجِيلًا
تَرَدَّدَ مَآوُهُ عُلُومًا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنَّ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُجْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوْلًا

و كأن أراقما ... البيت يقول : كأن الحيات نفخت السموم على هذا
السيف فصار أبيض ناعلا ، وذلك أن السم ووصوف بالبياض ، ومن
ذكرته الحية وأنفثت فيه سمها تحل جسمه ، فجعل البياض في السيف لونا
للسم والنحافة فعمله ، و قوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السف

بالشجول لما نَفَشَتِ الأَرَاقِمُ عليه سِمَانَهَا حَقَّقَ وَجْهَ نَحْوِهِ ، وهو أن مَنْ خَالَطَهُ سُمُّ الأَفَاعِي هَلَكَ فِي غَالِبِ الأَمْرِ ، وَإِنْ فَاتَهُ الهَلَاكُ عَاشَ تَلِيْسًا ، والعَلِيلُ نَحِيلُ الجِسْمِ لَا مَحَالَةَ ؛ وَقَوْلُهُ : كَأَن فِرْدَ نَدَهُ ... البَيْتُ فَالْفِرْدُ : جَوْهَرُ السِّيفِ وَمَاؤُهُ ، وَيَوْمَ تَحْتُ : شَدِيدُ الْحَرِّ ، وَالسَّجْلُ : الدَّلْوُ ، إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ ، وَلَا يُقَالُ لَهَا وَهِيَ فَارِغَةٌ : تَسْجَلُ وَلَا ذَنْوَبٌ ، وَالسَّجِيلُ : التَّضَخُّمُ الْعَظِيمُ ، يَصْفُ بِيَاضِ السِّيفِ وَبَرِيقِهِ ، أَيْ كَأَن جَوْهَرَ السِّيفِ وَقَدْ صُتِبَ بِوَجْهِهِ دَلْوٌ مِنَ الْمَاءِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، فَهُوَ أَبْيَضُ بَرَأَقَ كَأَنَّهُ مَاءٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ شِدَّةَ الْحَرِّ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْيَوْمُ شَدِيدَ الْحَرِّ كَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى الْمَاءِ أَشَدَّ ، أَوْ لِأَن الْمَاءَ مَعَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ أَشَدَّ بَرِيقًا وَلَمْعَانًا . وَقَوْلُهُ : تَرَدَّدَ مَاؤُهُ ... الْبَيْتُ لَمَّا شَبَّهَ فِرْدَ السِّيفِ بِالْمَاءِ وَصَفَهُ بِأَن الْمَاءَ كَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ وَمِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ ، وَيَهْتُمُّ الْمَاءُ أَنْ يَسِيلَ مِنْ صَفْحَتِهِ فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّيْلَانِ ، لِأَنَّهُ مُحْصُورٌ فِي أَجْزَائِهِ ، وَقَوْلُهُ : يَكَادُ سَنَاهُ ... الْبَيْتُ فَالْسَّنَا : الضَّرْبُ ، وَفَرَاهُ : قَطْعُهُ ، وَكَلَّ السِّيفِ وَالرَّحْمَ يَكْلُ كُلَا : إِذَا تَبَا عَنْ الْعَمَلِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا السِّيفُ جَمَعَ بَيْنَ النَّارِ وَالْمَاءِ فَهُوَ يُحْرَقُ مِنْ قَطْعِهِ وَيُفْرِقُ بِمَانِهِ مَنْ كَلَّ السِّيفُ عَنْهُ قَتَبَا مِنْهُ .

وقال إسحاق بن خُلف :

أَلْقَى بِجَانِبِ خَصْرِهِ أَهْضَى مِنَ الْأَجْلِ الْمُنْتَاحِ
وَكَأَنَّمَا ذَرْتُ الْهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّيَّاحِ

وقال النابغة :

تَطِيرُ فِضَاضًا بَيْنَهُمْ كُلَّ قَوَائِسَ وَيَتَّبِعُهَا مِنْهُمْ قَرَأَشُ الْحَوَاجِبِ

تَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ رَأُوقِدُ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ
 « نَضَضْتُ الشَّيْءَ أَثْنَاهُ نَضًّا فَهُوَ مَفْضُوضٌ وَفَضِيضٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَّقْتُهُ ،
 وَفَضَاؤُهُ وَفَضَاؤُهُ : مَا نَكَسَّرَ مِنْهُ وَتَفَرَّقَ ، وَالْقَوْنِسُ : مُقَدِّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنِسُ الْبَيْضَةِ مِنَ السِّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفَرَأْشُ : عَظْمُ الْحَاجِبِ ، أَوْ شُرَّةُ
 تَكُونُ عَلَى الْعَظْمِ دُونَ اللَّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرْبُهُ فَأَطَارَ فَرَأْشَ رَأْسِهِ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ الْعِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلُوقِيَّ : الدَّرْعَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَى سَلُوقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمَنِ تُعْرَفُ بِسَلَقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ أَيْضًا السِّكْلَابُ السَّلُوقِيَّةُ ،
 وَالصَّفَاحُ جَمْعُ صَفَاحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْحُبَابِ :
 الشَّرَرِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السِّیُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعُفَ نَسْجِهَا وَالْفَارِسَ وَالْفَرَسَ وَتَصِلُ
 إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالصَّفَاحِ » .

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ يَصِفُ الدَّرْعَ :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَأَن مَتَوْنَهَا فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ مُتَوْنٌ مِنْهَا
 بَيْضٌ تَسِيلُ عَلَى السُّكَاةِ فُضُولُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرِ بَيْدَاءِ
 وَإِذَا الْأَسِنَّةُ خَالَطَتْهَا رَخِلَتْهَا فِيهَا تَحِيَالٌ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ
 « مِنْهَا جَمْعُ زَيْتٍ ، وَالنَّهْيُ : الْغَدِيرُ »

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ .

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَتْهَا تَطَرِدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَا غَابَ فِيهِ جَمْدُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الْفُرْسَانِ سَابِقَهُ صَوْبُ الْأَسِنَّةِ فِي أَثْنَانِهَا دِيمُ

تُحُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عُدْو الممدوح
 درعٌ سَابِغَةٌ قَدْ تَلَطَّخَتْ بِالْدمَاءِ الَّتِي تَسِيلُ مِنَ الْإِسْتِةِ عَلَيْهَا ، أَوْ أَنَّ وَقَعَ
 الْإِسْتِةُ فِي هَذِهِ الدَّرْعِ كَقَدِيمَةِ الْمَطَرِ تَتَابَعًا . ويقول في البيت الثاني : إن
 الرِّيحَ تَوَثَّرَ فِي دَرْعِهِ ، أَيْ نَجَرَحُهَا ، وَلَا تَنْفُذُهَا إِلَى جِسْمِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ
 أَسَنَّتَهَا أَقْلَامَ تُحُطُّ فِي الْقِرطَاسِ وَلَا تَخْرُقُهُ » . وقال المعري :

إِذَا طُوِيَتْ فَالْقَعْبُ يَجْمَعُ شِمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ إِيمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكُهَا دُبابُ حَسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَغَى وَابْنَةُ اللَّظَى وَأَخْتُ الظُّبَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ

« الْقَعْبُ : الْقَدَحُ الصَّغِيرُ ، وَنَثَلَ الدَّرْعَ يَنْثُلُهَا : إِذَا أَلْقَاهَا عَلَى نَفْسِهِ
 وَصَبَّهَا عَلَيْهِ ، وَالتَّمَادُ جَمْعُ تَمَدٍّ وَهُوَ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ . يقول : إِذَا طُوِيَتْ
 صَغُرَ حُجْمُهَا بِالطَّى حَتَّى يَسَعَهَا الْقَعْبُ . وَإِنْ كُبِسَتْ سَالَتْ عَلَى الْبَدَنِ
 كَالْمَاءِ . وقوله : وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ ... الْبَيْتُ ، فَسَدِكُ الشَّيْءِ : لَزِمَهُ ، وَشَادٍ
 يَشْدُو فَهُوَ شَادٍ : إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغَنَاءِ ، شَبَّهَ هَذِهِ الدَّرْعَ بِالرَّوْضَةِ ،
 وَالذُّبَابُ يَجْتَمِعُ فِي الرِّيَاضِ وَيُصَوِّتُ فِيهَا ، يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الدَّرْعَ رَوْضَةٌ
 قَدْ أُولِعَ بِهَا ذُبَابُ السَّيْفِ ، وَهُوَ : حَدُّهُ الَّذِي يَتَغَنَّى فِي الدَّرْعِ ، أَيْ أَنَّهَا
 دِرْعٌ لَا تَزَالُ عَلَى بَطَلٍ مُحَارِبٍ تَرُدُّهَا سُيُوفُ الْأَقْرَانِ وَتَقَارِعُهَا فَيُسْمَعُ
 صَوْتُ وَقْعِهَا . وقوله : عَلَى أَنَّهَا ... الْبَيْتُ فَالْجِلَادُ : الضَّرَابُ بِالسَّيْفِ ،
 وَجَعَلَ الدَّرْعَ أُمُّ الْوَغَى — أَيْ الْحَرْبِ — إِذْ أَنَّهَا تَجْرِي تَجْرِي الْأَصْلَ
 وَالْمَلْجَأُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَهَا ابْنَةُ اللَّظَى — أَيْ النَّارِ — لِأَنَّهَا لَمَسَا
 نَحْمَلَتْ بِالنَّارِ ، وَأَخْتُ الظُّبَى — جَمْعُ ظُبَّةٍ وَهِيَ حَدُّ السَّيْفِ — إِذْ لَا تَزَالُ

تردها طُبات السيوف وتَقَارِئُهَا ولا تؤثر فيها ، وَصَفَهَا بهذه الأسماء المُنْبِتَةِ
عن القرايات مُريداً بها ما يَنَاسِبُهَا من المعنى .

ولأبي العلاء المعرّي في الدروع مقطوعات كثيرة ، كَقَدِ آفَنَ فِيهَا افْتِنَانَا ،
وَأَبْدَعَ مَا شَاءَتْ عِبْقَرِيَّتُهُ تَرَاهَا فِي سَقَطِ الزَّوْدِ .

وإذا أردت التوسع في وصف آلات القتال من السيوف والدروع
والرماح والقسيّ والنبال وما إلى ذلك فارجع إلى الموسوعات العربية ودواوين
الشعراء فسوف تَرَى فِيهَا الطَّمَّ والرَّمَّ ، مِمَّا عَمَلَهُ يَنْقَعُ عُكَلَتُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

تَمَّ الْجُزْءُ الثَّانِي وَيَلِيهِ الْجُزْءُ الثَّالِثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعت لِظُلْمِهِ فحرك أحشائي وهزت كلابيا

وقد نهينا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فزعتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذي أوردناه هناك في
شرحه فقول : قال التبريزي : فحرك أحشائي يروى « وحرك أحشائي »
وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مِنِّي : إذا اضطربت له ، وقوله :
حرك أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لوجيب قلبه وخفقانه ،
ونبعت كلابه لتهيئته للانتقام وتدجيجه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب
يُنْكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :
أناس إذا ما أنكرَ الكلبُ أهله

حَمَمُوا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ

ووجه آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يُعَدُّه .
والمستترع يُلْحَقُهُ ذلك

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عُمرُ بنُ الخطاب رجلاً يقول : أنا ابن

بطحاء مَسَكَةٍ ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٣١٨
طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول
لآخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسَلِّطِيعِ البَطَاحِ ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصل ، وإن كان لك خُلُق فلك شرف ،
وإن كان لك تقوى فلك كرم ، وإلا فذاك الحمار خير منك ؛ أحببكم إلينا
قبل أن نراكم أحسنكم سَمْتًا ، فإذا تكَلَّمْتُمْ فَأَيِّدُكُمْ مَنطِقًا . فإذا اخْتَبَرْنَاكُمْ
فأَحْسَنُكُمْ فِعْلًا .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادُ عَجْرِدٍ في ذلك
من أبيات : بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ الخ ، وصوابه هكذا : وقال بشار
ابن بُرد يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
سَمَّنَحَهُ فلم يَمْنَحَهُ :

ظَلَّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَّاسِ مَمْدُودُ	وَقَابَهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَمْقُودُ
إِنَّ الْكِرِيمَ لَيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتُهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ سَجُودُ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَوَالِهِ عِلَلُ	زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سَوْدُ
إِذَا تَكَرَّهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَايِلَ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
أَوْ رَقَّ بِخَيْرٍ تُرْجَى لِلنَّوَالِ فَمَا	تُرْجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُوْرِقِ الْعُودُ
بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ	فَكُلِّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وما حُبَّزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ فِي الْمَثَلِ
وصوابه هكذا :

وما حُبَّزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ فِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لأبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا البيت :

على خبز إسماعيل وافية البخل فقد حلّ في دار الأمان من الأكل

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سَوَى صُورَةٍ مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِي
إلى آخر الأبيات . والمُثَلُّ هُوَ الْمُثَلُّ جَمْعٌ ، وَمَثَالٌ وَهُوَ : مَا يُفْتَرَشُ مِنْ مَفَارِشِ
الصُّوفِ الْمُلوَّنةِ ، وَقَوْلُهُ : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نَضْمِيرٌ عَنْهَا لِمَنْقَاءِ مُغْرِبٍ ،
وَقَوْلُهُ : مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِي : فَنَمْرٌ : تَجْعَلُهُ مُرًا وَتَحَلِي : تَجْعَلُهُ حُلُومًا وَالْمَعْنَى :
لَا تَأْتِي هَذِهِ الصُّورَةُ بِطَائِلٍ إِذْ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِمَنْقَاءِ مُغْرِبٍ فِي الْوَاقِعِ وَهَذَا
عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : فَلَا أَنْتَ حُلُومٌ وَلَا أَنْتَ مُرٌ : أَيْ لَسْتَ هُنَاكَ »

وجاء في صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد
به باطل .

وجاء في صفحة ١٥٩ : ولى حُمُرُ النعم . وصوابها . ولى حُمُرُ النعم

وجاء في صفحة ٣١٥ : لَمْ يَدْخُلْهُ بِإِذْنِي فَأُخْرِجُهُ بِإِذْنِي . وصوابها :
لَمْ يَدْخُلْهُ بِإِذْنِي فَأُخْرِجُهُ بِإِذْنِي .

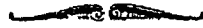
وجاء في هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابن
عبّاش رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بن عياش المُحدِّثُ
المتروكى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء « ج ٧ ،

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذا أنا شاب إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تصبّرتُ ورَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يرجعنى ويزيدنى ألمًا ، حتى رأيت بالكناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خَلِيلِيَّ عَوْجاً مِنْ صَدُورِ الرِّوَا حِلْ بِجَهْوَرِ حُزْوِي وَأَبْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجْمِيَّ الْبَلَابِلِ

فسألت عنه فقيل : ذو الرُّمّة ، قال : فأصابتنى بعد ذلك مصائب فكانت أبكى فأجدُ راحة ، فقلت : في نفسي : قاتل الله الأعرابي ، ما كان أبصره وأعلمه !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

ص	سطر	خطاً	صواب
١٢	٧	وفي باب الغرم	وفي باب العزم
٤٤	١	فِيصِيرُكَ	فِيصِيرُكَ
٤٦	٤	حَسَنُ السِّكِّدَةِ	حَسَنُ السِّكِّدَةِ - بكسر الكاف
			وضمها - : أى السَّعْن
٤٨	٢٠	فَكَأَنَّهُ	فَكَأَنَّهُ
٦٠	٢٠	عَلَّتْهُ	عَلَّتْهُ
١٠٠	١٢	عُلُوُّ	عُلُوُّ
١٢١	١٤	فَإِنْ يَكُ حُرْمٌ	فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ
١٢٢	١٥	قال من لا أذكر اسمه	قال زُفَر بن الحارث
١٦٢	١٩ و ١٨	• يلاحظ في هذه الأسطر أن السطرين ١٧ و ١٩ فصل بينهما	سطر أجنبي عنهما
١٦٨	١٣	الشاعر البيغاء	الشاعر البيغاء
١٨٤	١١	نهيهم عن الغضب في المزمع	نهيهم عن الغضب من المزمع
٢٢٩	١٠	أَيَّ يَوْمَيَّ	أَيَّ يَوْمَيَّ
٢٤٠	١٧	وانجلى الزُّبْدُ	وانجلى الزُّبْدُ
٢٤٤	٨	إِنَّ الْعَدُوَّ	إِنَّ الْعَدُوَّ
٢٤٧	٥	بيد أن معناها	بيد أن معناها
٢٥١	٤	سَخَاب	سَخَاب

فهرس الجزء الثانى

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج فى الابواب السابقة

سهر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٣ حادث تلاقى فيه الكرم بالضعافة والمروءة
والحياء والنبل ٧ حلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما برزقه العبد ١٠ لاتزال العرب عربا ماحافظت
على زبها ١٠ توقيير العالم والشريف والكبير ١١ عيرة ١٤ لاتشك لى غير الله ١٥ نبالة
وسروءة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات فى السؤال ١٦ كانوا يرون أن الملوك لا يستحق من مسائلهم ١٦
مثل فى الرياء ١٨ اللهم نصف الحرم ١٩ مثل الدنيا وآفاتا ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله فى
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آمنه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيق شينا
ضاق جداً ٢٢ لاتلهون على ما فانك ٢٣ ومن قولهم فى الحث على التمرى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
الثام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات فى الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ فى الموت ٣٥

طائفة من عقرياتهم فى التعازى

التسليه بعد وقوع المخذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الاحق بالميت ٣٨ من تداوى الملوك
وتسليمهم بأن الناس جميعاً مصابون ٣٨ التسلى بأنهم ممزى لامعزى به ٣٩ التسلى عن معنى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادهبهم
لذوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم فى الطب والمرضى وعيادة المرضى

معنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٣ الطبيب الجامل ٤٣ مدح الحية وذوها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولد علة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ النفوس ٥١ عود إلى عقرياتهم فى الشداوى والأدوية ٥١
شموة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع المرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تال الأمانى ٥٤ وجوب عيادة المريض ٥٦ أدب عيادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعود إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العيادة ٥٧ من علاه بمرضه ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حنهم العائد على تنفيط المريض ٥٨ حنهم على تخويفه ليتجنب المنيلا ٥٨ تغير اللون ٥٨ تنهت
من برأ من المرض ٥٩ نفذية المريض ٦٠

عقبريات شتى
٦١ { في الطب والمرض والعيادة

الباب الرابع في كتمان السر وإفشائه

وعقبرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والآناة والعجلة

تمهيد ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من يكره اطلاعه على السر ٦٧ المفتخر بحفظ السر ٦٨ الممدوح بحفظ السر ٦٨ صموية حفظ السر ٧٠ من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره ٧٠ الأحوال التي يفشو فيها السر ٧١ المسارة في المحافل ٧١ المتجسس باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق ٧٢ عقبريات شتى في كتمان السر ٧٣ عقبرياتهم في المشورة والاستبداد بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم على مشاورة الخازم اللبيب ٧٧ استشارة الكبار والصغار ومن يعتمد على مشورته ورويته ٧٨ من يجب أن يجنب استشارته ٨١ وجوب نصيحة مستشيرك ٨١ الحك على قبول النصيحة وإن كان مرأ ٨٣ عتاب من لم يقبل النصيحة ٨٣ ضياع النصيحة لمن لا يقبله ٨٣ معاتبه من يستنصح الناس ويستغش الناس ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش في نصحه ٨٦ الاستبداد وكره المشورة ٨٦ المتفادى من أن يستشار ٨٨ مدح الآناة والرؤية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة وانتهاز الفرص ٩٠ عقبريات شتى في المشورة ٩١

عقبرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نهي من لم يتعظ عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال. دون المقال ٩٥ التلطف واللين في الوعظ ٩٦ الحك على الانعاط ٩٦ وعظ من لا يتعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من ليس يتعظ ٩٧ النهي عن الاقتداء بذوى الزلات ٩٧ الحك على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها ٩٧

الباب الخامس

في الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعاني

تمهيد ١٠٠ الممدوح بالحلم وتمدحهم به ١٠٢ فضل كظم الغيظ ١٠٤ التغضب وألوانه وما يسكن به ثورانه ١٠٥ من اجتهد في إغضابه فحلم ١٠٧ حثهم على ترك الغضب المزدى إلى الاعتذار ١٠٩ حثهم على التصامم عن القبيح وتمدحهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١ الرحمة ومدح ذريها ١١٢ ما يستحسن فيه الحلم من الكبار وما يستقبح ١١٢ حثهم على درء الحدود ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتنشي من قليب ١١٤ مدح من صفيح ١١٤

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باطنه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب
بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المعترف ١١٧ نحن العفو عن المصير ١١٨ استعفاء من خلط
لإقرارا بانكار ١١٨ معتذر مع إنكار ١١٩ معتذر بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن
ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعف سأل أن يقوم ويؤوب ١٢٢ مستعف سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢
مستعف اتكل على سالف حرمته ١٢٢ الاستعفاء المذنب من قوم محسنين ١٢٣ متوصل إلى العفو
بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعف ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب معاً ١٢٤
المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبيين ١٢٥ نهي العافي عن التثريب ١٢٥ نهيهم عن الاعتذار
وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ النبي عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً ١٢٨
دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نهي عن الاغترار بحلمه ١٣٠ الحلم مقر وضار مذل ١٣٠ نهيهم
عن إكرام اللثام ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل
فوته ١٣٢ التوجه بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البريء بذنب الجاني ١٣٤ عذر من
بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نهيهم عن الاعتزاز بالود تستيطعن معه
العداوة ١٣٩ نهيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نهيهم عن احتقار العدو ١٤٣
المتجسس باظهار الليان وإضمار العداوة ١٤٤ الممدود يكافرك إذا حضره ١٤٥ من نظره بني
عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حد المداهاة طلباً للفرصة ١٤٧ المصرة بواقع
العداء بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لئيم أو ذنب ١٤٨
حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عقوباتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم

من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما تابوا ١٤٩ وجدت الناس أخبر قله ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد
فيها رحلة ١٥١ لوتكاشفت ما تداخمت ١٥٢ تفريق في الناس والوأنهم ١٥٢ الغوغاء ١٦١ فلة
الوقاء في الناس وشيوع الغدر والمكر في عامتهم ١٦٣ الأندال والثام ١٦٦ الظن ١٦٨
الشماتة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نهيهم عن
الزاح ١٨٢ حدهم القصد في المزاح والأمثال ١٨٣ نهيهم عن الغضب من المزح ١٨٤ الممدوح
بأن فيه الجسد والمهزل ١٨٤ عذر من يضحك وهو محزون ١٨٥ نهيهم عن كثرة الضحك ١٨٥
إيراد جد في مسلك هول ١٨٥ صدر من عقوباتهم في الغيبة والنميمة - حقيقة الغيبة ١٨٦ ذم الغيبة
والنميمة ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من قلت مبالاته بمن
اغتابه ١٨٨ ذم ناقص بذئاب فاضلاً ١٨٩ من رمى غيره بعيه ١٩٠ اغتياب المرء غيره يدل على
عيه ١٩٠ تشبي الغيبة واستطابتها ١٩١ من اغتاب فغتيب ١٩٢ نهيهم عن الاصفا إلى
الغتاب ١٩٢ الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة ١٩٢ حثهم على التثبت فيما يسمع من السامع ١٩٢
صعوبة التخلص من اغتياب الناس ١٩٥ ذم ناقل الغيبة ١٩٦ الموصوف بالنميمة ١٩٦ من اغتاب
غيره فرآه ١٩٦ من لا يوم اغتيابه ١٩٧ حثهم على التحرز عما يقتضى الغيبة ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والكبر وما إليهما

حد التواضع والكبر ١٩٨ حثهم على التواضع ٢٠٠ ذمهم التكبر ٢٠٣ بعض دواعي التكبر ٢٠٤
متكبر ذنى أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبهض نوادر المزهوين ٢٠٥
معتذر لعجبه وعزته ٢٠٧ التكبر على ذوى الكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حمد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعقرياتهم فيها

وفى الصبر فى القتال وسائر ما يتصل بالحرب

حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المتبعة ٢١١ حثهم على الثبات والاقدام ونهيه عن الاحجام
والفكر فى العواقب ٢١٢ المبادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبالغة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عقرياتهم فى الصبر ٢١٧ الخدعة والحيلة
والتحريز فى الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أسراء الجيوش ٢٢٢ حثهم على التفكير قبل
التقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت فى العز على الحياة فى الذل ٢٢٨ نهيه عن مخافة القتل وحثهم على تصور
الموت وتمدحهم بذلك ٢٢٩ الجود بالنفس وحب الموت فى الوغى وأنقذهم من الموت على الفراش ٢٣٤
من يحوض الحرب لابد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ فى القتل حياة ٢٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والدوفى على الجاعة ٢٣٩ المدح بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اقتصد إلى العدى مجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حريمه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول فى الحرب ٢٤٦ العاجز
أعداه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من أصبح الطيور والسباع فى القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها فى الحرب والمستغنى بشجاعته وبثبته عنها ٢٥٢ تحريم الملامى على المحارب ٢٥٤
طائفة من عقرياتهم فى الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبا و غير جانبا ٢٦٠
المنتع من الصلح ٢٦١ ضارع يطلب الصلح ٢٦٢ المعير بانتهزامه ٢٦٧ ترك اتباع المنهزم ٢٦٨
الفرار وقت الفرار واثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والمخرج لانهزامه بالخوف من
القتل ٢٧٠ هارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تسلية المنهزم ٢٧٤ صدر من عقرياتهم فى الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويجهن فيها ٢٧٧ عقريات شتى فى الشجاعة والحرب ٢٧٧ ما غزى قوم فط فى عقر دارهم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عقرياتهم فى وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدراكات أخطا فى الجزء الأول ٣٠٤
استدراكات أخطا فى الجزء الثانى ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨

